حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر ومحقق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق

محمد الحمود النجدي

الجزء الرابع



جمعية إحياء التراث الإسلامي

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر ومحقق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الرابع



جمعية إحياء التراث الإسلامي

طبعت هذه النسخة :
على نفقة فاعلة خير
آجرها الله تعالى فيما أعطتْ
وبارك لها فيما أبقت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله و كفى ،

وسلام على عباده الذين

اصطفى ،

أما بعد ، ، ،

فإيماناً من اللجنة العلمية و الثقافية بما للكتاب الإسلامي من أثر فعّال في نشر العلم الشرعي بين المسلمين ، و تجديد نصوص القرآن و السنة في حياتهم اليومية ، وإحياء القدوة الصالحة من سلفنا الكرام ـ رضي الله عنهم ـ لتكون ماثلة أمامهم في واقعهم العلمي .

رأت اللجنة تبني إصدار هذا الكتاب المبارك في تفسير كتاب الله تعالى ، وهومن الكتب التي لا يخفى على المسلمين مكانها في المكتبة الإسلامية ، لاسيما الجهد المبذول في إخراجه بهذه الصورة الميسّرة المحققة ، والتي نرجو أن يعم بها النفع لإخواننا المسلمين ، و أن يكتب الأجر لكل من ساهم في هذا العمل الصالح . وفق الله الجميع لما يحبه و يرضاه ،

و آخر دعوانا أن الحمد لله

رب العالمين .

جمعية إحياء التراث الإسلامي

فرع ضاحية صباح الناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين

مقدمة

الحمد لله العزيز الوهاب، ملك الملوك ورب الأرباب، أنزل على عبده الكتاب، هدىً وذكرى لأولي الألباب.

والصلاة والسلام على نبنيا وحبيبنا محمد، الذي أظهر الله على يديه الحق وأوضح الصواب، وانقشعت برسالته ظلمات الشك والشرك والارتياب، وعلى آله أولي الأحساب، وأصحابه أئمة الفضل والهدى، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الحساب.

وبعد:

فقد منَّ الله تعالى شأنه علينا بالانتهاء من هذا الكتاب المبارك «حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير» وإتمامه بهذا الجزء الرابع الذي بين يديك أخي القارئ الكريم، وقد سرنا فيه على ما تقدم من المجلدات الثلاث السابقة.

نسأل الله تعالى أن يجعله ذخراً لنا يوم نلقاه، وأن يكتب الأجر والثواب لكل من ساهم معنا فيه، بمراجعة أو تصحيح أو طباعة أو نشر أو توزيع.

ولعلنا أن نجمع هذا التفسير في مجلدين أو مجلد كبير ، ليسهل تناوله ، والله الموفق لكل خير ، إنه سميع الدعاء .

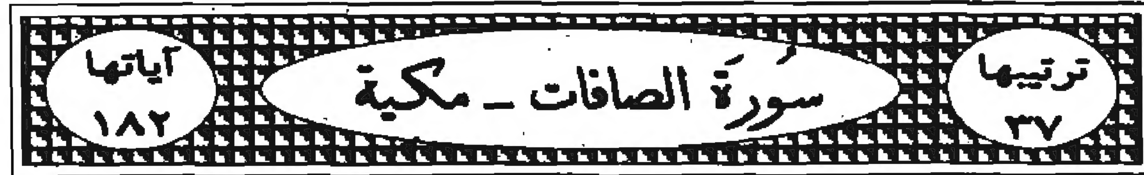
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

و كتبه/

محمد الحمود النجدي الأثري

الكويت ـ لعشر مضين من شوال ١٤٢٨هـ



روى النسائي: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ⑤﴾

١- روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ وهي الملائكة ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ هي: الملائكة ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هي: الملائكة، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وقتادة والربيع بن أنس. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. روى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعل لنا ترابها طهوراً، إذا لم نجد الماء».

وقد روى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي وابن ماجة: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف».

٢- وقال السدي وغيره: معنى قوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ أنها: تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ ما زجر الله تعالى عنه في القرآن، وكذا روى مالك عن زيد بن أسلم.

٣- ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدي: الملائكة، يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

٤، ٥- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا هو المقسم عليه، أنه تعالى لا إله إلا هو، رب السموات والأرض، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره، بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات، تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب، لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ⑦ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى

﴿الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

٦- يخبر تعالى: أنه زين السماء الدنيا، للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت، يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾.

٧- فقوله جل وعلا ههنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتي، إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه.

٨- ولهذا قال جل جلاله: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ لئلا يصلوا إلى الملإ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى، ، بما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك، في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها.

٩- ﴿دُحُورًا﴾ أي: رجماً يدحرون به، ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ويرجمون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم، موجع مستمر، كما قال جلت عظمته ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

١٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مستنير.

روى ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان للشياطين مقاعد في السماء، قال: فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرمى، قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعاً، قال: فلما بُعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قصد مقعده، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلا من أمر حدث، قال: فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة ـ قال وكيع: يعني: بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال: هذا الذي حدث.

وستأتي إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى، عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)
وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا
هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾

١١ - يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً، هم أم السموات والأرض وما بينهما، من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أم من عددنا﴾ فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك، فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا؟ كما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة: هو اللزج الجيد، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد.

١٢ - وقوله عز وجل: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: بل عجبت يا محمد، من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى، من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم، ويسخرون مما تقول لهم من ذلك. قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسَخِر ضُلال بني آدم.

١٤ - ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يستهزئون.

١٥ - ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن هذا الذي جئت به، إلا سحر مبين.

١٦، ١٧ - ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك، ويكذبون به.

١٨ - ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة، بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: حقيرون، تحت القدرة العظيمة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

١٩ - ثم قال جلت عظمته: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة، أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون، إلى أهوال يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ
ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ
إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾

٢٠ - يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة، أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة، ندموا كل الندم، حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا يَا

﴿وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ .

٢١- فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين ، في الموقف في محشرهم ومنشرهم .

٢٢- ولهذا قال تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه : يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وأبو صالح وأبو العالية وزيد بن أسلم . وعن النعمان قال : سمعت عمر يقول : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال : أشباههم ، قال : يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . وعن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما : أزواجهم : نساءهم . وهذا غريب ، والمعروف عنه الأول ، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير عنه : أزواجهم : قرناءهم ، وما كانوا يعبدون من دون الله أي : من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم .

٢٣- وقوله تعالى : ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي : ارشدوهم إلى طريق جهنم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ .

٢٤- وقوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أي : قفوهم حتى يسئلوا عن أعمالهم وأقوالهم ، التي صدرت عنهم في الدار الدنيا ، كما قال الضحاك عن ابن عباس يعني : احبسوهم إنهم محاسبون . وقال عبد الله ابن المبارك سمعت عثمان بن زائدة [1] يقول : إن أول ما يسئل عنه الرجل جلساؤه .

٢٥- ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي : كما زعمتم أنكم جميع منتصر .

٢٦- ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي : ينقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾

٢٧- يذكر تعالى : أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

(١) عثمان بن زائدة المقرئ ، أبو محمد الكوفي العابد ، الثقة الزاهد ، من رجال مسلم .

أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

٢٨- وهكذا قالوا لهم ههنا: **﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾** قال الضحاك عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء. وقال مجاهد: يعني: عن الحق، والكفار تقوله للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنس للجن: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه، وقال السدي: تأتوننا من قبل الحق، وتزينوا لنا الباطل، وتصدونا عن الحق، وقال الحسن: أي والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه، وقال ابن زيد: معناه: تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان، والعمل بالخير الذي أمرنا به، وقال عكرمة: **﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾** قال: من حيث نأمنكم.

٢٩- وقوله تعالى: **﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان.

٣٠- **﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾** أي: من حجه على صحة ما دعوناكم إليه **﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴾** أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم.

٣١، ٣٢- **﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾** يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله، إنا من الأشقياء، الذائقين للعذاب يوم القيامة **﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾** أي: دعوناكم إلى الضلالة **﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾** أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا.

٣٣- قال الله تبارك وتعالى: **﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾** أي: الجميع في النار، كل بحسبه.

٣٤، ٣٥- **﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا﴾** أي: في الدار الدنيا **﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾** أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» وأنزل الله تعالى في كتابه العزيز، وذكر قوماً استكبروا، فقال تعالى: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾** .

٣٦- **﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾** أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا، عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ.

٣٧- قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم **﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾** يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق، في جميع شرعة الله تعالى له، من الأخبار والطلب **﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾** أي: صدقهم فيما أخبروا عنه، من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا **﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾** الآية.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ

﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

٣٨، ٣٩- يقول تعالى مخاطباً للناس ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾.

٤٠- ولهذا قال جل وعلا ههنا: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم شيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف.

٤١- وقوله جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ قال قتادة والسدي: يعني: الجنة.

٤٢- ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أي: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: يخدمون ويرفهون وينعمون.

٤٣، ٤٤- ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

٤٥- ٤٧- وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾ نزّه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة، عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى ههنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله عز وجل: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طعم الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله تعالى: ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيهم غولاً، وهو وجع البطن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وابن زيد، كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه، لكثرة مائيتها، وقيل: المراد بالغول ههنا: صداع الرأس. وروي هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن. وعنه وعن السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأوّل الأوّل

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى، والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم. وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب والحسن وعطاء ابن أبي مسلم الخراساني والسدي وغيرهم.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: عفيفات، لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وزيد بن أسلم وقتادة والسدي وغيرهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿عِينٌ﴾

أي: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف عليه السلام حين جمّلته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة، لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: هو مع هذا الجمال، عفيف تقي نقي، وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾.

٤٩- وقوله جل جلاله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصفهن بترافة الأبدان، بأحسن الألوان. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون. وقال الحسن ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعني: محصون لم تمسه الأيدي. وقال السدي: البيض في عشه مكنون. وقال سعيد بن جبير: يعني: بطن البيض. وقال السدي: يقول: بياض البيض حين ينزع قشرته. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَّكْنُونٌ﴾ قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي، بخلاف داخلها، والله أعلم.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

٥٠- يخبر تعالى: عن أهل الجنة، أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم، ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم يسعون، ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

٥١- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعني: شيطاناً. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما: فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وكل منهما يوسوس، كما قال الله عز وجل: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾.

٥٢- ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد.

٥٣- ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا. وكلاهما صحيح.

٥٤- قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: مشرفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة.

٥٥- ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وخليد العصري وقتادة والسدي وعطاء الخراساني: يعني: في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم، كأنه شهاب يتقد، وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى.

٥٦- ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كِدتَّ لتهلكني لو أطعتك.

٥٧- ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي: ولولا فضل الله عليَّ لكنت مثلك في سواء الجحيم، حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليَّ ورحمني، فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

٥٨، ٥٩- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. هذا من كلام المؤمن، مغبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى، من الخلد في الجنة، والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب.

٦٠- ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قوله عز وجل: ﴿هَنِيئاً﴾ أي: لا يموتون فيها، فعندها قالوا ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: لا، ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٦١- وقوله جل جلاله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه لمثل هذا النعيم، وهذا الفوز، فليعمل العاملون في الدنيا، ليصيروا إليه في الآخرة.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)﴾

٦٢- يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من الجنة، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح، وغير ذلك من الملاذ، خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي: التي في جهنم، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم: إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة، إلا وفيها منها غصن، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك، جنس شجر يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ يعني: الزيتونة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾.

٦٣- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جهل لعنه الله: إنما الزقوم التمر والزبد

أتزقمه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم، اختباراً نختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾.

٦٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: أصل منبتها في قرار النار.

٦٥- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها. قال وهب بن منبه شعور الشياطين قائمة إلى السماء، وإنما شبهها برءوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وقيل: المراد: بذلك ضرب من الحيات، رءوسها بشعة المنظر، وقيل: جنس من النبات طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمال نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

٦٦- وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة، التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

وروى ابن أبي حاتم رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أنَّ قطرةً من الزقوم قَطَرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟» ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

٦٧- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: شرب الحميم على الزقوم، وقال في رواية عنه: شرباً من حميم، مزجاً من حميم، وقال غيره: يعني: يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

٦٨- وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل، لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي، وقال السدي: في قراءة عبد الله رضي الله عنه ﴿ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وكان عبد الله رضي الله عنه يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة، حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ثم قرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾. قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر.

٦٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك، لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة، فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان.

٧٠-ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

٧١- يخبر تعالى عن الأمم الماضية، أن أكثرهم كانوا ضالين، يجعلون مع الله آلهة أخرى.

٧٢- وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم.

٧٣، ٧٤- ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ﴾

٧٥- لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين، أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل، مع طول المدة لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك، واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له.

٧٦- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والأذى.

٧٧- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وعن قتادة قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام.

٧٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم، وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. وقال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

٧٩- وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل، والثناء الحسن، أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم.

٨٠- ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده، بحسب مرتبته في ذلك.

٨١- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقين الموحدين الموقنين.

٨٢- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم فلم يبق منهم عين تطرف، ولا ذكر ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾

٨٣- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

٨٤– ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: شهادة أن لا إله إلا الله. وروى ابن أبي حاتم: عن عوف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعاناً.

٨٥– وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد.

٨٦، ٨٧– ولهذا قال عز وجل: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال قتادة: يعني: ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه، وقد عبدتم معه غيره؟

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾

٨٨– إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً ما هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم، على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم. يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به.

٨٩– فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف، فأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله في سارة: هي أختي» فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي، الذي يذم فاعله، حاشا وكلا ولما، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام، لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[1]. قال سفيان في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني طعين، وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم، وكذا قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة عن سعيد بن المسيب رأى نجماً فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقال آخرون ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني: مرض الموت، وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض القلب، من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره، وقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها، ورواه ابن أبي حاتم.

٩٠– ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: ذهب إليها بعد ما خرجوا، في سرعة واختفاء.

٩١، ٩٢– ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً، لتبارك لهم فيه. قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧) عن عمران بن حصين موقوفاً، ولا يصح مرفوعاً للنبي ﷺ، انظر «الضعيفة» (١٠٩٤).

أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع، وقد باركت الآلهة في طعامنا، أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾.

٩٣- وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ قال الفراء: معناه: مال عليهم ضرباً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين، وإنما ضربهم باليمين، لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً، إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك.

٩٤- وقوله تعالى ههنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قال مجاهد: وغير واحد أي: يسرعون، وهذه القصة ههنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك، حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم عليه السلام هو الذي فعل ذلك.

٩٥- فلما جاءوا ليعاتبوه، أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام، ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم.

٩٦- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية فيكون تقدير الكلام: خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر، لما رواه البخاري في «كتاب أفعال العباد» عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته».

وقرأ بعضهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقكُّمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر،

٩٧- فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار، وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها.

٩٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾

---

(١) أي: بإدغام القاف في الكاف. انظر النشر في القراءات العشر (١/ ٢٨٦).

٩٩- يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه، وأيس من إيمانهم، بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

١٠٠- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أولاداً مطيعين يكونون، عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم.

١٠١- قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بُشِّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم: إن إسماعيل عليه السلام وُلد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى: بِكْره، فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً «إسحاق» ولا يجوز هذا، لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك، وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة، وهو تأويل وتحريف باطل! فإنه لا يقال: وحيدك، إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزَّة ماليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير، لأن الله تعالى قد عدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا ألا يؤمر بذبحه صغيراً وإسماعيل وصف ههنا بالحليم بأنه مناسب لهذا المقام.

١٠٢- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران، وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، والله أعلم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وزيد بن أسلم وغيرهم ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ بمعنى: شب وارتجل، وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره، على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ .

١٠٣- قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي : فلما تشهدا وذكرا الله تعالى ، إبراهيم على الذبح ، والولد على شهادة الموت . وقيل : أسلما ، يعني : استسلما وانقادا ؛ إبراهيم امتثل أمر الله تعالى ، وإسماعيل طاعة الله وأبيه . قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن إسحاق وغيرهم . ومعنى «تله للجبين» أي : صرعه على وجهه ، ليذبحه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ، ليكون أهون عليه . قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي : أكبه على وجهه .

وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات ، وثَمَّ تله للجبين ، وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتي تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش ، وذكر هشام الحديث في المناسك بطوله .

١٠٤ ، ١٠٥- وقوله تعالى : ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي : قد حصل المقصود من رؤياك ، وإضجاعك ولدك للذبح . وذكر السدي وغيره : أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً ، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ، ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ . وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي : هكذا نصرف عمن أطاعنا ، المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، كقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ .

وقد استدل بهذه الآية والقصة ، جماعة من علماء الأصول : على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل ، خلافاً لطائفة من المعتزلة ، والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً ، إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده ، وعزمه على ذلك .

١٠٦- ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ﴾ أي : الاختبار الواضح الجلي ، حيث أمر بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى ، منقاداً لطاعته ، ولهذا قال تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ .

١٠٧- وقوله تعالى : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ روى الثوري : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كبش قد رعا في الجنة أربعين خريفاً . وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الصخرة التي بمنى بأصل ثبير ، هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه ، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن ، له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذي قربّه ابن آدم فتقبل منه ، فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق . وقال مجاهد : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه ، فأمره بمائة من الإبل ، ثم قال بعد ذلك : لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً ، فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ .

والصحيح الذي عليه الأكثرون: أنه فُدي بكبش.

وقد روى الإمام أحمد: عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولّدت عامة أهل دارنا: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه، وقالت مرة: إنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني كنتُ رأيتُ قرنَي الكبش حين دخلت، فنسيتُ أن آمرك أن تُخمّرهما، فخمّرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيءٌ يَشغل المصلي».

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت، حتى احترق البيت فاحترقا.

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فإن قريشاً توارثوا قرني الكبش الذي فَدى به إبراهيم خلفاً عن سلف، وجيلاً بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

(فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو؟)

(ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام)

عن أبي الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق، وعن أبيه العباس وعن علي بن أبي طالب مثل ذلك، وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق، وعن أبيه العباس وعن علي بن أبي طالب مثل ذلك، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله ابن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط، وهذا اختيار ابن جرير، وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية، جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

وقد ورد في ذلك حديث، لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده.

(ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به)

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم.

وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام. وقال ابن جرير: عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وعن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل. وكذا قال مجاهد ويوسف بن مهران، وقال الشعبي: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة. وقال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه: إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم، قال الله تعالى: **﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾** ويقول الله

تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ يقول: بابن، وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل. قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح: هل هو إسماعيل، أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام. قال: وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق، على قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فجعل هذه البشارة، هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وأجاب عن البشارة بيعقوب، بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي: العمل، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد، مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة، فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان، قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك، هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ماذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

١١٢- وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح، وهو إسماعيل، عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، قوله تعالى: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي صالح. عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره لما جاد لله تعالى بنفسه.

١١٣- وقال الله عز وجل: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾

١١٤، ١١٥- يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة، والنجاة بمن آمن معهما، من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء.

١١٦- ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم، وما

كانوا جمعوه طول حياتهم.

١١٧، ١١٨ - ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم، الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ وقال عز وجل ههنا: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ❁ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: في الأقوال والأفعال.

١١٩ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً.

١٢٠، ١٢١ - ثم فسره بقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ❁ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ❁ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

١٢٣ - قال قتادة ومحمد بن إسحاق: يقال: إلياس هو إدريس، وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكذلك قال الضحاك. وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له «بعل» فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه..

١٢٤ - ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله عز وجل، في عبادتكم غيره ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: بعلاً يعني رباً. قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن، وفي رواية عن قتادة قال: وهي لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها «بعلبك» غربي دمشق، وقال الضحاك هو صنم كانوا يعبدونه.

١٢٥ - وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أي: أتعبدون صنماً؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

١٢٦ - ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

١٢٧ - قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: للعذاب يوم الحساب.

١٢٨ - ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

١٢٩ - وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: ثناء جميلاً.

١٣٠ - ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ﴾ كما يقال في إسماعيل: إسماعين، وهي لغة بني أسد. ويقال: ميكال وميكائيل وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطور سيناء وطور سينين وهو موضع واحد وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ﴾ وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، وقرأ آخرون ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ يعني: آل محمد ﷺ.

١٣١، ١٣٢ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ❁ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسيره،

والله تعالى أعلم.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾

١٣٣ - ١٣٦ - يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم، هو وأهله إلا امرأته، فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة، قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً.

١٣٧ ، ١٣٨ - ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾

١٣٩ - قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء، وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه. وفي رواية: إلى أبيه.

١٤٠ - وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الموقر، أي المملوء بالأمتعة.

١٤١ - ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه، وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها، ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس. واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة، وقيل: سبعة قاله جعفر الصادق رضي الله عنه، وقيل: أربعين يوماً، قاله أبومالك، وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحىً ولفظه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك.

١٤٣ ، ١٤٤ - وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب بن منبه وقتادة وغير واحد، واختاره

ابن جرير، وقد ورد في الحديث الذي سنورده إن شاء الله تعالى ما يدل على ذلك إن صح الخبر، وفي حديث ابن عباس «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن وقتادة ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يعني: المصلين، وصرح بعضهم بأنه: كان من المصلين قبل ذلك، وقيل: المراد ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله عز وجل: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قاله سعيد بن جبير وغيره.

١٤٥- ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء، قيل: على جانب دجلة، وقيل: بأرض اليمن، فالله أعلم ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن، قاله ابن مسعودﷺ: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوس، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، وابن زيد أيضاً.

١٤٦- ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو: القرع. وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً وقشره أيضاً، وقد ثبت: أن رسول اللهﷺ كان يحب الدباء ويتتبعه من نواحي الصحفة.

١٤٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (رُوي) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام، بعد ما نبذه الحوت، رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أُمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به، وحكى البغوي: أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً، والله أعلم.

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك معناه: إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وهكذا سلك ابن جرير ههنا، ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ المراد: ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

١٤٨- وقوله تعالى: ﴿فَآمَنُوا﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم، الذين أرسل إليهم يونسعليه السلام جميعهم ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله جلت عظمته ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلاَ إِنَّهُم

مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

١٤٩- يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين، في جعلهم لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور، أي: يودون لأنفسهم الجيد ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول عز وجل: فكيف نسبوا إلى الله تعالى، القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

١٥٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم، كقوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ أي: يسئلون عن ذلك يوم القيامة.

١٥١، ١٥٢- وقوله جلت عظمته: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال، في غاية الكفر والكذب، فأولاً: جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس، وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم.

١٥٣- ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أي: أي شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين، كقوله عز وجل ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾.

١٥٤- ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: مالكم عقول تتدبرون بها ما تقولون.

١٥٥، ١٥٦- ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجة على ما تقولونه؟.

١٥٧- ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: هاتوا برهاناً على ذلك، يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى، أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل بالكلية.

١٥٨- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر رضي الله عنه فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك، لمحضرون في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

١٥٩- وقوله جلت عظمته: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه، عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون، علواً كبيراً.

١٦٠- وقوله تعالى: ﴿إلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ* إلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وفي هذا الذي قاله نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾

١٦١ - ١٦٣- يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ* إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي: إنما ينقاد لمقالتكم، وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة، من هو أضل منكم ممن ذُرئَ للنار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ فهذا الضرب من الناس، هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ* يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

١٦٤- ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم، والكذب عليهم، أنهم بنات الله ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: له موضع مخصوص في السموات، ومقامات العبادات، لا يتجاوزه ولا يتعداه.

وروى ابن عساكر بسنده: إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه: وكان ممن بايع يوم الفتح أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أطَّت السما وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ* وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

وروى الضحاك في تفسيره عن عائشة رضي الله عنها (مرفوعاً نحوه).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن في السموات لسماء، ما فيها موضع شبر، إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وكذا قال سعيد بن جبير.

١٦٥- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أي: نقف صفوفاً في الطاعة، كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً﴾. وفي صحيح مسلم: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً» الحديث.

١٦٦- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده، ونقدسه وننزه عن النقائص، فنحن عبيد له فقراء إليه، خاضعون لديه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الملائكة تسبح الله عز وجل. وقال قتادة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ يعني: المصلون يثبتون بمكانهم من العبادة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْ وَلاَيَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ❁ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

١٦٧ - ١٦٩ - وقوله جل وعلا ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ❁ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ ❁ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد، لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال جل جلاله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ❁ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

١٧٠ - ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ أكيد، وتهديد شديد، على كفرهم بربهم عز وجل، وتكذيبهم رسوله ﷺ.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾

١٧١، ١٧٢ - يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدم في الكتاب الأول، أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ❁ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، كيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين.

١٧٣ - ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: تكون لهم العاقبة.

١٧٤ - وقوله جل وعلا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، ولهذا قال بعضهم نساً ذلك إلى يوم بدر، وما بعدها أيضاً في معناها.

١٧٥ - وقوله جلت عظمته: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي: أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال، بمخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

١٧٦ - ثم قال عز وجل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم، يستعجلون العذاب والعقوبة.

١٧٧ - قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فإذا نزل العذاب

بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم، وقال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني بدارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فبئس ما يتصبحون، أي: بئس الصباح صباحهم. ولهذا ثبت في الصحيحين: من حديث عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم، ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: لما صبح رسول الله ﷺ خيبر وقد أخذوا مساحيهم، وغدوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبي ﷺ نكصوا مدبرين، فقال نبي الله ﷺ: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين» لم يخرجوه من هذا الوجه وهو صحيح على شرط الشيخين.

١٧٨، ١٧٩- وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ۞ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾

١٨٠- ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدسها ويبرئها، عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي: ذي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين.

١٨١- ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيته.

١٨٢- ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[1] وقد أفردت لها جزءاً على حدة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

آخر تفسير سورة الصافات

****

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٦٧٤) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وله طرق أخرى كثيرة.

ترتيبها ٣٨ — سورة ص - مكية — آياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

١- أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم، في المعاش والمعاد. قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وإسماعيل بن أبي خالد وابن عيينة وأبو حصين وأبو صالح والسدي ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة، ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم. وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ واختاره ابن جرير.

٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكر لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون، لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي: استكبار عنه وحمية ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة.

٣- ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم، بسبب مخالفتهم للرسل، وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذبة ﴿فَنَادَوا﴾ أي: حين جاءهم العذاب، استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى، وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ روى أبو داود الطيالسي: عن التميمي قال: سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادَوْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال: ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس بحين مغاث. وقال عكرمة عن ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد: ❖ تذكر ليلى لات حين تذكر ❖ وقال محمد بن كعب: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم، وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء، وقال مجاهد: ليس بحين فرار ولا إجابة. وقد روي نحو هذا عن كرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك والضحاك وزيد بن أسلم والحسن وقتادة، وعن مالك عن زيد بن أسلم ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ولا نداء في غير حين النداء.

وهذه الكلمة وهي «لات» هي «لا» التي للنفي، زيدت معها التاء كما تزاد في ثم، فيقولون: ثمت، ورب فيقولون: ربت، وهي مفصولة والوقف عليها، ومنهم من حكى عن المصحف الإمام، فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة «بحين» و«لا تحين مناص»، والمشهور الأول، ثم قرأ الجمهور بنصب حين، تقديره: وليس الحين حين مناص، ومنهم من جوز النصب بها.

وأهل اللغة يقولون: النوص التأخر، والبوص التقدم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (١١) ﴾

٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً، كما قال عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وقال جل وعلا ههنا: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم، وقال الكافرون ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

٥- ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: أزعم أن المعبود واحد، لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

٦- ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم، قائلين: امشوا، أي: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد، لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم اتباع، ولسنا نجيبه إليه.

(ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات)

روى أبو جعفر بن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهطٌ من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب، أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول

الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، مال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة، نعم وأبيك عشراً، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾. وهكذا رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير.

٧- وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد، في الملة الآخرة. قال مجاهد وقتادة وأبو زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً، أخبرتنا به النصارى. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ قال مجاهد وقتادة: كذب. وقال ابن عباس: تخرص.

٨- وقولهم ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه، من بينهم كلهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: إنما يقولون هذا، لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك، عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غِب ما قالوا وما كذبوا به، يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعا.

٩- ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء، الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحدٌ من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرف في الملك، ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير.

ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أي: العزيز الذي لا يرام جنابه، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ وذلك بعد الحكاية عن الكفار، أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري ﷺ، وكما أخبر عز وجل عن قوم صالح عليه السلام، حين قالوا: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: يعني:

طرق السماء. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

١١- ثم قال عز وجل: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: هؤلاء الجند المكذبون، الذين هم في عزة وشقاق، سيهزمون ويغلبون، ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين. وهذه الآية كقوله جلت عظمته ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وكان ذلك يوم بدر ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

١٢- يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال والنقمات، في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة.

١٣- وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: كانوا أكثر منكم، وأشد قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك.

١٤- ولهذا قال عز وجل ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ فجعل علة إهلاكهم، هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

١٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثنوية، أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة، فقد جاء أشراطها، أي: فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع، التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل.

١٦- وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين، في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن «القط» هو الكتاب. وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب، زاد قتادة كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة، ليلقوا ذاك في الدنيا، وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾

١٧- يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام، أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم

والعمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وابن زيد: الأيدي القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة، وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: أحبُّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وإنه كان أوَّاباً. وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشئونه.

١٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: أنه تعالى سخَّر الجبال تسبح معه، عند إشراق الشمس، وآخر النهار، كما قال عز وجل: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ وكذلك كانت الطير، تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له.

روى ابن جرير: عن عبيد الله بن الحارث بن نوفل: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصلي الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها، فقلت: أخبري هذا ما أخبرتني، فقالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صبَّ في قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بيني وبينه فاغتسل، ثم رشَّ ناحية البيت فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهنَّ وركوعهنَّ وسجودهنَّ وجلوسهنَّ سواء، قريب بعضهنَّ من بعض، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين، ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وكنت أقول: أين صلاة الإشراق؟ وكان بعد يقول: صلاة الإشراق[1].

١٩- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: محبوسة في الهواء ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعاً له، قال سعيد بن جبير وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً، من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقوله جل وعلا: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعني: الفهم والعقل، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدي ﴿الْحِكْمَةَ﴾ النبوة، وقوله جل جلاله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان. قال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل، أو قال: المؤمنون والصالحون، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة. وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي، وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك. وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ

---

(١) يشهد له ما رواه البخاري في المغازي (٨/ ١٩) بنحوه.

خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾

٢١- قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من إسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد - وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسوَّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

٢٣- وقوله عز وجل: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني، يقال: عزَّ يعزُّ، إذا قهر وغلب.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: اختبرناه. وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك.

٢٥- ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار، سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة في سجدة «ص» هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي رضي الله عنه: أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر. والدليل على ذلك: ما رواه الإمام أحمد: عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال في السجود في «ص» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها، ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي في تفسيره.

وروى النسائي أيضاً: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ سجد في «ص» وقال: «سجدها داود عليه السلام توبة، ونسجدها شكراً» تفرد بروايته النسائي.

وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي (بسنده): عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع بها عني وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل من كلام الشجرة، رواه الترمذي وابن ماجة.

وروى البخاري عند تفسيرها أيضاً: عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن

عباس رضي الله عنهما: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ.

وروى أبو داود: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزَّن[1] الناس للسجود، فقال ﷺ: «إنما هي توبةُ نبيٍ، ولكني رأيتكم تَشَزَّنتم» فنزل وسجد. تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: وإن له يوم القيامة، لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة، لنبوته وعدله التام في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا».

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾

٢٦- هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعَّد تبارك وتعالى من ضلَّ عن سبيله، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت، فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان الله، قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة، ثم توعَّده في كتابه، فقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال عكرمة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ هذا من المقدم المؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب، بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾

٢٧- يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم يوم الجمع، فيثيب المطيع، ويعذب الكافر، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي:

---

(١) التشزن: التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له.

ويل لهم، يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

٢٨- ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته، لا يساوي بين المؤمنين والكافرين، فقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة، على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي، يزداد ماله وولده ونعيمه، ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم، العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة.

٢٩- ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة، والمآخذ العقلية الصريحة، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب جمع لب، وهو العقل، قال الحسن البصري: والله ما تدبُّره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

٣٠- يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي: نبياً، كما قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثناءٌ على سليمان، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

٣١- وقوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ أي: إذ عُرض على سليمان عليه الصلاة والسلام، في حال مملكته وسلطانه، الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث، وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف. وروى أبو داود: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سَهْوتها ستر، فهبَّت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعب، فقال ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟» قالت رضي الله عنها: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال ﷺ: «ما هذا الذي أرى وسطهنَّ؟» قالت رضي الله عنها: فرس، قال رسول الله ﷺ: «ما هذا الذي عليه؟» قالت رضي الله عنها: جناحان، قال رسول الله ﷺ: «فرسٌ له جناحان؟» قالت رضي الله عنها: أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة، قالت رضي الله عنها: فضحك صلى الله عليه وآله وسلم حتى رأيت نواجذه.

٣٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين: أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب، وذلك

ثابت في الصحيحين من غير وجه، من ذلك: عن جابر رضي الله عنه قال: جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلي العصر، حتى كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها» فقال: فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، وقد ادعى طائفة من العلماء: أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة، حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما، والأول أقرب، لأنه قال بعده:

٣٣- ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ قال الحسن البصري: قال: لا والله، لا تشغليني عن عبادة ربي، آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة وقال السدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها، حباً لها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها.

وهذا الذي رجح به ابن جرير، فيه نظر! لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى، عوَّضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر، ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل.

روى الإمام أحمد: عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال لنا البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل، وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء لله تعالى، إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه».

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾

٣٤- يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم: يعني: شيطاناً ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته. قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخراً، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة، وأرى هذه كلها من الإسرائيليات.

٣٥- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ قال بعضهم: معناه: لا ينبغي لأحد من بعدي، أي: لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدي، كما كان من قضية الجسد، الذي ألقى

على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح: أنه سأل من الله تعالى مُلكاً، لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة، من طرق عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «إن عِفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردتُ أن أربطه إلى سارية من سَواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ قال روح: فرده خاسئاً. وكذا رواه مسلم والنسائي.

وروى مسلم في صحيحه: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذُ بالله منك، ثم قال: ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة، قلنا: يا رسول الله، سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك! ورأيناك بسطت يدك، قال ﷺ: «إنَّ عدو الله إبليس، جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يتأخر ثلاث مرات، ثم أردتُ أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة».

وروى الإمام أحمد: عن أبي عبيد قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان، لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يَحُول بينه وبين القبلة أحدٌ، فليفعل».

وقد روى أبو داود منه: «مَن استطاعَ منكم أن لا يَحولَ بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: سمعت ﷺ يقول: «إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة، سأله حُكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياها» وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجة من طرق.

٣٦- وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عز وجل، عوّضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوّها شهر، ورواحها شهر. وقوله جل وعلا ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث أراد من البلاد.

٣٧- وقوله جل جلاله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي: منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة، من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة، التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار، يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة، التي لا توجد إلا فيها.

٣٨- ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: موثقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تمرد وعصى، وامتنع من العمل وأبى. أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

٣٩- وقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام، والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بلا حساب ولا جناح: اختار المنزلة الأولى، بعد ما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له: تواضع، فاختار المنزلة الأولى، لأنها أرفع قدراً عند الله عز وجل، وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية - وهي النبوة مع الملك - عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة.

٤٠- ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا، نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم، عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

٤١- يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر، في جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه، وما هو فيه، غير أن زوجته، حفظت ودَّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه، نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل، وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضي الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء، إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر، تضرع لرب العالمين، وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قيل: بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله تعالى عيناً، وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً.

٤٢- ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث

به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كان من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين! قال له صاحه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة، لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به، فلما راحا إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله تعالى، فأرجع إلى بيتي فأكفِّر عنهما، كراهية أن يُذكر الله تعالى إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك، إذْ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، قال: وكان له أندران: أندر للقمح[1]، وأندر للشعير، فبعث الله تعالى سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله.

وروى الإمام أحمد: عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرَّ عليه جَرادٌ من ذهب، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه عز وجل: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك» انفرد بإخراجه البخاري.

٤٣- ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم، وزادهم مثلهم معهم. وقوله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: به على صبره وثباته، وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

٤٤- وقوله جلت عظمته: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إنْ شفاه الله تعالى ليضربنَّها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة، والرحمة والشفقة والإحسان، أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً - وهو الشمراخ - فيه مائة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة، وقد برَّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى، وأناب إليه.

ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاع منيب، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ واستدل كثير من

---

(١) الأندر: هو البيدر، وهو الموضع الذي يُداس فيه الطعام (القمح) بلغة الشام (نهاية).

الفقهاء بهذه الآية الكريمة، على مسائل في الأيمان وغيرها، وقد أخذوها بمقتضاها، والله أعلم بالصواب.

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾

٤٥- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين، وأنبيائه العابدين ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني بذلك: العمل الصالح، والعلم النافع، والقوة في العبادة، والبصيرة النافذة. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ يقول: أولي القوة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ يعني: القوة في طاعة الله تعالى، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني: البصر في الحق، وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة، وبصراً في الدين.

٤٦- وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أي: جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم هم غيرها. وكذا قال السدي: ذكرهم للآخرة، وعملهم لها، وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، وكذا قال عطاء الخراساني.

وقال سعيد بن جبير: يعني بالدار «الجنة» يقول: أخلصناها لهم، بذكرهم لها، وقال في رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ عقبى الدار، وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها، وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة.

٤٧- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة، في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بما أغنى عن إعادته ههنا.

٤٩- وقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر، وقال السدي: يعني القرآن العظيم.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

٤٩- يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب، وهو المرجع والمنقلب.

٥٠- ثم فسره بقوله تعالى ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب، و«الألف واللام» ههنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: مفتحة لهم أبوابها، أي: إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها. وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية، أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

٥١- وقوله عز وجل: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا، وأحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: من أي أنواعه شاءوا، أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

٥٢- ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: متساويات في السن والعمر، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدي.

٥٣- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة، هي التي وعدها لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم، وسلامتهم من النار.

٥٤- ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة، أنه لا فراغ لها ولا زوال، ولا انقضاء ولا انتهاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ كقوله عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، وكقوله عز وجل: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ والآيات في هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾

٥٥- لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء، ثنى بذكر حال الأشقياء، ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال عز وجل: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل، المخالفون لرسل الله صلى الله عليهم وسلم ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع.

٥٦- ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

٥٧- ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق: فهو ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع، من شدة برده المؤلم.

٥٨- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها. وقال الحسن البصري: ألوان من العذاب، وقال غيره: كالزمهرير والسموم وشراب الحميم، وأكل الزقوم والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

٥٩- وقوله عز وجل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار، بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يعني: بدل السلام،

يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أي: داخل ﴿مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم.

٦٠- ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ﴾ أي: فيقول لهم الداخلون ﴿بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير.

٦١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ كما قال عز وجل: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لكل منكم عذاب بحسبه.

٦٢، ٦٣- ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ◆ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً، وفلاناً وفلاناً! وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار، افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا ﴿مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ◆ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله عز وجل: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ - إلى قوله - ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

٦٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

٦٥- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله، المشركين به، المكذبين لرسوله ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ لست كما تزعمون ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه.

٦٦- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك، ومتصرف فيه ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: غفار مع عظمته وعزته.

٦٧- ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: خبر عظيم، وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم.

٦٨- ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: القرآن.

٦٩- وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحي، من أين كنت أدري باختلاف الملإ الأعلى؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن معاذ ﷺ قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس، فخرج ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة، فصلى وتجوز في صلاته، فلما سلم قال ﷺ: «كما أنتم» ثم أقبل إلينا، فقال: «إني قمت من الليل فصليت ما قدّر لي، فنعست في صلاتي، حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب - أعادها ثلاثاً - فرأيته وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء، وعرفت، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات؟ قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك. وقال رسول الله ﷺ- إنها حق فادرسوها وتعلموها».

فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السنن من طرق، وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وليس هذا الاختصام، هو الاختصام المذكور في القرآن، فإن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذي في القرآن، فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾

٧١- ٨١- هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة، وفي أول سورة الأعراف، وفي سورة الحجر وسبحان والكهف، وهاهنا، وهي: أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم ﷺ بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر: متى فرغ من خلقه وتسويته، فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً، وامتثالاً لأمر الله عز وجل، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً، كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته أحوج إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار وآدم خق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله تعالى، وكفر بذلك، فأبعده الله عز وجل، وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته، ومحل أنسه،

وحضرة قدسه، وسماه «إبليس» إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه.

٨٢، ٨٣- فلما أمن الهلاك إلى القيامة تمرد وطغى، وقال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

٨٤، ٨٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ ذلك جماعة، منهم مجاهد برفع الحق الأول، وفسره مجاهد: بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق، وقرأ آخرون بنصبهما، قال السدي: هو قسمٌ أقسم الله به. (قلت): وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾

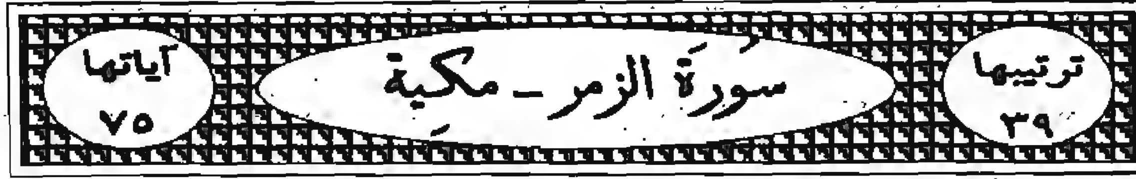
٨٦- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، ما أسألكم على هذا البلاغ، وهذا النصح، أجراً تعطونيه، من عرض الحياة الدنيا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عزوجل والدار الآخرة، روى سفيان الثوري: عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، من علمَ شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن، ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

٨٧- وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين، فإنَّ من مات فقد دخل في حكم القيامة، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ قال الحسن: يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة ص

****



روى النسائي: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④﴾

١ - يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقال جل وعلا ههنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجناب ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

٢ - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد.

٣ - ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل، إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له.

وقال قتادة في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر عز وجل عن عباد الأصنام من المشركين، أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم، أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له، كافرين به. قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا

حجوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ! تملكه وما ملك .

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذن الله فيه ، ولا رضي به ، بل أبغضه ونهى عنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وأخبر أن الملائكة التي في السموات ، من الملائكة المقربين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنهم ، فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلهِ الأَمْثَالَ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي : يوم القيامة ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي : سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزى كل عامل بعمله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي : لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه .

٤ - ثم بين تعالى أنه لا ولد له ، كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى ، فقال تبارك وتعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون ، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال عز وجل : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل ، لمقصد المتكلم .

وقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي : تعالى وتنزه وتقدس ، عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي كل شيء عبدٌ لديه ، فقير إليه وهو الغني عما سواه ، الذي قد قهر الأشياء ، فدانت له وذلَّت وخضعت ، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) ﴾

٥ - يخبر تعالى أنه الخالق لما في السماوا والأرض ، وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه ، يقلب ليله ونهاره ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي : سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ هذا معنى ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم . وقوله عز وجل : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

﴿وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه، هو غفار لمن عصاه، ثم تاب وأناب إليه.

٦- وقوله جلت عظمته: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم، من نفس واحدة، وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي: حوّاء عليها السلام، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ثمانية أزواج: من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين. وقوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: قدركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾ يعني: في ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد، وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وأبو مالك والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد.

وقوله جل جلاله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلقكم وخلق آبائكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم؟!

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

٧- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وفي صحيح مسلم: «يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكُم وجنَّكم، كانوا على أفجرِ قلب رجلٍ منكم، ما نَقصَ ذلك من ملكي شيئاً».

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تحمل نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

٨- وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ أي: عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله

وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلاً، وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩) ﴾

٩- يقول عز وجل: أمن هذه صفته، كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو: الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. روى الثوري: عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: القانت: المطيع لله عز وجل ولرسوله ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والسدي وابن زيد ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ جوف الليل، وقال الحسن وقتادة: آناء الليل أوله وأوسطه وآخره.

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فإذا كان عند الاحتضار، فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما روى الإمام عبد بن حميد في مسنده: عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه». ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ بمائة آية في ليلة، كُتب له قنوت ليلة» وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل يستوي هذا، والذي قبله، ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا، من له لب وهو العقل، والله أعلم.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ

لأنْ أكُونَ أوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) ﴾

١٠ - يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، بالاستمرار على طاعته وتقواه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة، في دنياهم وأخراهم، وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا واعتزلوا الأوثان، وقال عطاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: إذا دعيتم إلى معصيته فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم، ولا يكال لهم، إنما يغرف لهم غرفاً، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: في الجنة.

١١ - وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله، وحده لا شريك له.

١٢ - ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال السدي: يعني: من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾

١٣ - يقول تعالى: قل يا محمد، وأنت رسول الله ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره، بطريق الأولى والأحرى.

١٤، ١٥ - ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبرٍّ منهم ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع اسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح.

١٦ - ثم وصف حالهم في النار، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كما قال عز وجل: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقوله جل جلاله: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة، ليخوّف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي: اخشوا بأسي وسطوتي، وعذابي ونقمتي.

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) ﴾

١٧ – قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم . والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ، ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن ، فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ثم قال عز وجل : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ .

١٨ – ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ، حين آتاه التوراة ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي : المتصفون بهذه الصفة ، هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي : ذوو العقول الصحيحة ، والفطر المستقيمة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾

١٩ – يقول تعالى أفمن كتب الله أنه شقي ، تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي : لا يهديه أحد من بعد الله ، لأنه من يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له .

٢٠ – ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء ، أن لهم غرفاً في الجنة ، وهي القصور ، أي : الشاهقة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . روى عبد الله بن الإمام أحمد : عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة لغرفاً ، يُرَى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها» فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ : «لمن أطابَ الكلام ، وأطعمَ الطعام ، وصلَّى لله بالليل والناسُ نيام» ورواه الترمذي ، ورواه الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

وروى الإمام أحمد : عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة ، كما تراءون الكوكب في أفق السماء» قال : فحدَّثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال : سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول : «كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقي أو الغربي» أخرجاه في الصحيحين .

وروى الإمام أحمد : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إنَّ أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغُرَف ، كما تراءون الكوكب الدُّري الغَارب في الأفق الطالع ، في تفاضل أهل الدرجات» فقالوا : يا رسول الله ، أولئك النبيون؟ فقال ﷺ : «بلى ، والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله ، وصدَّقوا الرسل» ورواه الترمذي .

وروى الإمام أحمد : عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : قلنا يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك رقَّت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا ، وشممنا النساء والأولاد ، قال ﷺ : «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله عز وجل بقوم يذنبون كي يغفر لهم» . وروى الترمذي وابن ماجة بعضه .

وقوله تعالى : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي : تسلك الأنهار بين خلال ذلك ، كما يشاءوا ، وأين أرادوا ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي : هذا الذي ذكرناه ، وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ

يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

٢١- يخبر تعالى: أن أصل الماء في الأرض من السماء، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾. قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج. يعني: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، زرعاً مختلفاً ألوانه، أي: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل، فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ أي: ثم يعود يابساً يتحطم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون، إلى أن الدنيا هكذا تكون، خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء. والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعد إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا، بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾.

٢٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: هل يستوي هذا، ومن هو قاسي القلب، بعيد من الحق، كقوله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

٢٣- هذا مدحٌ من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم، المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني، وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك ﴿مَّثَانِيَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى. وقال عكرمة والحسن: ثنى الله فيه القضاء. زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿مَّثَانِيَ﴾: مُردَّد، رُدِّدَ موسى في القرآن، وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَّثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرد بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة: معنى قوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾: إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ إلى أن قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين.

وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد، يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ذاك معنى آخر.

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه (أحدها): أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات، من أصوات القينات (الثاني): أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها، عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

(الثالث): أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى، من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية، ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. روى عبد الرزاق عن معمر قال: تلا قتادة رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السدي ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ أي: إلى وعد الله، وقوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

٢٤- يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويُقرّع فيقال له ولأمثاله من الظالمين ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كمن يأتي آمنا يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر:

فما أدري إذا يَممتُ أرضاً أريـدُ الخـيـر أيهما يليني

يعني: الخير أو الشر.

٢٥- وقوله جلت عظمته: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

٢٦- وقوله جل وعلا: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال، وتشفي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياءﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد، أعظم مما أصابهم في الدنيا، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾

٢٧- يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

٢٨- وقوله جل وعلا: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد.

٢٩- ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿وَرَجُلاً سَلَماً﴾ أي: سالماً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لا يملكه أحد غيره ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص، الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد: هذه الآية ضُربت مثلاً للمشرك

والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا يشركون بالله.

٣٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ هذه الآية، من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ومعنى هذه الآية: أنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك، بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

٣١- روى ابن أبي حاتم رحمه الله: عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال ﷺ: «نعم» قال رضي الله عنه: إن الأمر إذن لشديد. وكذا رواه الإمام أحمد: وعنده زيادة: ولما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله، أي نعيم نُسئل عنه، وإنما نعيمنا الأسودان: التمر والماء؟ قال ﷺ: «أما إن ذلك سيكون» وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول خصمين يوم القيامة جاران» تفرد به أحمد. وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا أباذر؟» قلت: لا، قال ﷺ: «لكن الله يدري، وسيحكم بينهما».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: قلنا من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه. ورواه النسائي.

وقال أبو العالية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال يعني أهل القبلة، وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر. وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا

﴿يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾

٣٢- يقول عز وجل مخاطباً للمشركين، الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم، على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله، وكذب رسول الله ﷺ، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

٣٣- ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الذي جاء بالصدق، هو: رسول الله ﷺ، وقال السدي: هو جبريل عليه السلام. ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: رسول الله ﷺ. وقرأ الربيع بن أنس ﴿وَالَّذِي جَاءُوا بِالصِّدْقِ﴾ يعني: الأنبياء ﴿وَصَدَّقُوا بِهِ﴾ يعني: الأتباع. وعن مجاهد ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية - على هذا التفسير - فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو: رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: المسلمون. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الشرك.

٣٤- ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٣٥- ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾

٣٦- يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقرأ بعضهم ﴿عِبَادَهُ﴾ يعني: أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه. وقال ابن أبي حاتم ههنا: عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح مَنْ هُدِيَ إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به» ورواه الترمذي والنسائي. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾

يعني : المشركين يخوفون الرسولﷺ، ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم ، التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً ، ولهذا قال عز وجل : ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ .

٣٧- ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أي : منيع الجناب ، لا يضام من استند إلى جنابه ، ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك ، وعاند رسولهﷺ .

٣٨- وقوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعني المشركين ، كانوا يعترفون أن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره ، مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أي : لا تستطيع شيئاً من الأمر .

وذكر ابن أبي حاتم ههنا : حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تُجاهك ، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يكتبه الله عليك ، لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ، ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفَرَج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً» .

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي : الله كافيَّ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هودعليه السلام حين قال قومه ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

٣٩- وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي : على طريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي : على طريقتي ومنهجي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي : ستعلمون غب ذلك ووباله .

٤٠- ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي : في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي : دائم مستمر ، لا محيد عنه ، وذلك يوم القيامة ، أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

٤١- يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداًﷺ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني : القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي : لجميع الخلق من الإنس والجن ، لتنذرهم به ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ﴾ أي : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي : بموكل أن يهتدوا ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ .

٤٢- ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة ، بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفَّى الأنفس الوفاة

الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملإ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره.

وفي صحيحي البخاري ومسلم: من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خَلَفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربِّي وَضَعتُ جَنبي وَبكَ أرفعُه، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارحمها، وَإِن أرْسَلْتَها فاحْفَظْهَا بما تحفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِين».

وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، أرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)﴾

٤٣- يقول تعالى ذاماً للمشركين، في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تتعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير.

٤٤- ثم قال: قل: زي يا محمد، لهؤلاء الزاعمين إن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله، إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلاً بعمله.

٤٥- ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل لا إله إلا الله وحده ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: اشمأزت: انقبضت. وقال السدي: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك عن زيد بن أسلم: استكبرت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن المعاتبة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨)﴾

٤٦- يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد **﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق **﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** أي: السر والعلانية **﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** أي: في دنياهم، سنفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

روى مسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تَحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن أبي راشد الحبراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يديَّ صحيفة، فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرت فيها، فإذا فيها: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل اللهم فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت ربَّ كل شيء ومليكه، أعوذُ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطان وشركه، واقترف على نفسي سوءًا، أو أجره إلى مسلم» ورواه الترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن أبي بكر الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول: إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: «اللهمَّ فاطر السموات والأرض . . . إلخ».

٤٧- وقوله عز وجل: **﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** وهم: المشركون **﴿مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾** أي: ولو أن جميع ما في الأرض، وضعفه معه **﴿لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾** أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء، ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى: **﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾** أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم، ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم.

٤٨- **﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾** أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا، من المحارم والمآثم **﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال، ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾

٤٩- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان، أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوّله نعمة منه، بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص، لما خوّلني هذا، قال قتادة ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خبر عندي. قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة، لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي، مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة، أي: اختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدَّعون ما يدعون.

٥٠- ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون.

٥١- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلاَءِ﴾ أي: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: كما أصاب أولئك ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون، أنه قال له قومه ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

٥٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسعه على قوم، ويضيقه على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعبراً وحججاً.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) ﴾

٥٣- هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم، إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل

زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك، كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لحَسَنٌ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: **﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾** ونزل **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ﴾** وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: **﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾** الآية.

وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدَّعم على عصاً له، فقال: يا رسول الله، إن لي غدرات وفجرات، فهل يُغفر لي؟ قال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: «قد غُفر لك غدراتك وفجراتك» تفرد به أحمد.

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبدٌ من رحمة الله، وإنْ عظمت ذنوبه وكثرت، فإنَّ بابَ الرحمة والتوبة واسعٌ، قال الله تعالى: **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾** وقال عز وجل: **﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾** وقال جل وعلا في حق المنافقين: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾** وقال جل جلاله: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ثم قال جلت عظمته: **﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** وقال تبارك وتعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾** قال الحسن البصري رحمة الله عليه: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

والآيات في هذا كثيرة جداً.

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم ندم، وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها، فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾** إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: **﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** ثم دعا إلى التوبة مَن هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: أنا ربكم الأعلى، وقال: **﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾** قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد

هذا، فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبراني: عن شُتير بن شكل قال: سمعت عن ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وإنّ أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرحاً في سورة الغرف ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ﴾ وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ فقال له مسروق: صدقت.

(ذكر أحاديث فيها نفي القنوط)

روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله تعالى، لغفر لكم، والذي نفس محمد ﷺ بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يُخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم» تفرد به أحمد.

وروى الإمام أحمد: عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تُذنبون، لخلق الله عز وجل قوماً يذنبون فيغفر لهم» هكذا رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي.

روى محمد بن إسحاق: عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما في حديثه قال: وكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ قال عمر رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص رضي الله عنه قال: فقال هشام: لما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها، قال: فألقى الله عز وجل في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

٥٤- ثم استحثّ تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾ إلخ: أي: ارجعوا إلى الله، واستسلموا ﴿لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة، والعمل الصالح، قبل حلول النقمة.

٥٥- ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

٥٦- ثم قال عز وجل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ، غير موقن مصدق.

٥٧، ٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً

﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تود لو أُعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله عز وجل: أن لو ردوا لما قدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «كُلُّ أَهلِ النَّارِ يَرَى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، قال: فيكون له الشكر» ورواه النسائي.

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله، واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه، آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذَّبت بها، واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾

٦٠- يخبر تعالى عن يوم القيامة، أنه تسودُّ فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جهنم كافية لهم سجناً وموئلاً، لهم فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم، وإبائهم عن الانقياد للحق.

روى ابن أبي حاتم: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدهﷺ أن رسول اللهﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذَّر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً من النار، في واد يقال له «بولس» من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار، ومن طينة الخَبَال».

٦١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَهُمْ لَا يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، نائلون كل خير.

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ

وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾

٦٢- يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها، وربها ومليكها والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته.

٦٣- وقوله عز وجل: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال مجاهد: المقاليد، هي: المفاتيح بالفارسية، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة، وقال السدي ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين: أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي: حججه وبراهينه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٦٤-وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۞ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٦٦- وقوله عز وجل: ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: أخلص العبادة لله وحده لا شريك له، أنت ومن اتبعك وصدَّقك.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾

٦٧- يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته، قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره، ما كذبوه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف. قال البخاري: قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية. ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي.

ثم روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقْبِضُ اللهُ تعالى الأرضَ، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك، أين الملوك؟» تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد: من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يُقْبل بها ويدبر: «يُمجِّد الربُّ نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم» فرجف برسول الله ﷺ المنبر، حتى قلنا ليخرَّنَّ به. وقد رواه مسلم والنسائي وابن ماجة.

ولفظ مسلم في هذا الحديث: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي النبي ﷺ قال: يأخذ الله تبارك وتعالى سمواته وأرضه بيده ويقول: أنا الملك - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾

٦٨- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة، والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور[1] ثم يقبض أرواح الباقين، حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم، الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً، بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ثلاث مرات، ثم يجيب بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمتُ بالفناء على كل شيء ثم يُحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره، أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث. قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وقال جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

روى الإمام أحمد: أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا، قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت سترون بعد قليل أمراً عظيماً. ثم قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة - فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة

---

(١) والحديث فيه ضعف، وقد مضى التنبيه عليه في سورة «طه».

ابن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله تعالى، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قِبل الشام، فلا يبقى أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل، لدخلت عليه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شِرارُ الناس، في خِفَّة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون، فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارَّةٌ أرزاقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يَسمعه أحدٌ إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وأول من يسمعه رجلٌ يَلُوطُ حوضه فيَصعق، ثم لا يبقى أحدٌ إلا صعق، ثم يُرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطراً كأنه الطل - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس، ثم يُنفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون، ثم يقال أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾ قال: ثم يقال: أخرجوا بَعث النار، قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شيباً، يومئذ يُكشف عن ساق» انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

(حديث أبي هريرة رضي الله عنه): روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون» قالوا يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال رضي الله عنه: أبيتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ، ويَبْلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق».

٦٩- وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾** أي: أضاءت يوم القيامة، إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء **﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾** قال قتادة: كتاب الأعمال **﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾** قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يشهدون على الأمم، بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم **﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾** أي: الشهداء من الملائكة: الحفظة على أعمال العباد من خير وشر **﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾** أي: بالعدل **﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** قال الله تعالى: **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** وقال جل وعلا: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾**.

٧٠- ولهذا قال عز وجل: **﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾** أي: من خير أو شر **﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾**.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾

٧١- يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار، كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل: **﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾** أي: يدفعون إليها دفعاً، وهذا وهم عطاش ظمأ، كما قال جل وعلا في الآية الأخرى: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً﴾** وهم في تلك الحال، صم وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه **﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾** وقوله تبارك وتعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها، فُتحت لهم أبوابها سريعاً، لتعجل لهم العقوبة.

ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم، تتمكنون من مخاطبتهم الأخذ عنهم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين، على صحة ما دعوكم إليه ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم ﴿بَلَى﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها، حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال عز وجل مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: بُعداً لهم وخساراً.

٧٢- وقوله تبارك وتعالى ههنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم، يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها، لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المصير، وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيَّركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾

٧٣- وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين، حين يُساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة، المقربون ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حُبِسُوا على قَنطرةٍ بين الجنة والنار، فاقتصَّ لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة.

وقد ثبت في صحيح مسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة».

وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول من يَقرع باب الجنة».

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة أستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، قال: فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زُمرةٍ تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يَبصقون فيها ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألُوة، ورَشحهم المِسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مُخُّ ساقهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبِّحون الله تعالى بكرة وعشياً» ورواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يدخلُ الجنةَ من أمتي زُمرة هم سبعون ألفاً، تُضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر» فقام عُكَّاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «اللهم اجعله منهم» ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة» أخرجاه. وقد روى هذا الحديث - في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن مسعود ورفاعة بن عرابة الجهني وأم قيس بنت محصن رضي الله عنهم.

ولهما: عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف، آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولُهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر».

وروى أبوبكر بن أبي شيبة: عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدَني ربِّي عز وجل أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً، لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاثُ حثيات من حثيات ربي عز وجل» ورواه الطبراني وله شواهد عن وجوه كثيرة.

وقوله تعالى: **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾** لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره: حتى إذا جاءوها، وكانت هذه الأمور، من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا، وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا، ذَهَب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل؛ ومن زعم أن «الواو» في قوله تبارك وتعالى: **﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾** واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أنفقَ زوجين من ماله في سبيل الله تعالى، دُعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان أهل الصيام دُعي من باب الرَّيان» فقال أبوبكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما على أحدٍ من ضرورة دُعي من أيها دُعي، فهل يُدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم وأرجو أن تكون منهم» رواه البخاري ومسلم.

وفيهما: عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الرَّيَّان، لا يدخله إلا الصائمون».

وفي صحيح مسلم: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول أشهد أن لا إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدْخل من أيها شاء.

(ذِكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها)

في الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله تعالى: يا محمد، أدْخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاءُ الناس في الأبواب الأخر. والذي نفس محمد بيده إن ما بين المِصْراعين من مَصاريع الجنة - ما بين عضادتي الباب - لَكَما بين مكة وهجر - أو هجر ومكة» وفي رواية «مكة وبصرى».

وفي صحيح مسلم: عن عتبة بن غزوان: أنه خطبهم خطبة فقال فيها: ولقد ذُكر لنا: أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يومٌ وهو كَظِيظٌ من الزحام.

وفي المسند: عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مثله.

وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾** أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم، وطاب جزاؤكم، كما أَمَرَ رسول الله ﷺ أن يُنادى بين المسلمين في بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة - وفي رواية - مؤمنة».

وقوله: **﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾** أي: ماكثين فيها أبداً، لا يبغون عنها حولاً.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا **﴿رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾** وقالوا **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾** وقالوا **﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾**.

وقولهم **﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾** قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد: أي: أرض الجنة. فهذه الآية كقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾** ولهذا قالوا **﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾** أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين: من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج: قال النبي ﷺ: «أُدخلتُ الجنة، فإذا فيها جَنَابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

وروى عبد بن حميد: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة، فقال: دَرْمَكة بيضاء، مسكٌ خالص، فقال رسول الله ﷺ «صدق» وكذا رواه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾** قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً، ولم تشعث أشعارهم أبداً بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها فشربوا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم

من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ وتلقى كل غلمان صاحبهم، يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة، أبشر قد أعدَّ الله لك من الكرامة كذا وكذا، وقد أعدَّ الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان باسمه في الدنيا، فيقلن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكُفَّة الباب، قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابي مبثوثة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون، ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله تعالى قدر له، لألم أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكئ على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾.

﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾

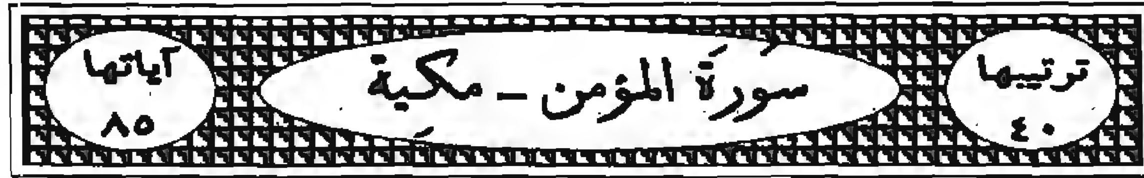
٧٥- لما ذكر تعالى الحكمة في أهل الجنة والنار، وأنه نزَّل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم مُحْدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضي الأمر، وحكم بالعدل، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر

****



قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم» وإنما يقال: آل حم.

وروى حميد بن زنجويه: عن عبد الله رضي الله عنه قال: إن مثل القرآن، كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً، فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه، ويتعجب منه، إذ هبط على روضات دَمثات، فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب، فقيل له: إن مثل الغيث الأول، مثل عِظم القرآن، وإنَّ مثل هؤلاء الروضات الدمثات، مثل آل حم في القرآن. أورده البغوي.

وروى أبو عبيد: عن مسعر هو ابن كدام عمن حدثه: أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه يبني مسجداً فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل حم[1]. وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه، هو المسجد المنسوب له داخل قلعة دمشق، وقد يكون صيانتها حفظها ببركته وبركة ما وضع له، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إنْ بيِّتُّم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون - وفي رواية: لا تنصرون»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ تنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾

١- أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وقد قيل: إن ﴿حم﴾ اسمٌ من أسماء الله عز وجل وأنشدوا في ذلك بيتاً:

يُذكِّرني حم والرُّمح شاجرٌ فهلا تَلا حم قبل التقدم

وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: من حديث المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنْ بيِّتم الليلةَ فقولوا: حم لا ينصرون» وهذا إسناد صحيح، واختار أبو عبيد أن يروي: «فقولوا حم لا ينصرون» أي: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

٢- وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب، وهو القرآن، من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

٣- وقوله عز وجل: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه، وخضع لديه، وقوله جل وعلا: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

---

(١) الأثر ضعيف، فيه رجل لم يسم.

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٤/ ٦٥) (٥/ ٢٧٧) وأبو داود (٢٥٩٧) والترمذي (١٧٤٩) من حديث المهلب بن أبي صفرة عمن سمع النبي ﷺ يقول . . . فذكره.

﴿الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ يقرن هذين الوصفين كثيراً، في مواضع متعددة من القرآن، ليبقى العبد من الرجاء والخوف.
وقوله تعالى: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني السَّعة والغنى، وهكذا قال مجاهد وقتادة، وقال يزيد الأصم ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ يعني: الخير الكثير، وقال عكرمة ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي المنّ، وقال قتادة: ذي النعم والفواضل، والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ الآية. وقوله جلت عظمته: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقده عمر، فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع في هذا الشراب، قال فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب، من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب قابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذَّرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي.

ورواه الحافظ أبو نعيم وزاد: فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلة، فسددوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه.

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) ﴾

٤- يقول تعالى ما يدفع الحق، ويجادل فيه بعد البيان، وظهور البرهان ﴿إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لآيات الله، وحججه وبراهينه ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال جل وعلا: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وقال عز وجل: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٥- ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذَّبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذَّبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول بعثه الله، ينهى عن عبادة الأوثان ﴿وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: من كل أمة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: حرَّصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: ماحلوا بالشبهة، ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقوله جلت عظمته: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أهلكتهم، على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً، قال قتادة: كان

شديداً والله.

٦- وقوله جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء، الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى، لأن من كذَّبك فلا وثوق له بتصديق غيرك، والله أعلم.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

٧- يخبر تعالى عن الملائكة المقربين، من حملة العرش الأربعة، ومن حوله من الملائكة الكروبيين[1] بأنهم يسبحون بحمد ربهم، أي: يتقربون بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من أهل الأرض، ممن آمن بالغيب، فقيَّض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام، كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب، قال الملك: آمين، ولك بمثله».

وقد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صدَقَ أُميَّةُ بن أبي الصلت في شيءٍ من شعره» فقال:

رجلٌ وثَور تحتَ رجلِ يمينه ... والنَّسْرُ للأُخرى وليثٌ مُرْصَد

فقال رسول الله ﷺ «صدق». فقال:

والشَّمس تطلُع كل آخر ليلةٍ ... حمراءُ يُصبح لونها يتوردُ

تأبى فما تَطلعُ لنا في رِسلها ... إلاَّ معذَّبة وإلاَّ تُجلَدُ

وقال رسول الله ﷺ: «صدق». وهذا إسناد جيد، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم، وحركاتهم وسكناتهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي: فاصفح عن المسيئين، إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات، وترك المنكرات ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم.

٨- ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: اجمع

---

(١) لم يصح الحديث بتسمية الملائكة الكروبيين، والله أعلم.

بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ساوينا بين الكل في المنزلة، لتقرَّ أعينهم، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني، بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل، تفضلاً منا ومنَّة.

وقال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة، سأل عن أبيه وابنه وأخيه، أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل، فيقول: إني إنما عملت لي ولهم، فيلحقون به في الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين: الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية، وأغش عباده للمؤمنين: الشياطين.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك.

٩ - ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فعلها أو وبالها ممن وقعت منه ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي: لطفت به، ونجيته من العقوبة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) ﴾

١٠ - يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم يُنادَون يوم القيامة وهم في غَمَرات النيران يتلظون، وذلك عند ما باشروا مُرَّ عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم، وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً، نادوهم نداء: بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا، حين كان يُعرض عليهم الإيمان فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم، في هذه الحالة. قال قتادة: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه، وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذر بن عبيد الله الهمداني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبري، رحمة الله عليهم أجمعين.

١١ - وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثوري عن ابن مسعود رضي الله عنه: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.

والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة، وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات

القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإذا دخلوا النار، وذاقوا مسها وحسيسها، ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا، فإنك قادر على ذلك، لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإنْ عُدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا: أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا.

١٢- ثم علل المنع من ذلك، بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه، بل تمجه وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: أنتم هكذا تكونون، وإنْ رددتم إلى الدار الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

١٣- وقوله جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه، بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي، من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾ وهو المطر، الذي يخرج به من الزروع والثمار، ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى.

١٤- وقوله عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم. روى الإمام أحمد: عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول: في دُبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النِّعْمَةُ وَلَه الفضلُ وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون؛ قال: وكان رسول الله ﷺ يهلِّل بهن دُبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء قلب غافل لاه».

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم، العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله، وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ كقوله جلت عظمته: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «يوم التلاق» اسم من أسماء يوم القيامة، حذَّر الله منه عباده، وقال ابن جريج قال ابن عباس رضي الله عنهما: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق، وقال ميمون ابن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم، وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر، كما قاله آخرون.

١٦- وقوله جل جلاله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

١٧- وقوله جلت عظمته: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا ظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم: عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» إلى أن قال: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال جل وعلا: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ﴾

١٨- يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ وقال عز وجل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وقال جل وعلا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقال جل جلاله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى ﴿كَاظِمِينَ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ وقال ابن جريج ﴿كَاظِمِينَ﴾ أي: باكين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

١٩- وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام، المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ وإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه، أنه ودَّ أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الضحاك ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ هو الغمز، وقول الرجل رأيت و لم ير. أو لم أر وقد رأى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يعلم الله تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها، هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: أي: من الوسوسة.

٢٠- وقوله عز وجل: ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل، قال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، كقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً، ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصيرٌ بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

٢١- يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما حلَّ بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات، مالا يقدر هؤلاء عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: ومع هذه القوة العظيمة، والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا ردَّه عنهم رادٌّ، ولا وقاهم واق.

٢٢- ثم ذكر علة أخذه إياهم، وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان، كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ تعالى، أي: أهلكهم ودمر عليهم، وللكافرين أمثالها ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة، وبطش شديد ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾

٢٣- يقول تعالى مسلياً لنبيه محمدﷺ في تكذيب من كذَّبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، ولهذا قال تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان.

٢٤- ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَامَانَ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿وَقَارُونَ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً، مموهاً كذاباً، في أن الله أرسله، وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

٢٥- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع، الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم

﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب، وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية، ولإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال قتادة: هذا أمر بعد أمر، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال.

٢٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه السلام، أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: لا أبالي منه، وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد، وقوله قبحه الله ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني: موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس، ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مُذكراً، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام. وقرأ الأكثرون: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ الآخرون: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ بالضم.

٢٧- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: لما بلغه قول فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى عليه السلام: استجرتُ بالله، وعذت به، من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أيها المخاطبون ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عن الحق مجرم ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولهذا جاء في الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن شُرُورِهِمْ، وَنَدْرأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ»(١).

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾

٢٨- المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، يقال إنه الذي نجا مع موسى عليه السلام، واختاره ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم. وقال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل، وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه

(١) رواه أحمد (٤/ ٤١٤) وأبو داود (١٥٣٧) والطيالسي (٥٢٤) وغيرهم، لكنه عندهم بلفظ: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم ، حين قال فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل. وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون ، وهي قوله : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه : عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ ، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ، ثم قال : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ انفرد به البخاري .

وروى ابن أبي حاتم : عن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أنه سُئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال : مر ﷺ بهم ذات يوم ، فقالوا له : أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال : «أنا ذاك» فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه ، فرأيت أبابكر رضي الله عنه محتضنه من ورائه ، وهو يصيح بأعلى صوته ، وإن عينيه ليسيلان ، وهو يقول: يا قوم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها . وهكذا رواه النسائي فجعله من مسند عمرو بن العاص رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي : كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول : ربي الله ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة ، فقال : ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني : إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه ، بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم ، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ، فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام ، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة ، في قوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۞ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۞ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش ، أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله . ولا يمسوه بسوء ، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته ، قال الله عز وجل : ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي : أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة ، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس . وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً . وقوله جل وعلا : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي : لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون ، لكان أمره بينا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله ، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين ، لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

٢٩ - ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم ، ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض ، بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن

بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾** لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد، الذي كان أحق بالملك من فرعون **﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾** أي: ما أقول لكم وأشير عليكم، إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة **﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾** وقال الله تعالى: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾**.

فقوله: **﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾** كذَبَ فيه وافترى، وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته، فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: **﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾** أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تبارك وتعالى: **﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾** وقال جلت عظمته: **﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾** وفي الحديث: «ما من إمام يموتُ يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»(١). والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾

٣٠- هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون، أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: **﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾** أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حلَّ بهم بأس الله، وما ردَّه عنهم رادٌّ، ولا صده عنهم صاد **﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾** أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره.

٣٢- ثم قال: **﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾** يعني: يوم القيامة، وسمى بذلك: قال: بعضهم منهم الضحاك: ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هراباً منها، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: **﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾** وقوله: **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾**. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والضحاك أنهم

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (١٣/ ١٢٦، ١٢٧) ومسلم في الإيمان (١/ ١٢٥) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، وليس فيه: «وإن ريحها من مسيرة خمسمائة عام».

قرأوا ﴿يَوْمَ التَّنَادِّ﴾ بتشديد الدال من: ندَّ البعير، إذا تردَّى وذهب. وقيل: لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح، ونادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإنْ خفَّ عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان، وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿أَنْ قَد وجدْنا ما وَعدَنَا ربُّنا حقاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ﴾ ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حرَّمهمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾ ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور في سورة الأعراف.

واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك، وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

٣٣- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: ذاهبين هاربين ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾ ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لكم من مانع، يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره.

٣٤- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط، فما أطاعوه تلك الطاعة، إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أي: يئستم فقلتم طامعين ﴿لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله، لإسرافه في أفعاله، وارتياب قلبه.

٣٥- ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت، ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفاته، فإن من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً، ولا ينكر منكراً.

ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن عكرمة - وحكى عن الشعبي - أنهما قالا: لا يكون الإنسان جباراً، حتى يقتل نفسين. وقال أبو عمران الجوني وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق، والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾

٣٦، ٣٧- يقول تعالى مخبراً عن فرعون، وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً، وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً﴾ ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر وأن يجعلوه في قبورهم، رواه ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ ﴿أَسْبَابَ

﴿السَّمَوَاتِ﴾ إلخ، قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عز وجل أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية، أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني: إلا في خسار.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) ﴾

٣٨- يقول المؤمن لقومه، ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

٣٩- ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدَّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي: قليلة زائلة فانية، عن قريب تذهب وتضمحل ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم.

٤٠- ولهذا قال جلت عظمته: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً، لا انقضاء له ولا نفاد، والله تعالى الموفق للصواب.

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾

٤١، ٤٢- يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ❁ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: على جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه، يغفر ذنب من تاب إليه.

٤٣- ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقاً. قال السدي وابن جريج: معنى قوله: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ حقاً. وقال الضحاك ﴿لاَ جَرَمَ﴾: لا كذب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ يقول: بلى، إن

الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: الوثن ليس له شيء. وقال قتادة: يعني: الوثن لا ينفع ولا يضر. وقال السدي: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، فيجازي كل بعمله، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله عز وجل.

٤٤ـ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

٤٥ـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تُعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألماً، وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هنا سؤال وهو: أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف، إلا قالت لها اليهودية: وقاكِ اللهُ عَذابَ القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال ﷺ: «لا، من زعم ذلك؟» قالت: هذه اليهودية، لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر، قال ﷺ: «كذبت يهودية، وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة» ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «أظلَّتكم الفتن، كقطع الليل المظلم، أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم، لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق» وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم لم يخرجاه.

وروى أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتها امرأةٌ يهودية فأعطتها، فقالت: وقاكِ اللهُ من عذاب القبر، فأنكرت عائشة رضي الله عنها، فلما رأت النبي ﷺ قالت له، فقال ﷺ: «لا» قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحي إليَّ أنكم تُفتنون في قبوركم» وهذا أيضاً على شرطهما.

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟

والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار، غدواً وعشياً في البرزخ، وليس فيها دلالة على

اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب، ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود» قالت عائشة رضي الله عنها: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم تفتنون في القبور» وقالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعدُ يستعيذ من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم.

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أوحي إلي النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد روى البخاري: من حديث عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاةً إلا تعوذ من عذاب القبر.

فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقرَّر عليه، وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيتان، والله سبحانه أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يغدى بهم ويراح، إلى أن تقوم الساعة. وقال الهزيل بن شرحبيل: أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود، تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها. رواه الثوري، وكذلك قال السدي.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) ﴾

٤٧- يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الضعفاء، وهم الأتباع: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم: القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا، من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ﴾ أي: قسطاً تتحملونه عنا.

٤٨- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من

العذاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: قسم بيننا العذاب، بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

٤٩ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجَّانين لأهل النار - أن يدعوا لهم الله تعالى، في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب.

٥٠ - فقالت لهم الخزنة رادِّين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أوَما قامت عليكم الحجج في الدنيا، على ألسنة الرسل ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم، ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم نخبركم أنه: سواء دعوتم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم، ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إلا في ذهاب، لا يقبل ولا يستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾

٥١ - قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية، كيحيى وزكريا وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم، إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين: **(أحدهما)**: أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة. **(الثاني)**: أن يكون المراد بالنصر: الانتصار لهم ممن اذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح ﷺ من اليهود، فسلَّط الله عليهم الروم، فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم.

ففي صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: مَن عادى لي ولياً، فقد بَارَزَني بالحرب».

ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم

وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً، وعذّب الكافرين، فلم يفلت منهم أحداً. وقال السدي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها.

وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه، على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم، وخذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرَّت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل، ودعوا عباد الله تعالى جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق، والأقاليم والمدائن، والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد ﴿الْأَشْهَادُ﴾ الملائكة.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع، كأنه فسره به ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المشركون ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وهي: النار، قاله السدي، بئس المنزل والمقيل. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: سوء العاقبة.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والنور ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله، وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى، واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وفي الكتاب الذي أورثوه هو التوراة.

٥٤- ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي: العقول الصحيحة السليمة.

٥٥- وقوله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أي: يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: وعدناك أنا سنُعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك ﴿وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وهذا الذي أخبرناك به، حقٌّ لا مرية فيه ولا شك. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ﴾ أي: في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ وهي: أوائل النهار، وأواخر الليل.

٥٦- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾

أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: من حال مثل هؤلاء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادَّعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ آمراً له أن يستعيذ من فتنة الدجال، ولهذا قال عز وجل: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)﴾

٥٧- يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس، بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال هنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

٥٨- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

٥٩- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة وواقعة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها. روى ابن أبي حاتم: عن مالك عن شيخ قديم من أهل اليمن - قدم من ثم - قال: سمعت أن الساعة إذا دنت، اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس، والله أعلم.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾

٦٠- هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه، أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده إليه مَن سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب. رواه ابن أبي حاتم. وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يغضَبُ إن تركتَ سُؤاله وبَنِيُّ آدمَ حِينَ يُسئَلُ يغْضَبُ

وروى الإمام أحمد: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن جرير. وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لَم يَدع اللهَ عز وجل، غَضبَ عليه» تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين، كما روى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّر، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: «بولس» تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخَبال: عصارة أهل النار».

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾

٦١- يقول تعالى ممتناً على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه، ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصراً، أي: مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم.

٦٢- ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء الذي لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة؟!

٦٣- وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

٦٤- وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي: جعلها لكم مستقراً، بساطاً مهاداً، تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: سقفاً للعالم محفوظاً ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب في الدنيا فذكر أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرازق، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدس، وتنزه رب العالمين كلهم.

٦٥- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين له، مقرين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: لا إله إلا الله، أن يتبعها: بالحمد لله رب العالمين، عملاً بهذه الآية. ثم روى عن مجاهد عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وروى أبو أسامة وغيره عن سعيد بن جبير (نحوه).

روى الإمام أحمد: عن أبي الزبير المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دُبُر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النِّعْمَةُ وَلَه الفضلُ وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون؛ قال: وكان رسول الله ﷺ يهلّ بهن دُبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ من رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨) ﴾

٦٦- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل ينهى أن يُعبد أحدٌ سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيَّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته:

٦٧- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ أي: هو الذي يُقلِّبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يوجد، ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفَّى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقال عز وجل ههنا: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابن جريج: تتذكرون البعث.

٦٨- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ

يُسْحَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

٦٩- يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟

٧٠- ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي: من الهدى والبيان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٧١، ٧٢- وقوله عز وجل: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم، ولهذا قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ ❁ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ❁ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ❁ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ❁ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ❁ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ - إلى أن قال: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ❁ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ❁ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ❁ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ❁ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ❁ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ❁ طَعَامُ الْأَثِيمِ ❁ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ❁ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ❁ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ❁ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ❁ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ❁ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

٧٣، ٧٤- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: جحدوا عبادتهم، كقوله جلت عظمته: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

٧٥- وقوله: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم.

٧٦- ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المنزل والمقيل، الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه، والله أعلم.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

٧٧- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر، على تكذيب من كذبه من قومه، فإن الله تعالى سينجز لك ما

وعدك، من النصر والظفر على قومك، وجَعْل العاقبة لك ولمن اتبعك، في الدنيا والآخرة ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: في الدنيا، وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة.

٧٨- ثم قال تعالى مسلياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء، أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾

٧٩، ٨٠- يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويُشرب لبنها، والجميع تجزُّ أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة، كما فصَّل وبيَّن في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام وسورة النحل وغير ذلك، ولذا قال عز وجل ههنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

٨١- وقوله جل وعلا: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾

٨٢- يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا ردَّ عنهم ذرة من بأس الله،

وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم.

٨٣- فأتاهم من بأس الله تعالى مالا قبل لهم به. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه.

٨٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله عز وجل، وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولاتنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: فلم يقبل الله منه، لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه، حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

٨٥- وهكذا قال تعالى ههنا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب، أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ اللهَ تعالى يَقبلُ توبةَ العبدِ ما لمْ يُغَرْغِرْ»[١].

أي: فإذا غرغر، وبلغت الروح الحنجرة، وعاين المَلَكَ، فلا توبة حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المؤمن

****

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجة (٤٢٥٣) وأحمد (٢/ ١٣٢، ١٥٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

ترتيبها ٤١ — سورة فصلت ـ مكية — آياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) تنزيلٌ مّنَ الرَّحْمنِ الرَّحيم (٢) كتابٌ فُصّلَتْ آياتُه قُرْآنًا عربيًّا لّقومٍ يعلمُونَ (٣) بَشيراً وَنَذيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا في أَكنَّة مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾

١ ، ٢- يقول تعالى: ﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

٣- وقوله تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بُيِّنَتْ معانيه، وأُحكمت أحكامه ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ أي: في حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح، العلماء الراسخون.

٤ ، ٥- ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أي: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: في غلف مغطاة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عما جئتنا به ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

وقد أورد الإمام محمد بن إسحاق بين يسار في «كتاب السيرة»: عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت، من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ننظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع» قال: يا ابن أخي إن كنتَ إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريد به

شرفاً، سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاستمع مني» قال: أفعل. قال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ◆ حم ◆ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ◆ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ◆ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملككم، وعزُّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1]. وهذا السياق أشبه من الذي قبله[2]، والله أعلم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

٦- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ، أنما إلهكم إله واحد، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: لسالف الذنوب ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دمار لهم وهلاك عليهم.

٧- ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ◆ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وكقوله جلت عظمته ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ◆ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ وقوله عز وجل: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والمراد بالزكاة هنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك: طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة، لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته، وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات، وقال السدي ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ◆ الَّذِي لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: لا يدينون بالزكاة. وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

---

(١) حديث حسن، وقد أورد الحافظ ابن كثير ههنا طريقاً له مسنداً من حديث جابر رضي الله عنه، رواه عبد بن حميد وأبو يعلى (٣/ ١٨١٨) والبغوي في تفسيره (٧/ ١٦٧) وغيرهم، وحسن الألباني الحديث في فقه السيرة (ص ١٠٨).

(٢) وقد حذفناه لضعفه.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، وفيه نظر، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير، فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله تعالى على رسولهﷺ الصلوات الخمس وفصَّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً، والله أعلم.

٨- ثم قال جل جلاله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا مجبوب، كقوله تعالى: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ وكقوله عز وجل: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقال السدي: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه هذا التفسير بعض الأئمة، فإن المنة لله تعالى على أهل الجنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وقال رسول اللهﷺ: «إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾

٩- هذا إنكار من الله تعالى على المشركين، الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً، لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية.

فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ ففي هذه الآية: أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما، فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه قال: عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾. ﴿وَأَقْبَلَ

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ - ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ - ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ - إلى قوله - ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ - إلى قوله- ﴿طَائِعِينَ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ - ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾ - ﴿سَمِيعاً بَصِيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ في النفخة الأولى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك، ولا يتساءلون بينهم في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وأما قوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثاً، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام ومابينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السموات في يومين.

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك، فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله عز وجل.

وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني: يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة، قابلة للخير والبذر والغراس ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق، والأماكن التي تزرع وتغرس، يعني يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقال عكرمة ومجاهد في قوله عز وجل: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: وجعل في كل أرض مالا يصلح في غيرها، ومنه العصب باليمن، والسابوري بالسابور، والطيالسة بالري. وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: معناه: على وفق مراده، من له حاجة إلى رزق، فإن الله تعالى قدَّر له ما هو محتاج إليه. وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ والله أعلم.

١١ - وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وهي بخار الماء المتصاعد منه، حين خلقت الأرض، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ أي: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين. روى الثوري: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ قال: قال الله تبارك وتعالى للسموات: اطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض: شقي أنهارك وأخرجي ثمارك ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك، حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما! وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره، لعذَّبهما عذاباً يجدان ألمه. ورواه ابن أبي حاتم.

١٢ـ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين، أي: آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: ورتَّب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه، من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿وَحِفْظاً﴾ أي: حرساً من الشياطين، أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: العزيز: الذي قد عزَّ كل شيء فغلبه وقهره، العليم: بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلقَ الشَّجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخَلَق النُّور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدَّواب يوم الخميس، وخلقَ آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» رواه مسلم والنسائي في كتابيهما، وهو من غرائب الصحيح وقد علَّله البخاري في التاريخ، فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار، وهو الأصح[1].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) ﴾

١٣ـ يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، المكذبين بما جئتهم به من الحق، إنْ أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلَّت بالأمم الماضين، من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما.

١٤ـ ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحلَّ الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو أرسل الله رسلاً، لكانوا ملائكة من عنده ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

١٥ـ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا

---

(١) قد مضى التعليق عليه (٢/ ١٩٨)، وأنه حديث صحيح، والله أعلم.

﴿قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾** أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء، وركَّب فيها قواها الحاملة لها، وأن بطشه شديد، كما قال عز وجل: **﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾** فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته، وعصوا رسله.

١٦- فلهذا قال: **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾** قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً، كقوله تعالى: **﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾** أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا» لقوة صوت جريه.

وقوله تعالى: **﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾** أي: متتابعات **﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾** وكقوله: **﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾** أي: ابتدأوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس **﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾** حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة. ولهذا قال: **﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾** أي: أشد خزياً لهم **﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾** أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب، ويدرأ عنهم النكال.

١٧- وقوله عز وجل: **﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد: بينَّا لهم، وقال الثوري: دعوناهم **﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾** أي: بصَّرناهم وبينَّا لهم، ووضَّحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله تعالى، التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم **﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾** أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة، وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً **﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** أي: من التكذيب والجحود.

١٨- **﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، بإيمانهم وتقواهم لله عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)﴾

١٩- يقول تعالى: **﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾** أي: اذكر لهؤلاء المشركين، يوم يحشرون إلى النار **﴿يُوزَعُونَ﴾** أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تبارك وتعالى: **﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾** أي: عطاشاً.

٢٠- وقوله عز وجل: **﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾** أي: وقفوا عليها **﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ﴾**

﴿وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالهم مما قدَّموه وأخروه، لا يُكتم منه حرف.

٢١ - ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون. روى الحافظ أبو بكر البزار: عن الشعبي عن أنس بن مالكﷺ قال: ضحك رسول اللهﷺ ذات يوم أو تبسم، فقالﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قالﷺ: «عجبتُ من مُجادلة العبد ربَّه يوم القيامة، يقول: أي ربِّ، أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: أوليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مراراً، قال: فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعْداً لكنَّ وسُحقاً، عنكنَّ كنتُ أجادلُ» وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعاً.

وقد تقدم أحاديث كثيرة وآثار عند قوله تعالى في سورة يس ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما أغنى عن إعادته ههنا، وروى ابن أبي حاتم: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما رجعت إلى رسول اللهﷺ مهاجرة البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرَّت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرَّت على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه، فقالت: سوف تعلم يا غدر، إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً؟ قال: يقول رسول اللهﷺ: «صدقت صدقت، كيف يُقدِّس اللهُ قوماً لا يُؤْخذ لضعيفهم من شديدهم» هذا حديث غريب من هذا الوجه، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال.

٢٢، ٢٣- وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود، حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه لا يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي: هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون - هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

روى الإمام أحمد: عن عبد اللهﷺ قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفي وختناه قرشيان - كثيرٌ شحم بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهما: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفع لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله - قال - فذكرت ذلك للنبيﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي.

وروى عبد الرزاق: عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: عن النبيﷺ في قوله تعالى: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ

﴿سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ قال: إنكم تدعون يوم القيامة مُفدَّماً على أفواهكم بالفِدام، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذه وكفه» قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أنا مع عبدي عند ظنه بي، وأنا معه إذا دعاني» ثم افترَّ الحسن ينظر في هذا فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق، فأساءا الظن بالله فأساءا العمل، ثم قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدٌ منكم إلا وهو يحسن بالله الظن».

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً، فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلاجواب لهم. قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ۞ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۞ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾.

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾

٢٥- يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قيض لهم من القرناء، من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: حسنوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب، كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: استووا هم وإياهم في الخسار والدمار.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: إذا تلي لا تسمعوا له، كما قال مجاهد ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق، على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه وعادوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا حال هؤلاء

الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم، عند سماع القرآن، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك، فقال تعالى: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**.

٢٧- ثم قال عز وجل منتصراً للقرآن، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفر **﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً﴾** أي: مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه **﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي: بشر أعمالهم، وسيء أفعالهم.

٢٨، ٢٩- **﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾** روى سفيان الثوري: عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: **﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾** قال: إبليس، وابن آدم الذي قتل أخاه. وهكذا روى العرني عن علي رضي الله عنه مثل ذلك. وقال السدي عن علي رضي الله عنه: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول، كما في الحديث: «ما قتلت نفسٌ ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها»[1]. لأنه أول من سن القتل.

وقولهم **﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾** أي: أسفل منا في العذاب، ليكونا أشد عذاباً منا، ولهذا قالوا: **﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾** أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف، في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذِّب قادتهم أضعاف عذابهم **﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾** أي: أنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾**.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾

٣٠- يقول تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

روى ابن جرير: عن سعيد بن عمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً. ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما تقولون في هذه الآية **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** قال: فقالوا: **﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد. وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: **﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** على أداء فرائضه، وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهمَّ

---

(١) الحديث في البخاري في الديات (١٢/ ١٩١) ومسلم في القسامة (٣/ ١٣٠٣، ١٣٠٤) بلفظ: «لا تقتل نفسٌ ظلماً....».

(١) ليس عند مسلم (١/ ٦٥): «قلت: فما أتقي...» إلخ.

أنتَ ربنا فارزقنا الاستقامة، وقال أبو العالية ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أخلصوا له الدين والعمل.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن سفيان الثقفي عن أبيه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، مُرْني بأمرٍ في الإسلام، لا أسأل عنه أحداً بعدك، قالﷺ: «قُل آمنتُ بالله ثمَّ استَقِمْ» قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه. ورواه النسائي. وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي، وذكر تمام الحديث[٢].

وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت، قائلين ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي: مما تقدمون عليه عمل الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر، وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراءرضي الله عنه قال: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها الروح الطيبة، في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى رَوحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان». وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم، حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدي.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً، وهو الواقع.

٣١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوزكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقربه العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم.

٣٢- ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً، من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غَفَرَ وستر ورحم ولطف. روى الإمام أحمد: عن أنسرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَن كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَه» قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت! قالﷺ: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر، جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائرٌ إليه، فليس شيءٌ أحبَّ إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى، فأحبَّ الله لقاءه، قال: وإنَّ الفاجر أو الكافر إذا حُضر، جاءه بما هو صائر إليه من الشر، أو ما يلقى من الشر، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه» وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾

٣٣- يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير، ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطولُ الناسِ أعناقاً يوم القيامة».

وفي السنن مرفوعاً: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين».

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قالت: فهو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة، فقد دعا إلى الله. وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة إنها نزلت في المؤذنين. وقد ذكر البغوي: عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال في قوله عز وجل: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة. ثم أورد البغوي: حديث عبد الله ابن المغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة» ثم قال في الثالثة: «لمن شاء» وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من حديث عبد الله بن بريدة عنه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قد رفعه إلى النبي ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة.

والصحيح: أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أُريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه، فقصَّه على رسول الله ﷺ فأمره أن يُلقيه على بلال رضي الله عنه، فإنه أندى صوتاً، كما هو مقرر في موضعه. فالصحيح إذن: أنها عامة، كما روى عبد الرزاق: عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين، وهذا خليفة الله.

٣٤- وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾ أي: فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه. وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك، قادته تلك الحسنة إليه، إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك، حتى يصير كأنه وليٌّ حميم أي: قريب إليك، من الشفقة عليك، والإحسان إليك.

٣٥- ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها، إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب

والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم.

٣٦- وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس، إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلَّطه عليك، فإذا استعذت بالله، والتجأت إليه، كفَّه عنك وردَّ كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه». وقد قدمنا أن هذا المقام لانظير له في القرآن، إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفي سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۞ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

٣٧- يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياؤه، وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس، مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبَّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به.

٣٨- ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن إفراد العبادة له، وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

٣٩- وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: على قدرته على إعادته الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

٤٠- قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: «الإلحاد» وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة وغيره: هو الكفر والعناد، وقوله عز وجل: ﴿لاَيَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال عز وجل تهديداً للكفرة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد، أي: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٤١- ثم قال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك والسدي وقتادة: وهو القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع الجناب لا يرام، أن يأتي أحد بمثله.

٤٢- ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزلٌ من رب العالمين. ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

٤٣- ثم قال عز وجل: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب، كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كذبت كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو ولا ابن أبي حاتم غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لمن استمر على كفره وطغيانه، وعناده وشقاقه ومخالفته.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

٤٤- لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عنادٍ وتعنت، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: لولا فصّلت آياته، أعجمي وعربي، أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك، فقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي، على مخاطب عربي لا يفهمه؟ هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم.

وقيل: المراد: بقولهم لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي، أي: هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها

بالعربي؟ هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ وهو رواية عن سعيد ابن جبير، وهو في التعنت والعناد أبلغ.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي: قل يا محمد، هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني: بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كأن مَنْ يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

٤٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: كُذِّبَ وأوذي ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجَّل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكِّين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾

٤٦- يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

٤٧- ثم قال جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحدٌ سواه، كما قال محمدﷺ وهو سيد البشر - لجبريل عليه الصلاة والسلام - وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

وكما قال عز وجل: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ وقال جل جلاله: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ وقال جلت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي: يوم القيامة، ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحدٌ منا

يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

٤٩- يقول تعالى، لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، وإنْ مَسَّه الشر، وهو البلاء أو الفقر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

٥٠- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه خيرٌ ورزق، بعد ما كان في شده، ليقولن هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: بكفرهم بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أي: ولئن كان ثَمَّ معاد، فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل، وعدم اليقين. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده، بالعقاب والنكال.

٥١- ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل، كقوله جل جلاله: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: يطيل المسئلة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز عكسه، وهو ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ الآية.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

٥٢- يقول تعالى، قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله، ثم كفرتم به؟ أي: كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال عز وجل: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في كفر وعناد، ومشاقة للحق، ومسلك بعيد من الهدى.

٥٣- ثم قال جل جلاله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلالتنا وحججنا، على كون القرآن حقاً، منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ، بدلائل خارجية ﴿فِي الآفَاقِ﴾ من الفتوحات،

وظهور الإسلام على الأقاليم، وسائر الأديان.

قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلَّت بهم نصر الله فيها محمداًﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك: ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه، من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح، الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبح، وغير ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره، أن يجوزها ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وإذا نظـرتَ تُريدُ معتبـراً ... فانظر إليك ففيك معتبرُ
أنتَ الَّذي تُمسي وتصبح في ... الدنيا وكل أموره عِبرُ
أنت المصرف كان في صِغر ... ثم استقل بشخصك الكِبرُ
أنت الذي تنعاه خلقتُـه ... ينعاه منه الشَّعر والبشر
أنت الَّذي تُعطى وتُسلب لا ... ينجيه من أن يُسلبَ الحذر
أنت الذي لا شيءَ منه له ... وأحقُّ منه بما له القَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداًﷺ صادقاً فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ الآية.

٥٤- وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَر لا يعبأون به، وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه.

ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه، يسير سهل عليه، تبارك وتعالى ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره، وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة فصلت

****

ترتيبها ٤٢ | سورة الشورى - مكية | آياتها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

١، ٢- قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

٣- وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

روى الإمام مالك رحمه الله: عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإنَّ جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً. أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري.

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ، في أول شرح البخاري، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

٤- وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع عبيدٌ له، وملك له، تحت قهره وتصريفه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ والآيات في هذا كثيرة.

٥- وقوله عز وجل: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحبار: أي: فَرَقاً من العظمة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

وقوله جل جلاله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به.

٦- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: المشركين ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي:

شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ⑦ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ⑧ ﴾

٧- يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحاً جلياً بيناً ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى، لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله: ما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عدي ابن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحَزْوَرة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليَّ، ولو لا أني أُخرجت منك ما خرجت» هكذا رواية الترمذي والنسائي وابن ماجة.

وقوله عز وجل: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة. وقوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يغبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال ﷺ للذي في يمينه: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. ثم قال ﷺ للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار، بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء نعمل، إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا، فإنَّ صاحب الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يُختم له بعملِ أهل النار، وإنْ عملَ أي عمل» ثم قال ﷺ بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد، ثم قال باليمني فنبذ بها، فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرى وقال: فريق في السعير» وهكذا رواه الترمذي والنسائي، وساقه البغوي في تفسيره.

وروى الإمام أحمد: عن أبي نضرة قال: «إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله، دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي، فقال له: ما يُبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني، قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي» فلا أدري في أي القبضتين أنا!

وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً، منها حديث علي وابن مسعود وعائشة

وجماعة جمة رضي الله عنهم أجمعين.

٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)﴾

٩- يقول تعالى منكراً على المشركين، في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه هو الولي الحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير.

١٠- ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه، بكتابه وسنة نبيه ﷺ، كقوله جل وعلا: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الحاكم في كل شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور.

١١- وقوله جل جلاله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، منّةً عليكم وتفضلاً، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة، لا يزال يذرؤكم فيه، ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوي ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: «في» بمعنى الباء، أي: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد، الذي لا نظير له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

١٢- وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك: أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن

يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾

١٣- يقول تعالى لهذه الأمة ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام، وهو نوح عليه السلام، وأخرهم وهو: محمد ﷺ. ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم، في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية، والدِّين الذي جاءت به الرسل كلهم، هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولادُ عَلاَّت ديننا واحد» أي: القدر المشترك بينهم، هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جل جلاله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: هو الذي يقدِّر الهداية لمن يستحقها، يكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: إنما كان مخالفتهم للحق، بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغيُ والعناد والمشاقة.

١٤- ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجَّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً.

وقوله جلت عظمته: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾

١٥- اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، حُكمٌ برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشر فصول كهذه. وقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين، الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة، كأولي العزم وغيرهم، فادع الناس إليه.

وقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى، كما أمركم الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: المشركين فيما اختلقوه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله جل وعلا: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ أي: صدَّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء

على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله.

وقوله جلت عظمته: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَأَعْمَالُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا متجه، لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾. وقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴾

١٦ - يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله، من آمن به ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: جادلوا المؤمنين، بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم، وقد كذبوا في ذلك.

١٧ - ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد وقتادة، وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا.

١٨ - وقوله عز وجل: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكفراً وعناداً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها، عاملون من أجلها.

وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح الحسان والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نحواً

من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إنها كائنة، فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت». فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب» هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله تعالى: **﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾** أي: يجادلون في وجودها، ويدفعون وقوعها **﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾** أي: في جهل بين، لأن الذي خلق السموات والأرض، قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾**.

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾

١٩- يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه، في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه للبر والفاجر، كقوله عز وجل: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** ولها نظائر كثيرة. وقوله جل وعلا: **﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾** أي: يوسع على من يشاء **﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾** أي: لا يعجزه شيء.

٢٠- ثم قال عز وجل: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾** أي: عمل الآخرة **﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾** أي: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله **﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾** أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية، حرمه الله الآخرة والدنيا، إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية، بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، والدليل على هذا: أن هذه الآية ههنا، مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تبارك وتعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ❁ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ❁ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ❁ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾**.

وروى الثوري: عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشّر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنَّصر والتمكين في الأرض، فمَن عَمِل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب»(١).

٢١- وقوله جل وعلا: **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾** أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من

(١) ورواه أحمد (٥/ ١٣٤) وصححه ابن حبان (٤٠٥).

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأموال الفاسدة.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة، يجر قُصبه في النار». لأنه أول من سيب السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعوجلوا بالعقوبة، لو لا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجع في جهنم وبئس المصير.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: في عَرَصات القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: الذين يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأين هذا من هذا؟ أي: أين مَن هو في العَرَصات في الذل والهوان، والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومناظر ومناكح وملاذ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة، السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

٢٣- يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله تعالى لهم به.

وقوله عز وجل: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين من كفار قريش، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلِّغ رسالات ربي، إنْ لم تنصروني فلا تؤذوني، بما بيني وبينكم من القرابة.

روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش، إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. وانفرد به البخاري. وهكذا روى عامر الشعبي والضحاك وعلي بن أبي طلحة والعوفي ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

(وقول ثان): وهو ما حكاه البخاري وغيره: رواية عن سعيد بن جبير ما معناه: أنه قال: معنى ذلك: أن تودوني في قرابتي، أي: تحسنوا إليهم وتبروهم. وقال أبو إسحاق السبيعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال: قربى النبي ﷺ، رواه ابن جرير.

والحق تفسير هذه الآية، بما فسَّرها به حَبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما،

كما رواه عنه البخاري، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة، الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير «خُم»: «إني تارك فيكم الثَّقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»[1]. وروى البخاري: عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن أبي بكر - هو الصديق - رضي الله عنه قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته. وفي الصحيح: أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إلي أن أصل من قرابتي. وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله تعالى عنهما: والله لا سلامك يوم أسلمت، كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فحال الشيخين رضي الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين.

وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خُماً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال ﷺ: «أما بعد، أيها الناس، إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسولُ ربي فأُجيب، وإني تاركٌ فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه. وقال ﷺ: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس رضي الله عنهم، قال: أكل هؤلاء حرم عليه الصدقة؟ قال: نعم، وهكذا رواه مسلم والنسائي.

وروى أبو عيسى الترمذي: عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظمُ من الآخر: كتاب الله حَبْلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، والآخر: عترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» تفرد بروايته. وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم. وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ بما أغنى عن إعادتها ههنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ أي: ومن يعمل حسنة، نزدْ له فيها حسنا، أي: أجراً وثواباً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ وقال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثِّر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

٢٤- وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: يطبع على قلبك، وسلبك ما كان آتاك من

(١) وسيأتي ذكره مبسوطاً.

القرآن، كقوله جل جلاله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله جلت عظمته: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفاً على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوماً، بل هو مرفوع على الابتداء. قاله ابن جرير قال: وحذفت من كلمته الواو في رسم المصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أي: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أي: بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

٢٥- يقول تعالى ممتناً على عباده، بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه، إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح، ويستر ويغفر، كقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم رحمة الله عليه: عن إسحاق بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك وهو عمه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، مِنْ أحدكم كانت راحلته، بأرض فلاة، فانفلتتْ منه وعليها طعامه وشرابه، فأيسَ منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح».

وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحوه. وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن الرجل يفجر بالمرأة، ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالمٌ بجميع ما فعلتم، وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه: يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم، ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة وأنه جعلها، كقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ والمعنى الأول أظهر، لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي:

يستجيب دعاءهم، ويزيدهم فوق ذلك. وقال قتادة عن إبراهيم النخعي في قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم.

وقوله عز وجل: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر المؤمنين، وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين، وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد، الموجع المؤلم، يوم معادهم وحسابهم.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك، ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا». وسؤال السائل: «أيأتي الخير بالشر؟» الحديث.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره، مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

٢٨- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ وقوله جل جلاله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾

٢٩- يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي: ذرأ فيهما، أي: في السموات والأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم، ولغاتهم وطباعهم، وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرّقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

٣٠- وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب، فإنما عن سيئات تقدمت لكم ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ما يُصيب المؤمن من نَصب ولا وَصب، ولا هم ولا حزن، إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها».

ثم روى ابن أبي حاتم: عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحدثكم بحديث

ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسألناه، فتلا هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ قال: ما عاقبَ الله تعالى به في الدنيا، فالله أحلم من أن يُثَنِّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فالله أكرم من أن يعود عفوه يوم القيامة.

وروى الإمام أحمد: عن معاوية هو ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يُصيب المؤمن في جسده يؤذيه، إلا كفَّر الله تعالى عنه به من سيئاته». وروى ابن أبي حاتم: عن الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: دخل عليه بعض أصحابه - وقد كان ابتلي في جسده فقال له بعضهم: إنا لنبأس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس بما ترى، فإنَّ ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

وروي: عن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه، إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. ثم يقول الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن!

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾

٣٢- يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه: تسخيره البحر، لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قاله مجاهد والحسن والسدي والضحاك. أي: هذه في البحر كالجبال في البر.

٣٣- ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أي: التي تسير في البحر بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي: إن في تسخيره البحر، وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي: في الرخاء.

٣٤- وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: ولو شاء لأهلك السفن، وأغرقها بذنوب أهلها، الذين هم راكبون فيها ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من ذنوبهم، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك كل من ركب البحر، وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد.

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكَّن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته، أنه يرسل بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً، لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها، لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

٣٥- وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن بأسنا

ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾

٣٦- يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم، فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة، فانية زائلة لا محالة ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ثواب الله تعالى خير من الدنيا، وهو باق سرمدي، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات، وترك المحرمات.

٣٧- ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله. وفي حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له تربت يمينه»[(١)].

وروى ابن أبي حاتم: عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

٣٨- وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله، وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أعظم العبادات لله عز وجل ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم، في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الآية، ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

٣٩- وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين، الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منَّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه ﷺ

---

(١) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٤٥٢، ٤٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

عن غورث بن الحارث ، الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم ، فاستيقظ ﷺ وهو في يده صلتاً ، فانتهره فوضعه من يده ، وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده ، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره ، وأمر هذا الرجل ، وعفا عنه .

وكذلك عفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره ﷺ ، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه ، مع قدرته عليه . وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري ، الذي قتله محمود بن سلمة - التي سمّت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك ، فدعاها فاعترفت فقال ﷺ : «ما حملك على ذلك؟» قالت : أردت إن كنتَ نبياً لم يضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك ، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ، ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به ، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾

٤٠- قوله تبارك وتعالى : **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾** كقوله تعالى : **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾** وكقوله : **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾** الآية ، فشرع العدل ، وهو القصاص ، ونَدَب إلى الفضل ، وهو العفو ، كقوله جل وعلا : **﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾** ولهذا قال ههنا : **﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** أي : لا يضيع ذلك عند الله ، كما صح ذلك في الحديث ، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً . وقوله تعالى : **﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** أي : المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة .

٤١- ثم قال جل وعلا : **﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾** أي : ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم . كما روى النسائي وابن ماجة : من حديث عروة قال : قالت عائشة رضي الله عنها : ما علمت حين دخلت علي زينب بغير إذن ، وهي غضبى ، ثم قالت لرسول الله ﷺ : حسبك إذا قَلبتْ لك ابنة أبي بكر ذُريعتها ، ثم أقبلت علي فأعرضتُ عنها ، حتى قال النبي ﷺ : «دونك فانتصري» فأقبلت عليها ، حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها ، ما تردُّ علي شيئاً ، فرأيت النبي ﷺ يتهلَّل وجهه . وهذا لفظ النسائي .

٤٢- وقوله عز وجل : **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾** أي : إنما الحرج والعنت **﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾** أي : يبدءون الناس بالظلم ، كما جاء في الحديث الصحيح : «المستبان ما قالا ، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» **﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** أي : شديد موجع .

٤٣- ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله ، وشرع القصاص ، قال نادباً إلى العفو والصفح **﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾** أي : صبر على الأذى ، وستر السيئة **﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي : لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة ، التي عليها ثواب جزيل ، وثناء جميل . وروى الإمام أحمد : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلاً شتم أبابكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم ، فلما أكثر ردَّ عليه بعض قوله ، فغضب النبي ﷺ وقام ، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا

رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت، قال: «إنه كان معك ملكٌ يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان، ثم قال: «يا أبا بكر ثلاثٌ كلهنَّ حقٌّ: ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضى عنها لله، إلا أعزَّه الله تعالى بها ونصره، وما فتح رجل باب عطيةٍ يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرةً، وما فَتح رجل باب مسئلة يريد بها كثرة، إلا زاده الله عز وجل بها قِلَّة» وكذا رواه أبو داود.

وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو مناسب للصدِّيق رضي الله عنه.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، إنه ما شاء كان، ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن، فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾. ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة، تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ؟﴾ كما قال جل وعلا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

٤٥- وقوله عز وجل: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي: الذل قد اعتراهم، بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي: ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم بما في نفوسهم، أجارنا الله من ذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يقولون يوم القيامة ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم في دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبابهم، وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم، فخسروهم ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي، لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

٤٦- وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له خلاص.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾

٤٧- لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال، والأمور العظام الهائلة، حذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه، فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله عز وجل: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم، بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۞ كَلَّا لَا وَزَرَ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر، وقال عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقال جل وعلا ههنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: إنا كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني: الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: جدب ونقمة وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدم من النعم، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإنْ أصابته نعمةٌ أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تصدَّقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لأنكنَّ تُكثرن الشكاية، وتكفُرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط».

وهذا حال أكثر النساء، إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سرَّاء شكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

٤٩- يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض، ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أي: يرزقه البنات فقط. قال البغوي: ومنهم لوط ﷺ ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط. قال البغوي: كإبراهيم الخليل ﷺ، لم يولد له أنثى.

٥٠- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أي: ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا. قال البغوي: كمحمد ﷺ ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يولد له. قال البغوي: كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له، ولا ولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء من تفاوت الناس وفي ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة

لهم على قدرته تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام: فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى ﷺ من ذكر وأنثى، وعيسى ﷺ من أنثى بلا ذكر، فتمَّت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣) ﴾

٥١- هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في رُوع النبي ﷺ شيئاً، لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن رُوح القُدس نَفَثَ في رُوعِي، أن نفساً لن تموتَ حتى تستكملَ رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطَّلب».

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى ﷺ، فإنه سأل الرؤية بعد التكلم، فحجب عنها.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «ما كلَّم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً». كذا جاء الحديث، وكان قد قُتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا.

وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل ﷺ، وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فهو علي عليم، خبير حكيم.

٥٢- وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم.

٥٣- ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أي: شرعه الذي أمر به الله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: ربهما ومالكهما، والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ أي: ترجع الأمور فيفصلها، ويحكم فيها سبحانه وتعالى، عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

آخر تفسير سورة الشورى

****

ترتيبها ٤٣ | سورة الزخرف ـ مكية | آياتها ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

١ ، ٢- يقول تعالى: ﴿حم ◆ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: البين الواضح الجلي، المعاني والألفاظ، لأنه نزل بلغة العرب، التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس.

٣- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال عز وجل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ بين شرفه في الملإ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ. قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا قاله قتادة وغيره ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم، بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ◆ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ◆ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ◆ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ◆ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ◆ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ◆ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ◆ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ◆ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

ولهذا استنبط العلماء رضي الله عنهم من هاتين الآيتين: أن المحدث لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملإ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

٥- وقوله عز وجل: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ اختلف المفسرون في معناها، فقيل معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم، ولم تفعلوا ما أمرتم به. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو صالح ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير، وقال قتادة: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته، فكرَّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أن يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي من

قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

٦- ثم قال جل وعلا مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذَّبه من قومه، وآمراً له بالصبر عليهم **﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾** أي: في شيع الأولين.

٧- **﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أي: يكذبونه ويسخرون به.

٨- وقوله تبارك وتعالى: **﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾** أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد، كقوله عز وجل: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾** والآيات في ذلك كثيرة جداً.

وقوله جل جلاله: **﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾** قال مجاهد: سنتهم، وقال قتادة: عقوبتهم، وقال غيرهما: عبرتهم، أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين، أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: **﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾** وكقوله جلت عظمته: **﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾** وقال عز وجل: **﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾**.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾

٩- يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره **﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾** أي: ليعترفنَّ بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

١٠- ثم قال تعالى: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾** أي: فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها، وتقومون وتنامون وتنصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال، لئلا تميد هكذا ولا هكذا **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾** أي: طرقاً بين الجبال والأودية **﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

١١- **﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾** أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم، وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم، وقوله تبارك وتعالى: **﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾** أي: أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض، على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: **﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾**.

١٢- ثم قال عز وجل: **﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾** أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها **﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ**

الْفُلْكِ﴾ أي: السفن **﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾** أي: ذللها لكم، وسخَّرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها، وركوبكم ظهورها.

١٣، ١٤- ولهذا قال جل وعلا: **﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾** أي: لتستووا متمكنين مرتفعين **﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾** أي: على ظهور هذا الجنس **﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾** أي: فيما سخر لكم **﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾** أي: مقاومين ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي وابن زيد **﴿مُقْرِنِينَ﴾** أي: مطيقين **﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾** أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى: **﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾** وباللباس الدنيوي على الأخروي، في قوله تعالى: **﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾**.

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة

﴿حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه﴾: روى الإمام أحمد: عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً رضي الله عنه أُتي بدابة، فلما وَضَع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله، **﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾** ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي، ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يَعْجَبُ الرَّبُّ تبارك وتعالى من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول: عَلِمَ عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري» وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

(حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما): روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً، ثم قال: **﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾** ثم يقول: «اللهم إنِّي أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا السفر، واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا» وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون» وهكذا رواه مسلم وأبو داو والنسائي.

(حديث آخر في معناه): روى الإمام أحمد: عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج، فقلنا: يا رسول الله، ما نرى أن تحملنا هذه، فقال ﷺ: «ما من بعير إلا في ذُروته شيطانٌ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يَحمل الله عز وجل». أبو لاس اسمه محمد بن الأسود بن خلف.

(حديث آخر في معناه): روى أحمد: عن محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كلِّ بعيرٍ شيطانٌ، فإذا ركبتموها فسمُّوا الله عز وجل، ثم لا تُقصِّروا عن حاجاتكم».

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم

بالْبَنين ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشّرَ أَحدُهم بما ضَربَ للرّحْمنِ مَثلاً ظَلَّ وجْهُهُ مُسْودًّا وَهُو كَظيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَ مَن يُنشَّأُ في الْحِلْيَةِ وهُو في الْخِصَامِ غَيْرُ مُبينٍ ﴿١٨﴾ وجَعَلوا الْمَلائكَةَ الّذين هُمْ عِبادُ الرّحْمنِ إِناثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ستُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ويُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرّحْمَنُ مَا عَبدْنَاهُم مَّا لَهُم بذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

١٥ - يقول تعالى مخبراً عن المشركين، فيما افتروه وكذبوه، في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله تعالى، كما ذكر الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام، في قوله تبارك وتعالى: **﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسهما وأردأهما، وهو البنات، كما قال تعالى: **﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾** وقال جل وعلا ههنا: **﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾**.

١٦ - ثم قال جل وعلا: **﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾** وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار.

١٧ - ثم ذكر تمام الإنكار فقال جلت عظمته: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** أي: إذا بشّر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات، يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

١٨ - ثم قال سبحانه وتعالى: **﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** أي: المرأة ناقصة، يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أومن يكون هكذا، ينسب إلى جناب الله العظيم؟ فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى، وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص. كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحلي إلا زينةٌ من نقيصةٍ ... يتمِّم من حسنٍ إذا الحسنُ قصَّرا

وأمَّا إذا كان الجمالُ موفَّراً ... كحسنكِ لم يحتج إلى أن يزوَّرا

وأما نقص معناها: فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همَّة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة.

١٩ - وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾** أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: **﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾** أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً **﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾** أي: بذلك **﴿وَيُسْئَلُونَ﴾** عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

٢٠ - **﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾** أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام، التي هي على صورة الملائكة، التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك، وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: **(أحدها)**: جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً **(الثاني)**: دعواهم أنه اصطفى

البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. **(الثالث)**: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء **(الرابع)**: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قدَراً، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل، وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** وقال عز وجل: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾**.

وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه **﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾** أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** أي: يكذبون ويتقوّلون. وقال مجاهد في قوله تعالى: **﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** يعني: ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾

٢١- يقول تعالى منكراً على المشركين، في عبادتهم غير الله، بلا برهان ولا دليل ولا حجة **﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ﴾** أي: من قبل شركهم **﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾** أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله عز وجل: **﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾** أي: لم يكن ذلك.

٢٢- ثم قال تعالى: **﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾** أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك، سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها «الدِّين» ههنا وفي قوله تبارك وتعالى: **﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾**.

وقولهم: **﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ﴾** أي: ورائهم **﴿مُّهْتَدُونَ﴾** دعوى منهم بلا دليل.

٢٣- ثم بيّن جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم، من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم **﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾** وهكذا قال ههنا: **﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾**.

٢٤- ثم قال عز وجل: **﴿قُلْ﴾** أي: يا محمد لهؤلاء المشركين **﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾** أي: لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك، لسوء قصدهم، ومكابرتهم للحق وأهله.

٢٥- قال الله تعالى: **﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾** أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصّله تبارك وتعالى في قصصهم **﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجّى الله المؤمنين.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾

٢٦ ، ٢٧- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله، إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله، أي: جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى، من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها.

٢٨- وقال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

٢٩- ثم قال جل وعلا: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: المشركين ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أي: فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة والنذارة.

٣٠- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: كابروه وعاندوه، ودفعوا بالصدور والرواح، كفراً وحسداً وبغياً.

٣١- ﴿وَقَالُوا﴾ أي: كالمعترضين على الذي أنزله، تعالى وتقدس ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن، على رجلٍ عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون: مكة والطائف. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد، وقد ذكر غير واحد منهم قتادة: أنهم أرادوا بذلك: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، وقال مالك عن زيد ابن أسلم والضحاك والسدي: يعنون: الوليد بن المغيرة ومسعود بن عروة الثقفي، وعن مجاهد: يعنون عمير ابن عمرو بن مسعود الثقفي، وعنه أيضاً أنهم يعنون: عتبة بن ربيعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جباراً من جبابرة قريش. وعنه رضي الله عنهما أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وعن مجاهد يعنون: عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف، وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة

ابن عبد عمرو بن عمير الثقفي.

والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان.

٣٢- قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ثم قال عز وجل مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم، من الأموال والأرزاق، والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية. وقوله جلت عظمته: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ قيل: معناه: ليسخِّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا. قاله السدي وغيره، وقال قتادة والضحاك: ليملك بعضُهم بعضاً، وهو راجع إلى الأول. ثم قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

٣٣- ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة، أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال، هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: سلالم ودرجاً من فضة. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يصعدون.

٣٤- ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً﴾ أي: إغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أي: جميع ذلك يكون فضة.

٣٥- ﴿وَزُخْرُفاً﴾ أي: وذهباً، قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي: يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح.

وورد في حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء» أسنده البغوي عن سهل بن سعد رضي الله عنه، ورواه الطبراني [1].

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى ﷺ من نسائه، فرآه على رمال حصير قد أثَّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه! وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، وقال: «أو في شكٍ أنت، يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ: «أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟».

وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها.

---

(١) ورواه الترمذي (٢٤٣٦). وكذا ابن ماجة (٤١١٠) بزيادة.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

٣٦- يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد ههنا: عشا البصيرة ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ الآية، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وكقوله جل جلاله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآية.

٣٧- ٣٨- ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى، نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم، فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة، يتبرأ من الشيطان الذي وكِّل به ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾. وقرأ بعضهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا﴾ يعني: القرين والمقارن. روى عبد الرزاق: عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة، شفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.

والمراد بالمشرقين ههنا: هو ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعمل ههنا تغليباً، كما يقال: القمران والعمران والأبوان. قاله ابن جرير وغيره.

٣٩- ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار، واشتراككم في العذاب الأليم.

٤٠- وقوله جلت عظمته: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك.

٤١- ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحكَّمه في نواصيهم، وملَّكه ما تضمنته صياصيهم، هذا معنى قول السدي، واختاره ابن جرير. وروى ابن جرير: عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾

فقال ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة، ولم ير الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم ﷺ. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً.

وفي الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون».

٤٣- ثم قال عز وجل: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق، المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

٤٤- ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل معناه: لشرف لك ولقومك. قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه.

وأورد الترمذي ههنا: حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحدٌ إلا أكبَّه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين» رواه البخاري.

ومعناه: أنه شرف لهم، من حيث أنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم، من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم، وقيل معناه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

٤٥- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (وَاسْئَلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا) وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي وابن مسعود رضي الله عنه، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جُمعوا له، واختار ابن جرير الأول، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾

٤٦، ٤٧- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه، من الأمراء والوزراء، والقادة والأتباع، والرعايا من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً، كيده وعصاه، وما أرسل معه من

الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذَّبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها.

٤٨- ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم.

٤٩- وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات، يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام، ويتلطفون له في العبارة بقولهم ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ أي: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه، لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيمٌ في زعمهم.

٥٠- ففي كل مرة يَعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا، أن يؤمنوا به، ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ ❁ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ❁ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ (٥٦)﴾

٥١- يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه، وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم، متبجحاً مفتخراً بملك مصر، وتصرفه فيها ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ❁ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ❁ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾.

٥٢- وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدي: يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة إن «أم» ههنا بمعنى بل، ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها ﴿أَمَا أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة، لكان معناها صحيحاً واضحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤا ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ على الاستفهام **(قلت)**: وعلى كل تقدير، فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك: أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة والسدي: يعني ضعيف، وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني لا

يكاد يفصح عن كلامه، فهو غبي حصر. قال السدي ﴿لاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة والسدي وابن جرير: يعني: عي اللسان. وقال سفيان: يعني: في لسانه شيء من الجمرة، حين وضعها في فمه وهو صغير.

وهذا قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى عليه السلام بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء، في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب، وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خِلقَةً وخُلقاً وديناً، وموسى هو الشريف الرئيس، الصادق البار الراشد، وقوله: ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه، ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك، في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد، لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل، فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء.

٥٣- وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ وهي ما يُجعل في الأيدي من الحلي، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وغير واحد ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يكتنفونه خدمة له، ويشهدون بتصديقه نظراً إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يفهم.

٥٤- ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾.

٥٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿آسَفُونَا﴾ أسخطونا. وقال الضحاك: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين.

وروى ابن أبي حاتم: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله تبارك وتعالى يُعطي العبد ما يشاء، وهو مقيمٌ على معاصيه، فإنما ذلك استدراجٌ منه له» ثم تلا ﷺ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة، يعني قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٥٦- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ قال أبو مجلز: سلفاً لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد ﴿وَمَثَلاً﴾: أي: عبرة لمن بعدهم. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ

نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)﴾

٥٧- يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم، وتعمدهم العناد والجدل ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك: يضحكون، أي: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون. وكأن السبب في ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لقد علمتُ آية من القرآن ما سألني عنها رجلٌ قط، ولا أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها؟ قال: ثم طَفِقَ يحدثنا فلما قام تلاومنا أن لا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرتَ أمس أن آية من القرآن، لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها، قال رضي الله عنه: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحدٌ يعبد من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أن النصارى تعبدُ عيسى ابن مريم عليه السلام، وما تقول في محمد ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألستَ تزعم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنتَ صادقاً، فإن آلهتهم لكما تقولون، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة. وروى ابن أبي حاتم نحوه.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده، كما عبد قوم عيسى عيسى عليه السلام، ونحو هذا قال قتادة.

٥٨- وقوله: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة يقولون: آلهتنا خير منه، وقال قتادة: قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا) يعنون محمداً ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية، لأنها لما لا يعقل، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم، ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضَلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه، إلا أُورِثُوا الجَدل» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ وقد رواه الترمذي وابن ماجة وابن جرير.

٥٩- وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى عليه الصلاة والسلام، ما هو إلا عبدٌ من

عباد الله عز وجل، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء.

٦٠- وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أي: بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ قال السدي: يخلفونكم فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضكم بعضاً. وهذا القول يستلزم الأول، وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

٦١- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ تقدم تفسير ابن إسحاق، أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام، وفي هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبير أن الضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ عائد على القرآن.

بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة. قال مجاهد ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: آية للساعة، خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكوا فيها إنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: يعني: من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم ردَّ قول من زعم أن ﴿بَعْضَ﴾ ههنا بمعنى «كل» واستشهد بقول لبيد الشاعر:

تَرَّاكُ أمْكنةٍ إذا لم أرضَها ... أو يعْتَلِق بعضَ النفوسِ حِمامها

وأوّلوه على أنه أراد جميع النفوس، قاله ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها. وهذا الذي قاله محتمل. وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما جئتكم به.

٦٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: أنا وأنتم عبيدٌ له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده.

٦٥- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت الفرق، وصاروا شيعاً فيه منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله، وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

٦٦- يقول تعالى، هل ينتظر هؤلاء المشركون، المكذبون للرسل ﴿إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم، ولا يدفع عنهم.

٦٧- وقوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه.

وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة: صارت كلُّ خلة عدواة يوم القيامة، إلا المتقين.

٦٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

٦٩- ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحدٌ منهم إلا فزع، فينادي منادٍ ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم قال فيتبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين.

٧٠- ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي: يُقال لهم ادخلوا الجنة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تتنعمون وتعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم.

٧١- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: زبادي آنية الطعام ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي آنية الشراب، أي: منْ ذهب، لا خراطيم لها ولا عرى (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنفُسُ) وقرأ بعضهم: ﴿تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾.

﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أي: طيب الطعم والريح، وحسن المنظر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أي: لا تخرجون منها، ولا تبغون عنها حولاً.

٧٢- ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أهل النار يَرى منزله من الجنة حسرة، فيقول ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وكلُّ أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ فيكون له شكراً».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ إلا وله منزلٌ في الجنة، ومنزل في النار، فالكافرُ يرثُ المؤمنَ منزله

من النار، والمؤمنُ يرث الكافرَ منزله من الجنة» وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الأنواع ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة، لتتم النعمة والغبطة، والله تعالى أعلم.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾

٧٤، ٧٥- لما ذكر تعالى حال السعداء، ثنّى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۞ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير.

٧٦- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بأعمالهم السيئة، بعد قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجُوزوا بذلك جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

٧٧- ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو خازن النار، روى البخاري: عن صفوان بن يعلى عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ وقال عز وجل: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فلما سألوا أن يموتوا، أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها، ولا محيد لكم عنها.

٧٨- ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بيناه لكم ووضّحناه وفسرناه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله، ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، وأندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

٧٩- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شرهم فكدناهم. وهذا الذي قاله مجاهد، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل، بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى، وردّ وبال ذلك عليهم.

٨٠- ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: سرهم وعلانيتهم ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي

السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

٨١- يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: لو فُرض هذا لعبدته على ذلك، لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء من عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع، ولا الجواز أيضاً، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الآنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الجاحدين، من عبد يعبد. وهذا القول فيه نظر! لأنه كيف يلتئم مع الشرط، فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل.

اللهم إلا أن يقال: أن «إن» ليست شرطاً وإنما هي نافية، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: أول من عبده ووحده وكذبكم، وقال البخاري: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الآنفين، وهما لغتان، رجل عابد وعبد.

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع، وقال السدي ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد، كنتُ أول من عبده بأن له ولد، ولكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية.

٨٢- ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء، عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له، ولا كفء له، فلا ولد له.

٨٣- وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون، كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم؟

٨٤- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: هو المدعو «الله» في السموات والأرض.

٨٥- ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالقهما ومالكهما، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك أي: استقر له السلامة من العيوب والنقائص، لأنه الربُّ العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

٨٦- ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

٨٧- ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك. ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة، وسخافة العقل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

٨٨- وقوله جل وعلا: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وقال محمدﷺ قيله، أي: شكى إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ وهذا الذي قلناه، هو قول ابن مسعودﷺ، ومجاهد وقتادة، وعليه فسر ابن جرير، قال البخاري: وقرأ عبد الله يعني ابن مسعودﷺ، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فأبرَّ الله عز وجل قول محمدﷺ. وقال قتادة: هو قول نبيكمﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل.

ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ قراءتين إحداهما: النصب، ولها توجيهان: أحدهما: أنه معطوف على قوله تبارك وتعالى: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾. والثاني: أن يقدر فعل، وقال: قيله. والثانية: الخفض، وقيله عطفاً على قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ تقديره: وعلم قيله.

٨٩- وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿وَقُلْ سَلاَمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم، فعلاً وقولاً ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحلَّ بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الزخرف

****

ترتيبها ٤٤ سورة الدخان ـ مكية آياتها ٥٩

في مسند البزار: من رواية زيد بن حارثة: أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني قد خبَّأت خبأً فما هو» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدخ، فقال: «اخسأ، ما شاء الله كان» ثم انصرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾

١ - ٣- يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم، أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان! كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

٤- وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السَّنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف. وقوله جل وعلا: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم لا يبدل ولا يغير.

٥- ولهذا قال جل جلاله: ﴿أَمْراً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى، وما يوحيه، فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: إلى الناس رسولاً، يتلو عليهم آيات الله مبينات فإن الحاجة كانت ماسة إليه.

٦، ٧- ولهذا قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي أنزل القرآن، هو رب السموات والأرض، وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم متحققين.

٨- ثم قال تعالى: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الآية.

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

٩- يقول تعالى، بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم الحق اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به.

١٠- ثم قال عز وجل متوعداً لهم ومهدداً ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. عن مسروق قال: دخلنا - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كندة فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعودﷺ، فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقعد، وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكمﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: اللهُ أعلم، سأحدثكم عن ذلك: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول اللهﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية: فجعل الرجلُ ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۞ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فأتي رسول اللهﷺ فقيل له: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت، فاستسقىﷺ فسقوا، فنزلت: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعودﷺ: فيكشفُ عنهم العذاب يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قال: يعني: يوم بدر. قال ابن مسعودﷺ: فقد مضى خمسة: الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة، وقد وافق ابن مسعودﷺ على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعةٌ من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة ابن أسيد بن أسيد الغفاريﷺ قال: أشرف علينا رسول اللهﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقالﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونارٌ تخرج من قعر عدن، تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتَقيل معهم حيث قالوا» تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خبأت لك خبأ» قال: هو الدُّخ فقال ﷺ له: «اخسأ فلن تعدو قدرك» قال: وخبأ له رسول الله ﷺ ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يقرظون العبارة، ولهذا قال هو الدخ، يعني: هو الدخان، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته، وأنها شيطانية، فقال ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

ثم روى ابن جرير: عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت، وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما، حَبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة، على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسَّر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم، من شدة الجوع والجهد.

١١- وهكذا قوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويعميهم، ولو كان خالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

١٢- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه، سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكذا قوله جل وعلا: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

١٣، ١٤- وهكذا قال جل وعلا ههنا: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه، وما وافقوه بل كذبوه، وقالوا ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وهذا كقوله جلت عظمته: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ الآية، وكقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إلى آخر السورة.

١٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب، ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلاً، بعد

انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ولم يكن العذاب باشرهم، واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام، أنه قال لقومه حين قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۞ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾ وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: إنكم عائذون إلى عذاب الله.

١٦- وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه: بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة عنه، على تفسير الدخان بما تقدم. وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي عنه، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو محتمل والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

وروى ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عنه. وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين عنه، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾

١٧- يقول تعالى ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين، قوم فرعون، وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني موسى كليمه عليه الصلاة والسلام.

١٨- ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ وقوله جل وعلا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما أبلغكموه.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَأَن لاَ تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه، والإيمان ببراهينه، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿إِنِّي آتِيكُم

﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات، والأدلة القاطعات.

٢٠- **﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم، وقال قتادة: الرجم بالحجارة. أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم، من أن تصلوا إليَّ بسوء من قول أو فعل.

٢١- **﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾** أي: فلا تتعرضوا لي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة، إلى أن يقضي الله بيننا، فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم، وأقام حجج الله تعالى عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، ودعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك وتعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾** - إلى قوله - **﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾**.

٢٢- وهكذا قال ههنا: **﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾** فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم، من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه.

٢٣- ولهذا قال جل جلاله: **﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾** كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾**.

٢٤- وقوله عز وجل ههنا: **﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾** وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه، حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً، وبشَّره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. قال ابن عباس رضي الله عنهما **﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾** كهيئته وامضه.

وقال مجاهد **﴿رَهْواً﴾**: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد.

٢٥، ٢٦- ثم قال تعالى: **﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾** وهي: البساتين **﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ﴾** والمراد بها الأنهار والآبار **﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾** وهي المساكن الأنيقة، والأماكن الحسنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير **﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾** المنابر.

٢٧- **﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾** أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية، وتلك الحواصل الفرعونية، والممالك القبطية، بنو إسرائيل.

٢٨- كما قال تبارك وتعالى: **﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾**، وقال في الآية الأخرى: **﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾** وقال عز وجل ههنا: **﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾** وهم بنو إسرائيل كما تقدم.

٢٩- وقوله سبحانه وتعالى: **﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾** أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي على فقدهم، ولا هم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن

لا يُنظروا ولا يؤخروا، لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم. عن سعيد بن جبير قال: أتى ابن عباس رضي الله عنهما رجل فقال: يا أبا العباس، أرأيت قول الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال رضي الله عنه: نعم، إنه ليس أحدٌ من الخلائق، إلا وله بابٌ في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، ففقده بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله عز وجل فيها، بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض. وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا.

وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبدٍ كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبدٍ كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل.

وقال قتادة: كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكي عليهم السماء والأرض.

وذكروا في مقتل الحسين رضي الله عنه، أنه ما قُلب حجرٌ يومئذ إلا وجد تحته دمٌ عبيط! وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق، وسقطت حجارة! وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سخف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر، ولا شك أنه عظيم ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه، ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك، وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة، يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه، ويوم مات إبراهيم بن النبي ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: خسفت لموت إبراهيم فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف وخطبهم، وبيَّن لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته.

٣٠، ٣١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۞ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه، من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة. وقوله تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً﴾ أي: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾، وقوله جلت عظمته: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ من المسرفين، أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه.

٣٢- وقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال مجاهد ﴿اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أهل زمانه ذلك، كقوله عز وجل لمريم عليها السلام ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانها، فإن خديجة رضي الله عنها إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام.

٣٣- وقوله جل جلاله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ﴾ أي: الحجج والبراهين، وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي: اختبار ظاهر جلي، لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)﴾

٣٤، ٣٥- يقول تعالى منكراً على المشركين، في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين، الذين ذهبوا فلم يرجعوا.

٣٦- فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً.

٣٧- ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حلَّ بأشباههم ونظرائهم، من المشركين المنكرين للبعث، كقوم تبع وهم سبأ، حيث أهلكهم الله عز وجل، وخرب بلادهم وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد، وكذلك ههنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه: تُبعاً، كما يقال كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس.

ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن، وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه، وهو الذي مصَّر الحيرة، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية، وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يقرونه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم واستصحب معه حبرين من أحبار اليهود، كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة، فنهياه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناء إبراهيم الخليل ﷺ، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر، ثم كرَّ راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام، فتهود معه عامة أهل اليمن.

وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة، وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا ومما لم نذكر، وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «ما أدري الحدود طهارةٌ لأهلها أم لا؟ ولا أدري أتبع كان لعيناً أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً - وقال غيره: عزير أكان نبياً أم لا» وكذا رواه ابن أبي حاتم.

ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم، على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان، على الحق، قبل بعثة

المسيح عليه السلام، وحج البيت في زمن الجرهميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر، ونحر عنده ستة آلاف بدنة، وعظمه وأكرمه، ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة، مطولة مبسوطة عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكعب الأحبار، وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم، وكذا روى قصته وهب بن منبه، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تبع هذا، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تبعاً هذا المشار إليه في القرآن، أسلم قومه على يديه، ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام، فعاقبهم الله تعالى، كما ذكره في سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمد والمنة. وروى ابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تبعاً، فإنه قد كان أسلم» رواه الإمام أحمد والطبراني.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)﴾

٣٨، ٣٩- يقول تعالى مخبراً عن عدله، وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله جل وعلا: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾** وقال تعالى: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾**.

٤٠- ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** وهو يوم القيامة، يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين. وقوله عز وجل: **﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: يجمعهم كلهم، أولهم وآخرهم.

٤١- **﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلاً عَن مَّوْلاً شَيْئاً﴾** أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله سبحانه وتعالى: **﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾** وكقوله جلت عظمته: **﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ۞ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾** أي: لا يسأل أخا له عن حاله، وهو يراه عياناً. وقوله جل وعلا: **﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾** أي: لاينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

٤٢- ثم قال: **﴿إِلاَّ مَن رَحِمَ اللهُ﴾** أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾

٤٣، ٤٤- يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه **﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾** والأثيم أي: في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن

ليست خاصة به. روى ابن جرير: عن همام بن الحارث: أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ طعام الفاجر.

أي: ليس له طعام من غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها إلى الأرض، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

٤٥، ٤٦- وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي: من حرارتها ورداءتها.

٤٧- وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: خذوه، ، ابتدروه سبعون ألفاً منهم، وقوله: ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: سوقوه سحباً، ودفعاً في ظهره، قال مجاهد ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: خذوه فادفعوه ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وسطها.

٤٨- ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ وقد تقدم أن المَلَك يضربه بمقمعة من حديد، فتفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتى تمرق من كعبيه، أعاذنا الله تعالى من ذلك.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: قولوا له ذلك، على وجه التهكم والتوبيخ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لست بعزيز ولا كريم.

٥٠- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾

٥١- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر السعداء، ولهذا سمي القرآن مثاني، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لله في الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: في الآخرة، وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع، وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب.

٥٢- ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه، من شجرة الزقوم، وشرب الحميم.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ وهو رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي: على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

٥٤- وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات، الحور العين الحسان، اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿هَلْ جَزَاءُ

﴿الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾.

٥٥- وقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

٥٦- وقوله: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ في صورة كبشٍ أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يُذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت» وقد تقدم الحديث في سورة مريم عليها الصلاة والسلام.

وروى عبد الرزاق: عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إنَّ لكم أنْ تصحُّوا فلا تسْقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً» رواه مسلم.

وروى أبو بكر بن أبي داود السجستاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، يَنعم فيها ولا ييأس، ويحيا فيها ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

وروى أبو القاسم الطبراني: عن جابر رضي الله عنه قال: سُئل نبي الله ﷺ أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون» وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم، قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم، في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب.

٥٧- ولهذا قال عز وجل: ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: إنما كان هذا بفضله عليهم، وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أنَّ أحداً لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

٥٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما يسرنا هذا القرآن، الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً، بلسانك الذي هو أفصح اللغات، وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون.

٥٩- ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان، من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له، وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن تكون النصرة، والظفر وعلو الكلمة، في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد، ولإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ۞ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

آخر تفسير سورة الدخان

****

ترتيبها ٤٥ سورة الجاثية ـ مكية آياتها ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين (٣) وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥) ﴾

١ - ٥ - يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة، لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله عز وجل: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أي: جنوباً وشمالاً ودبوراً وصبا، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج.

وقال سبحانه وتعالى أولاً: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم يوقنون، ثم يعقلون، وهو ترق من حال شريف، إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون (٦) ويل لكل أفاك أثيم (٧) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم (٨) وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين (٩) من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم (١٠) هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم (١١) ﴾

٦ - يقول تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن، بما فيه من الحجج والبينات ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟

٧- ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: أفاك في قوله، كذاب، حلاف مهين، أثيم في فعله وقلبه، كافر بآيات الله.

٨- ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده، استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة، عذاباً أليماً موجعاً.

٩- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً﴾ أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به، واتخذه سخرياً وهزواً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن، واستهزأ به، ولهذا روى مسلم في صحيحه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافةَ أن يناله العدو.

١٠- ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده، فقال: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كل من اتصف بذلك، سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١١- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعني: القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو المؤلم الموجع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

١٢- يذكر تعالى نعمه على عبيده، فيما سخَّر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ وهي: السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم، من الأقاليم النائية، والآفاق القاصية.

١٣- ثم قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال: ﴿جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٤- وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ أي: ليصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة، وقال مجاهد ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ لا ينالون نعم الله تعالى، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيئة في

الآخرة.

١٥- ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾

١٦- يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل، من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم.

١٨- ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحي إليك من ربك، لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال جل جلاله ههنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٩- ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً، ودماراً وهلاكاً ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

٢٠- ثم قال عز وجل: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾

٢١- يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا، أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار

الآخرة، وفي هذه الدار.

روى الحافظ أبو يعلى: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يُجتنى مِن الشَّوك العِنب، كذلك لا ينال الفجارُ منازلَ الأبرار» هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد روى الطبراني: عن مسروق: أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح، يردد هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٢٢- وقال عز وجل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٢٣- ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين. وعن مالك فيما روي عنه من التفسير: لا يهوى شيئاً إلا عبده. وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدى به، ولا يرى حجة يستضيء بها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾

٢٤- يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب، المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة، والإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة، يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحب الصحيح وأبو داود والنسائي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقلِّب ليله ونهاره».

وفي رواية «لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر».

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»:

كانت العرب في جاهليتها، إذا أصابهم شدةٌ أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية، في عدِّهم «الدهر» من الأسماء الحسنى، أخذاً من هذا الحديث.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: إذا استدل عليهم، وبيِّن لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان، بعد فنائها وتفرقها ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً.

٢٦- قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: الذي قدَر على البداءة، قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: إنما يجمعكم إلى يوم القيامة، لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ❁ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ❁ وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾

٢٧- يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله، الجاحدون بما أنزله على رسله، من الآيات البينات، والدلائل الواضحات.

٢٨- ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على رُكَبها من الشدة والعظمة. ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم، فإنها تزفر زفرة، لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل عليه السلام، ويقول: نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى أن عيسى عليه السلام ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني. قال مجاهد وكعب الأحبار والحسن البصري ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على الركب.

وقال عكرمة: جاثية متميزة على ناحيتها، وليس على الركب. والأول أولى.

وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها، كقوله جل جلاله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله عز وجل: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ❁ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ❁﴾

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ .

٢٩- ولهذا قال جلت عظمته : ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي : يستحضر جميع أعمالكم ، من غير زيادة ولا نقص ، كقوله جل جلاله : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : إنا كنا نأمر الحفظة ، أن تكتب أعمالكم عليكم . قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال ، على ما بأيدي الكتبة ، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القدم على العباد ، قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ، ثم قرأ : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ
لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً
وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾

٣٠- يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي : آمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة ، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهي : الجنة ، كما ثبت في الصحيح : «أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»[1] .

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي : البين الواضح .

٣١- ثم قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً : أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها ، وأعرضتم عن سماعها ، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم ، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب .

٣٢- ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ أي : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي : لا نعرفها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً﴾ أي : إن نتوهم وقوعها إلا توهما ، أي : مرجوحاً ، ولهذا قال : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي : بمتحققين ، قال الله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي : وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي : أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي : من العذاب والنكال .

٣٤- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي : نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٥٩٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤/ ٢١٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأوله : «تحاجت الجنة والنار . . .» .

هَٰذَا﴾ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به **﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾**.

وقد ثبت في الصحيح: أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوِّجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخِّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني».

٣٥- قال الله تعالى: **﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾** أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء، لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً، تسخرون وتستهزئون بها **﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين.

ولهذا قال عز وجل: **﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾** أي: من النار **﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾** أي: يطلب منهم العتبى، بل يعذَّبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة، بغير عذاب ولا حساب.

٣٦- ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين، قال: **﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي: المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال: **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

٣٧- ثم قال جل وعلا: **﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** قال مجاهد: يعني: السلطان. أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه.

وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمةُ إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما، أسكنته ناري» رواه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ بنحوه.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** أي: الذي لا يغالب ولا يمانع **﴿الْحَكِيمُ﴾** في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة الجاثية

****

ترتيبها ٤٦ سورة الأحقاف ـ مكية آياتها ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تنزيلُ الْكتاب من الله الْعزيز الْحكيم (٢) ما خلقْنا السّموات والأرْض وما بيْنهما إلاّ بالْحقّ وأجل مُّسمًّى والّذين كفروا عمّا أُنذرُوا مُعْرضُون (٣) قُلْ أرأيْتُم مّا تدْعُون من دُون الله أرُوني ماذا خلقُوا من الأرْض أمْ لهُمْ شرْكٌ في السّموات ائْتُوني بكتاب مّن قبْل هذا أوْ أثارة مّنْ علْم إن كُنتُمْ صادقين (٤) ومنْ أضلُّ ممّن يدْعُو من دُون الله من لاّ يسْتجيبُ لهُ إلىٰ يوْم الْقيامة وهُمْ عن دُعائهمْ غافلُون (٥) وإذا حُشر النّاسُ كانُوا لهُمْ أعْداءً وكانُوا بعبادتهمْ كافرين (٦) ﴾

١ ، ٢- يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال.

٣- ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وإلى مدة معينة مضروبة، لا تزيد ولا تنقص. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً، وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غب ذلك.

٤- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين، العابدين مع الله غيره ﴿أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إنْ الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟! من أرشدكم إلى هذا؟ من دعائكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بيّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم، لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، ولهذا قرأ آخرون: ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح تؤثرون عن أحد ممن قبلكم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو أحد يأثر علماً، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أو بينة من الأمر.

روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: عن النبيﷺ: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال: «الخط».

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: أو أثارة شيء يستخرجه فيثيره.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه وأحسن مثواه.

٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن

﴿دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي: لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجارة صم.

٦- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾

٧- يقول عز وجل مخبراً عن المشركين، في كفرهم وعنادهم، أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا.

٨- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون محمداً ﷺ. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه، وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك، لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحدٌ من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۞ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله، إن رجعتم وتبتم تاب عليكم، وعفا عنكم، وغفر ورحم، وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٩- وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له، حتى تستنكروني وتستبعدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ما أنا بأول رسول، ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما في هذه الآية: نزل بعدها: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: ولما نزلت هذه الآية، قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله تعالى ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح: أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا؟ وقال أبوبكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال: أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: «لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة، هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره، وأمر مشركي قريش، إلى ماذا؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أم العلاء - وهي امرأة من نسائهم - أخبرته وكانت بايعت رسول الله ﷺ، قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، عثمان بن مظعون رضي الله عنه، فاشتكى عثمان رضي الله عنه عندنا فمرّضناه، حتى إذا توفى أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله تعالى أكرمه؟» فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فقلت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله» فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم.

وفي لفظ له: «ما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به» وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزنني ذلك» وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: إنما أتبع ما ينزله الله عليَّ من الوحي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيّن النذارة، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل، والله أعلم.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾

١٠- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: أرأيتم إن كان هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم، إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به، قد أنزله عليَّ لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهد بصدقه وصحته، الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله عز وجل: ﴿فَآمَنَ﴾ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه، وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس، يعم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وهذه كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ قال مسروق والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم واختاره ابن جرير.

وروى مالك: عن عامر بن سعد عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض، إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف والسدي والثوري ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن، لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون: بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً، رضي الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة، وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، وأخطأوا خطأ بيناً، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾.

وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير، إلا وقد بادروا إليها. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: كذب قديم، أي: مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بَطر الحق، وغَمْط الناس».

١٢- ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو: التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى

﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين.

١٣- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا.

١٤- ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم، وسبوغها عليهم، والله أعلم.

﴿ ووَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾

١٥- لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال جل جلاله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال عز وجل ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: أمرناه بالإحسان إليهما، والحنو عليهما.

وروى أبو داود الطيالسي: عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ الآية، ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجة بإسناد نحوه وأطول منه.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وحم وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضاً، من الطلق وشدته ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم[1].

روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر، كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

(١) أورد ابن كثير الرواية عن عثمان وفيها: بَعْجة بن عبد الله الجهني، ذكره ابن أبي حاتم في كتابه (٢/ ٤٣٧) ولم يحك فيه شيئاً.
وفي الدر المنثور (١٣/ ٣٢٣) ط هجر، ومصنف عبد الرزاق (١٣٤٤٤) رواية أخرى عن عمر وعلي رضي الله عنهما، وإسنادها صحيح.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين. عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بلغت الأربعين، فخذ حذرك. وقد قال الحجاج بن عبد الله الحليمي - أحد أمراء بني أمية بدمشق -: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياءً من الناس، ثم تركتها حياءً من الله عز وجل. وما أحسن قول الشاعر:

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه فلما علاهُ قال للباطل: ابعد

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ أي: في المستقبل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: نسلي وعقبي ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشادٌ لمن بلغ الأربعين، أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، ويعزم عليها.

١٦ - قال الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل، من أصحاب الجنة، أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب. ولهذا قال تعالى: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

روى ابن أبي حاتم: عن يوسف بن سعد عن محمد بن حاطب قال - ونزل في داري حيث ظهر علي رضي الله عنه على أهل البصرة - فقال لي يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه، وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد ابن أبي بكر رضي الله عنهم، فذكروا عثمان رضي الله عنه فنالوا منه، فكان علي رضي الله عنه على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال علي رضي الله عنه: كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان، وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثاً. قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه؟ قال: آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه.

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾

١٧ - لما ذكر تعالى حال الداعين، البارين بهما، وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء، العاقين للوالدين، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم

بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه، وإنما هذا عام كل من عق والديه، وكذب بالحق، فقال لوالديه: أف لكما عقهما.

وقد روى البخاري: عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله عز وجل فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله تعالى أنزل عذري.

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أبعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي: قد مضى الناس، فلم يرجع منهم مخبر ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي: يسألان الله فيه أن يهديه، ويقولان لولدهما ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٨- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه، من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

١٩- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل عذاب بحسب عمله ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالاً، ودرجات الجنة تذهب علواً.

وقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم، وبخهم وقرعهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي، والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله.

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾

٢١- يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، في تكذيب من كذَّبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه السلام، بعثه الله عز وجل إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حقف وهو: الجبل من الرمل قاله ابن زيد، وقال عكرمة الأحقاف الجبل والغار، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الأحقاف» واد بحضرموت يدعى «بُرهوت» تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر، بأرض يقال لها: الشّحر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين، كقوله عز وجل: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ وكقوله جل وعلا ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: قال لهم هود ذلك.

٢٢- فأجابه قومه قائلين ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: لتصدنا عن آلهتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله جلت عظمته ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾.

٢٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ﴾ أي: الله أعلم بكم، إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

٢٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارضُ مطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا محلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو العذاب الذي قلتم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

٢٥- ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء البالي. ولهذا قال عز وجل ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذَّب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث في قصتهم، وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده: رواه الإمام أحمد(١).

وروى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: مارأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم، وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قومٌ بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا: هذا عارض ممطرنا» وأخرجاه.

(طريق أخرى): روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء، ترك عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «اللهم إني أعوذبك من شر ما فيه، فإن

---

(١) المسند (٣/ ٤٨٢) وقد مضى ذكره في تفسير الأعراف (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥) وإسناده حسن، فراجعه إن شئت.

كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل، وإن أمطرت قال: «اللهم صيِّباً نافعاً».

(طريق أخرى): روى مسلم في صحيحه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح، قال: «اللهم إني أسألك خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّي عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها فسألته: فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قومُ عاد **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**».

وقد ذكرنا قصة هلاك «قوم عاد» في سورة الأعراف وهود، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله تعالى الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

٢٦- يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا، من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة **﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به، ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

٢٧- وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾** يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله عز وجل: **﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾** أي: بيناها وأوضحناها **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**.

٢٨- **﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً﴾** أي: فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم؟ **﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾** أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم **﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾** أي: كذبهم **﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾

٢٩- روى الإمام أحمد: عن الزبير ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال: بنخلة ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال سفيان ألبد بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض. تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير: عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نصيبين.

وروى الإمام أحمد والإمام الشهير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة». عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق «عكاظ» وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشُّهُب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب! قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة، إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن، رواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده، إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبثّ جنوده فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض، ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما.

وهكذا قال الحسن البصري: إنه ﷺ ما شعر بأمرهم، حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، كما ستأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار، مما سنوردها ههنا إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً: عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً: مَنْ آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود رضي الله عنه -: أنه آذنته بهم شجرة. فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون في المرة الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم، حتى آذنته بهم الشجرة، أي: أعلمته باجتماعهم، والله أعلم. ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما، إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليه القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(ذكر الروايات عنه بذلك)

روى الإمام أحمد: عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحدٌ؟ فقال: ما صاحبه منا أحدٌ، ولكنّا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح - أو قال: في السحر - إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا له الذي كانوا فيه، فقال: «إنه أتاني داعي الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم» قال: فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، قال: وقال الشعبي سألوه الزاد، قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظمٍ ذُكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بَعْرة أو روثة عَلَف لدوابكم، قال: فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن» وهكذا رواه مسلم في صحيحه.

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل، وشرع الله تعالى لهم على لسانه، ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن، لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه، كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه.

وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته الجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيداً منه، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحدٌ سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقي. وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد وهي عند مسلم، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى - والله أعلم - كما روى ابن أبي حاتم في تفسير ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من حديث ابن جريج قال: قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين. وتأوله البيهقي على أنه يقول: «فبتنا بشر ليلة بات بها قوم» على غير ابن مسعود رضي الله عنه، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن سعيد بن عمرو قال: كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوماً فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة، قال ﷺ: «ائتني بأحجار أستنج بها، ولا تأتني بعظم ولا روثة» فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه، حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثة؟ قال ﷺ: «أتاني وفد جن نصيبين، فسألوني الزاد، فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم، إلا وجدوه طعاماً» أخرجه البخاري في صحيحه بإسناده قريباً منه، فهذا يدل - مع ما تقدم - على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر إن شاء الله تعالى ما يدل على تكرار ذلك. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا تسعة أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة.

ومما يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط: إني لأظنه هكذا، إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذْ مر به

رجلٌ جميل، فقال: لقد أخطأ ظني أو أنَّ هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليَّ بالرجل، فدُعي له فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجلٌ مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنتُ كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنّيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت:

ألم تر الجنَّ وإبلاسَها ويأسها من بعد إنكاسها ولحُوقها بالقلاص وأَحلاسها

قال عمر رضي الله عنه: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذْ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمرٌ نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، قال: فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح، أمرٌ نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، فقمت، فما نشبنا أن قيل هذا نبي. هذا سياق البخاري.

وقد رواه البيهقي بنحوه: ثم قال: وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذُبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي الله عنه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم. وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد ابن قارب، وقد ذكرتُ هذا مستقصى في سيرة عمر رضي الله عنه، فمن أراده فليأخذه من ثم، ولله الحمد والمنة.

وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾** أي: طائفة من الجن **﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾** أي: استمعوا، وهذا أدب منهم. وقد روى الحافظ البيهقي: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتاً؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نُكذِّب، فلك الحمد» ورواه الترمذي في التفسير.

وقوله عز وجل: **﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾** أي: فرغ، كقوله تعالى: **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾** **﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾** **﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾**. **﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾** أي: رجعوا إلى قومهم، فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله جل وعلا: **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُر، وليس فيهم رسلٌ، ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً، كقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** وقال عز وجل: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾** وقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام: **﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾** فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم، فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾** فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: **﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾** أي: أحدهما.

٣٠- ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم، فقال مخبراً عنهم **﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾** ولم يذكروا عيسى، لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة، فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى، وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة، فقال: بخ بخ، هذا

الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني أكون فيها جذعاً .

﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، وقولهم ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي: في الاعتقاد والأخبار ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمال ، فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب ، فخبره صدق وطلبه عدل كما قال تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى : هو العلم النافع ، ودين الحق : هو العمل الصالح ، وهكذا قالت الجن ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في العمليات .

٣١- ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ، ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال : ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ وقوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل : إن «من» ههنا زائدة ، وفيه نظر! لأن زيادتها في الإثبات قليل ، وقيل : إنها على بابها للتبعيض ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ويقيكم من عذابه الأليم .

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ! وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . ولهذا قالوا هذا في هذا المقام ، وهو مقام تبجح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه . والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس ، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد ، فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم . وأيضاً : فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأحرى .

ومما يدل أيضاً على ذلك : عموم قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ وما أشبه ذلك من الآيات . وقد أفردت هذه المسئلة في جزء على حدة ، ولله الحمد والمنة .

وهذه الجنة لا يزال فيها فضل ، حتى ينشئ الله تعالى لها خلقاً ، أفلا يسكنها من آمن به وعمل صالحاً!! وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم .

وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه : ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة ، فكذلك هؤلاء .

٣٢ - ثم قال مخبراً عنهم : ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : بل قدرة الله شاملة له ، ومحيطة به ﴿وَلَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي : لا يجيرهم منه أحد ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب ، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم ، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً

وفوداً، كما تقدم بيانه، ولله الحمد والمنة، والله أعلم.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

٣٣- يقول تعالى: أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد، أن الله الذي خلق السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: ولم يكرثه خلقهن، بل قال لها: كوني، فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة، خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣٤- ثم قال جل جلاله مهدداً ومتوعداً من كفر به ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٣٥- ثم قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ على تكذيب من كذَّبه من قومه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، فتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله من الرسل لبيان الجنس، والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

وقوله جل وعلا: ﴿بَلَاغٌ﴾ قال ابن جرير: يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله عز وجل، أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأحقاف

****

ترتيبها ٤٧ — سورة محمد ـ مدنية — آياتها ٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾

١- يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

٢- ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم، وبواطنهم وظواهرهم ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال جل جلاله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب.

وقد جاء في حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله ويصلح بالكم».

٣- ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤنهم، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾

٤- يقول تعالى مرشداً للمؤمنين، إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أهلكتموهم قتلاً ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب، وانفصال المعركة، مخيرون في

أمرهم، إنْ شئتم مَنَنتم عليهم فأطلقتم أُساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمالٍ تأخذونه منهم، وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ، ليأخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ، فقال: **﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**.

ثم قد ادعى بعض العلماء، أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه، منسوخة بقوله تعالى: **﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾** الآية، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج. وقال الآخرون - وهم الأكثرون -: ليست بمنسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال الآخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال إن تقتل تَقتل ذا دم، وإنْ تمنن تمنّ على شاكر، وإن كنتَ تُريد المال، فاسأل تعط منه ما شئت. وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته، أو استرقاقه أيضاً، وهذه المسألة محررة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام، ولله سبحانه وتعالى الحمد والمنة.

وقوله عز وجل: **﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾** قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، حتى يقاتل آخرهم الدجال».

وروى الإمام أحمد: عن جبير بن نفيل قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني سيَّبت الخيل، وألقيتُ السلاح، ووضعتِ الحربُ أوزارها، وقلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يُزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم، ويرزقهم الله منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. ألا أن عُقر دار المؤمنين الشامُ، والخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وهكذا رواه النسائي.

وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب. وقال قتادة **﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾**: حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾** ثم قال بعضهم **﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾** أي: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها، بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى.

وقوله عز وجل: **﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾** أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين، بعقوبة ونكال من عنده، **﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾** أي: ولكن شرع لكم الجهاد، وقتال الأعداء، ليختبركم وليبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة، في قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾** وقال تبارك وتعالى في سورة براءة **﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**.

ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها، بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده: عن المقدام بن معديكرب الكندي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ستَ خصال: أن يغفر له في أول دَفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلّى حلّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منهُ خيرٌ من الدنيا، وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه» وقد أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجة.

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء، إلا الدَّين» ورُوي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: أمرهم وحالهم.

٦- ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: عرَّفهم بها، وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً، وروى مالك عن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضاً: رواه البخاري: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار، حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يَتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا، أُذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده، إنَّ أحدَهم بمنزله في الجنة، أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

٧- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

٨- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين، الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ، وقد ثبت في الحديث: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعسَ عَبدُ الدِّينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبدُ القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيكَ فلا انتقش» أي: فلا شفاه الله عز وجل.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أحبطها وأبطلها.

٩- ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبونه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾

١٠ - يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني: المشركين المكذبين لرسوله ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

١١ - ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ ولهذا لما قال أبو سفيان صخر ابن حرب، رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبيﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطابرضي الله عنه. فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله تعالى لك ما يسوؤك، وإنَّ الذين عددت لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مُثْله لم آمر بها، ولم تسؤني ثم ذهب يرتجز ويقول ثم: اعل هُبل، اعل هُبل، فقال رسول اللهﷺ: «ألا تجيبوه؟» فقالوا يا رسول الله، وما نقول: قالﷺ: قولوا: «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول اللهﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

١٢ - ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ أي: في دنياهم يتمتعون بها، ويأكلون منها كأكل الأنعام خضماً وقضماً، وليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: يوم جزائهم.

١٣ - وقوله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني: مكة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول اللهﷺ وهو سيد الرسل، وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى، فإنه رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا، لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبيﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: فالتفت إلى مكة وقال: «أنتِ أحبُّ بلادِ الله إلى الله، وأنتِ أحبُّ بلادِ اللهِ إليَّ، ولولا أن المشركين أخرجوني، لم أخرجْ منك».

فأعدى الأعداء، من عدا على الله تعالى في حَرَمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نبيهﷺ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ

الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥)﴾

١٤- يقول تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: على بصيرة، ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ أي: ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

١٥- ثم قال عز وجل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: نعتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة: يعني: غير متغير. وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير منتن. والعرب تقول: أَسِنَ الماء، إذا تغير ريحه. روى ابن أبي حاتم: عن عبدالله رضي الله عنه قال: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح. وروى الإمام أحمد: عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بَحْرُ اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد» رواه الترمذي في صفة الجنة.

وفي الصحيح: إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنه أوسطُ الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وروى أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض؟! والله إنها لتجري سائحةً على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر. وقد رواه أبو بكر ابن مردويه مرفوعاً[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مع ذلك كله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة، كمن هو خالد في النار؟ لي هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات، كمن هو في الدركات ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حاراً، شديد الحر لا يستطاع ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء - عياذاً بالله تعالى من ذلك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)

---

(١) وقد صح مرفوعاً أيضاً، انظر الصحيحة (٢٥١٣).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾

١٦- يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

١٧- ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: والذين قصدوا الهداية، وفَّقهم الله تعالى لها، فهداهم إليها، وثبتهم عليها، وزادهم منها ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم.

١٨- وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: وهم غافلون عنها ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تبارك وتعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى ۝ أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقوله جل وعلا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل، الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يُؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة، وهو كما قال، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه: نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي.

وروى البخاري: عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا: بالوسطى والتي تليها «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكُر، إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك؟ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

١٩- وقوله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه: لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغْفرْ لِي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي».

وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمتُ وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وروى الإمام أحمد: عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سَرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلتُ معه من طعامه، فقلت: غفرَ الله لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «ولكَ»، فقلت: أستغفرَ لك؟ فقال:

«نعم، ولكم» وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم نظرت إلى نغض كتفه الأيمن - أو كتفه الأيسر، شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجمع[1] عليه الثآليل. ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم.

وفي الأثر المروي «قال إبليس: وعزتك وجلالك، لا أزال أُغويهم ما دامت أرواحُهم في أجسادهم»، فقال الله عز وجل: «وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[2].

والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين، أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

وقال عز وجل ههنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتملة على حكم القتال، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء.

٢١- ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم، أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٢٢- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام.

---

(١) أي: كجمع الكف، أي: صورتها بعد أن تجمع الأصابع وتضمها.

(٢) حديث حسن، رواه أحمد (٣/ ٢٩) وأبو يعلى (١٣٩٩) من طريقين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢٣- ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ تعالى الخلق فلما فرغَ منه قامت الرحِم، فأخذت بحقو الرحمن عز وجل فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصِل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاكَ لك. قال أبو هريرة رضي الله عنه اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

ثم رواه البخاري من طريقين آخرين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾» ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يُعجِّل الله تعالى عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البَغي وقطيعة الرحم» ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سرَّه النَّسأ في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه» تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح.

وقال أحمد أيضاً: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال ﷺ: «لا، إذن تُتركون جميعاً، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل، ما كنتَ على ذلك» تفرد به أحمد من هذا الوجه، وله شاهد من وجه آخر.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرَّحِم معلقةٌ بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رَحِمه وصلها» رواه البخاري.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال: «الرَّاحِمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يَرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنةٌ من الرحمن، مَن وصَلها وصلته، ومن قطعها بتته» وقد رواه أبو داود والترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن إبراهيم بن عبد الله بن فارض أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه: وصلتك رحمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته - أو قال - من بتَّها أبته» تفرد به أحمد من هذا الوجه، ورواه أبو داود والترمذي، والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾

٢٤- يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

٢٥- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: فارقوا الإيمان، ورجعوا إلى الكفر ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيَّن لهم ذلك وحسَّنه ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أي: غرهم وخدعهم.

٢٦- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: مالؤهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما يسرون وما يخفون، والله مطلع عليه وعالم به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٢٨- ولهذا قال ههنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾

٢٩- يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي: أيعتقد المنافقون، أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه، حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة، فبين فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة. والأضغان جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله، القائمين بنصره.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول عز وجل: ولو نشاء يا محمد، لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى في جميع المنافقين، ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى إلى عالمها ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم، الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو، بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من ﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة، إلا أبداها الله على صفحات وجهه،

وفلتات لسانه.

٣١- وقوله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن سيكون، شكٌّ ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا «إلا لنعلم» أي: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)﴾

٣٢- يخبر تعالى عمن كفر وصدَّ عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله، فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله، الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكليه، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد روى الإمام محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة»: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى: أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها.

٣٣- ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين، بطاعته وطاعة رسوله، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد، الذي هو مبطلٌ للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: بالردة.

٣٤- ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية.

٣٥- ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار، في حال قوتكم، وكثرة عَددكم وعُددكم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم.

فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

وقوله جلت عظمته: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر، والظفر على الأعداء ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً، والله أعلم.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾

٣٦- يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا، وتهويناً لشأنها ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك، إلا ما كان منها لله عز وجل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم، لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال، مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

٣٧- ثم قال جل جلاله: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يحوجكم تبخلوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال، إخراج الأضغان.

وصدق قتادة، فإنَّ المال محبوب، ولا يُصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخَلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين، مطيعين له ولأوامره.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ قالوا: يا رسول الله، مَن هؤلاء الذين إن تولينا، استبدل بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدِّين عند الثريا، لتناوله رجالٌ من الفرس»[١].

آخر تفسير سورة محمد

****

(١) وهو صحيح بطرقه، ورواه الترمذي (٣٤٩٠، ٣٤٩١) وابن ماجة. وانظر الصحيحة (١٠١٧).

ترتيبها ٤٨ سورة الفتح ـ مدنية آياتها ٢٩

روى الإمام أحمد: عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره «سورة الفتح» على راحلته، فرجّع فيها. قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا، لحكيت قراءته، أخرجاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

١ - نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً، باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وعن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وروى البخاري: عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا ثم صبَّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا.

وروى الإمام أحمد: عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات، فلم يرد عليَّ، قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعتُ وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت عليَّ البارحة سورة، هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**» ورواه البخاري والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ: **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾** مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي الليلة آية، أحب إلي مما على الأرض» ثم

قرأها عليهم النبيﷺ، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بيَّن الله عز وجل ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليهﷺ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ - حتى بلغ - ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ أخرجاه في الصحيحين. وروى الإمام أحمد: عن المغيرة بن شعبة يقول: كان النبيﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقالﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود، ورواه الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللهﷺ إذا صلى قام حتى تنفطر رجلاه . . . أخرجه مسلم.

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ أي: بينا ظاهراً، والمراد به: صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

٢- وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصهﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح، في ثواب الأعمال كفيره «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» وهذا فيه تشريف عظيم لرسول اللهﷺ، وهوﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة، التي لم ينلها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهوﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة.

ولما كان أطوع خلق الله تعالى، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل» ثم قالﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله، إلا أجبتهم إليها، فلما أطاع الله في ذلك، وأجاب إلى الصلح، قال الله تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ۞ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم، والدين القويم.

٣- ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل، يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله عز وجل، إلا رفعه الله تعالى»(١).

وعن عمر بن الخطابرضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك، بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

٤- يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما،

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ٢٠٠١) من حديث أبي هريرةرضي الله عنه.

وعنه : الرحمة ، وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين ، وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت ، زادهم إيماناً مع إيمانهم . وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة ، على تفاضل الإيمان في القلوب .

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين ، فقال سبحانه وتعالى : **﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أي : ولو أرسل عليهم مَلَكاً واحداً ، لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة القاطعة ، والبراهين الدامغة ، ولهذا قال جلت عظمته : **﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾** .

٥- ثم قال عز وجل : **﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** قد تقدم حديث أنس ﷺ ، حين قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى : **﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** أي : ماكثين فيها أبداً **﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾** أي : خطاياهم وذنوبهم ، فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويستر ، ويرحم ويشكر **﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾** كقوله جل وعلا : **﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾** الآية .

٦- وقوله تعالى : **﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾** أي : يتهمون الله تعالى في حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ، ويذهبوا بالكلية . ولهذا قال تعالى : **﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾** أي : أبعدهم من رحمته **﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾** .

٧- ثم قال عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء ، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين **﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾** .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠) ﴾

٨- يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : **﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾** أي : على الخلق **﴿وَمُبَشِّراً﴾** أي : للمؤمنين **﴿وَنَذِيراً﴾** أي : للكافرين . وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب .

٩- **﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد : تعظموه **﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾** من التوقير ، وهو الاحترام والإجلال والإعظام **﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾** أي : تسبحون الله **﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾** أي : أول النهار وآخره .

١٠- ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾** وكقوله جل وعلا : **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** **﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** أي : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ ، كقوله تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**

﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقد روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الحَجَر: «والله ليبعثنه الله عز وجل يوم القيامة، له عينان ينظر بهما، ولسانٌ ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾**.

ولهذا قال تعالى ههنا: **﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾** أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه **﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾** أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ، قيل: ألفاً وثلثمائة، وقيل: وأربعمائة، وقيل: وخمسمائة، والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

روى البخاري: عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، ورواه مسلم.

وأخرجاه أيضاً عنه قال: كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، حتى رووا كلهم. وهذا مختصر من سياق آخر، حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر رضي الله عنه: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفاً وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا.

وفي رواية في الصحيحين: عن جابر رضي الله عنه: أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

وروى البخاري: من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قلت: فإن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة. قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. والمشهور الذي رواه عنه غير واحد: أربع عشرة مائة. وكذلك هو الذي في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والبراء بن عازب رضي الله عنهم. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير، وقد أخرج صاحبا الصحيح: من حديث عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة، وكانت «أسلم» يومئذ ثمن المهاجرين.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي ابن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان رضي الله عنه، تبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره، حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا: لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ

إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قُتل .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ قال - حين بلغه أن عثمان قد قتل - لا نبرح حتى نُناجز القوم ، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر ، فبايع الناس ولم يتخلف أحدٌ من المسلمين حضرها ، إلا الجد ابن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر رضي الله عنه يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته ، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل .

وروى البخاري : عن نافع رضي الله عنه قال : إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر ، وليس كذلك ، ولكن عمر رضي الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه ، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة وعمر رضي الله عنه لا يدري بذلك ، فبايعه عبد الله رضي الله عنه ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضي الله عنه ، وعمر رضي الله عنه يستلئم للقتال ، فأخبره أن رسول الله ﷺ يُبايع تحت الشجرة ، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر رضي الله عنهما .

وعن جابر رضي الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه ، وعمر رضي الله عنه آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة ، وقال : بايعناه على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت ، رواه مسلم .

وروى : عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس ، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر .

وروى البخاري : عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، ثم تنحيتُ ، فقال ﷺ : «يا سلمة ألا تبايع ؟» قلت : قد بايعت ، قال ﷺ : «أقبل فبايع» فدنوتُ فبايعته ، قلت : علام بايعته يا سلمة ؟ قال على الموت . وأخرجه مسلم .

وكذا روى البخاري : عن عباد بن تميم : أنهم بايعوه على الموت .

وروى البيهقي : عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويها ، فقعد رسول الله ﷺ على جباها - يعني الركي - فإما دعا وإما بصق فيها ، فجاشت فسقينا واستقينا ، قال : ثم أن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة فبايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس ، قال ﷺ : «بايعني يا سلمة» قال : قلت : يا رسول الله ، قد بايعتك في أول الناس ، قال ﷺ : «وأيضاً» قال : ورآني رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني حجفة أو درقة ، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس ، قال ﷺ : «ألا تبايع يا سلمة ؟» قال : قلت : يا رسول الله ، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم ، قال ﷺ : «وأيضاً» فبايعته الثالثة ، فقال رسول الله ﷺ : «يا سلمة ، أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟» قال : قلت : يا رسول الله ، لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه ، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال : «إنك كالذي قال الأول : اللهم ابغني حبيباً ، هو أحب إلي من نفسي ، قال : ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح ، حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا ، قال : وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، أسقي فرسه وأحسه وآكل من طعامه ،

وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا في بعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى، فعلّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك، إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قُتل ابن زنيم، فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي، ثم قلت: والذي كرم وجه محمد ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه، إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له: مكرز من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ، وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه» فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وهكذا رواه مسلم بسنده نحوه أو قريباً منه.

وثبت في الصحيحين: عن سعيد بن المسيب قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، فإنْ كان بُيِّنت لكم فأنتم أعلم!

وروى أبو بكر الحميدي: عن جابر رضي الله عنه قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلاً منا يقال له: الجد بن قيس، مختبئاً تحت إبط بعيره، رواه مسلم.

وروى الحميدي أيضاً: عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنتُ أبصر لأريتكم موضع الشجرة، قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه.

وروى عبد الله بن أحمد: عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن يصعدُ الثَّنيَّة ثنية المُرار، فإنه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل» فكان أول من صعد خيل من الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال النبي ﷺ: «كلكم مغفورٌ له إلا صاحب الجمل الأحمر» فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: والله لأن أجدَ ضالتي أحبُّ إلي من أن يستغفر لي صاحبكم!! فإذا هو رجل ينشد ضالة، رواه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النارَ - إن شاء الله تعالى - من أصحاب الشَّجرة الذين بايعوا تحتها أحدٌ» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة رضي الله عنها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» رواه مسلم.

وفيه أيضاً: عن جابر رضي الله عنه قال: إن عبدَ حاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلنَّ حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتَ، لا يدخلها، فإنه قد شهد بدراً والحديبية».

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴾

١١ - يقول تعالى مخبراً رسولهﷺ بما يعتذر به المخلَّفون من الأعراب، الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول اللهﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسولﷺ، وذلك قولٌ منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر أحدٌ أن يرد ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٢ - ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد، وقال قتادة: فاسدين، وقيل: هي لغة عمان.

١٣ - ثم قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

١٤ - ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك، المتصرف في أهل السموات والأرض، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لمن تاب إليه، وأناب وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾

١٥ - يقول تعالى مخبراً عن الأعراب، الذين تخلفوا عن رسول اللهﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبيﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها، أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء، ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله تعالى رسولهﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد وقتادة وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا

﴿مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر! لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية، وقال ابن جريج ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية، قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: أن نشرككم في المغانم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾

١٦- اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن، عن سعيد بن جبير وعكرمة، وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر، ورواه محمد بن إسحاق عن الزهري، وروي مثله عن سعيد وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة في إحدى الروايات عنه، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

وروي أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تُقاتلوا قوماً صغار الأعين، ذُلف الأنوف، كأن وجوههم المجانُّ المُطرَقة» قال سفيان: هم الترك[1].

وقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني: شرع لكم جهادكم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، لكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار. ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد، وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٧- ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم: كالعمى والعرج المستمر، وعارض: كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه، ملحقٌ بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد، وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم.

---

(١) الحديث رواه البخاري في مواضع أولها: في الجهاد (٦/ ١٠٤) ومسلم في الفتن (٤/ ٢٢٣٣، ٢٢٣٤) وزادا: «ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نِعالهم الشعر».

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

١٩- يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذِكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت «سمرة» بأرض الحديبية.

روى البخاري: عن طارق بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم!

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، السمع والطاعة ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي: الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم، من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر، المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العزِّ والنصر والرفعة، في الدنيا والآخرة.

١٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

٢٠- قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي: جميع المغانم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر. وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: صلح الحديبية ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: لم ينلكم سوءٌ، مما كان أعداؤكم أضمروه لكم، من المحاربة والقتال، وكذلك كفَّ أيديَ الناس عنكم - الذين خلفتموهم وراء ظهوركم - عن عيالكم وحريمكم ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم، أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين، وإن كرهوه في الظاهر، كما قال عز وجل: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره، واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله ﷺ.

٢١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: وغنيمة أخرى، وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له، من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة: ما المراد بها؟ فقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي خيبر، وهذا على قوله في قوله عز وجل: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أنها: صلح الحديبية، وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال قتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وروى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون، لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدْبراً، لا يجدون ولياً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

٢٣- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: هذه سُنّة الله وعادته في خلقه: ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فَيْصلٍ، إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم.

٢٤- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعافية في الدنيا والآخرة.

وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى، فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم، فقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثَنَاه» قال: وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية، هبطَ على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قِبل جبل التنعيم يريدون غِرَّة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا. قال عفان: فعفا عنهم ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير.

وروى أحمد أيضاً: عن عبد الله بن مغفل المدني رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمر بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحيم» فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم! اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب باسمك اللهم» وكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة. فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنتَ رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله تعالى

بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، رواه النسائي.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾

٢٥- يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب، من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يصل محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويُخفيه منهم، خفيةً على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم، وأبدتم خصراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أي: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلِّص مَن بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو تميَّز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسلطناكم عليهم، فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً.

٢٦- وقوله عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ وهي: قول لا إله إلا الله، كما روى ابن جرير وعبد الله بن الإمام أحمد: عن الطفيل يعني: ابن أبي بن كعب عن أبيه رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: «لا إله إلا الله» وكذا رواه الترمذي.

وقال مجاهد ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبير ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله، وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال قتادة ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان

---

(١) وهو صحيح بطرقه، ورواه الترمذي (٣٤٩٠، ٣٤٩١) وابن ماجة. وانظر الصحيحة (١٠١٧).

المسلمون أحق بها ، وكانوا أهلها .

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي : هو عليم بمن يستحق الخير ، ممن يستحق الشر . وقد روى النسائي : عن أبي بن كعب رضي الله عنه : أنه كان يقرأ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ولو حميتم كما حموا ، لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأغلظ له ، فقال : إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ ، فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمر رضي الله عنه : بل أنت رجلٌ عندك علم وقرآن ، فاقرأ وعلِّم مما علمك الله تعالى ورسوله .

(وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح)

روى البخاري رحمه الله في كتاب الشروط من صحيحه : عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلَّد الهدي وأشعره ، وأحرم منها بعمرة ، وبعث عيناً له من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط ، أتاه عينه فقال : إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحاشيش ، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك ، فقال ﷺ : «أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن نميل على عيالهم ، وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت» وفي لفظ : «أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين ، وإلا تركناهم محزونين» . وفي لفظ : «فإنْ قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين ، وإنْ نجوا يكن عنقاً قطعها الله عز وجل أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه» .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قَتل أحدٍ ولا حرباً ، فتوجّه له ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه ، وفي لفظ : فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن مَن حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : «فروِّحوا إذن» وفي لفظ : «فامضوا على اسم الله تعالى» حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي ﷺ : «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها ، بركت به راحلته فقال الناس : حل حل ، فألحت فقالوا : خلأَت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حَبَسها حابس الفيل ، ثم قال ﷺ : «والذي نفسي بيده ، لا يسألوني خُطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى ، إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثَمدٍ قليل الماء يتربضه الناس تربضاً ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه ، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العُوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، فقال النبي ﷺ : «إنا لم نجئ لقتال أحدٍ ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإنْ هم أبوا ، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا ، حتى تنفرد سَالفتي ، أو لينفذن الله أمره» . قال بديل : سأبلغهم ما تقول ،

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خُطةَ رشدٍ فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته.

فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة: عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى، فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس، خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف، وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه، وقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، قال: أي، غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه في شيء» ثم إنَّ عروة جعلَ يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تلكم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفَدت على الملوك، وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إنْ تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عَرَض عليكم خُطة رشد فاقبلوها، فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال للنبي ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له» فبعثت له واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجلٌ فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل ابن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سُهِّل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه، وقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهمَّ، كما كنت تكتب، فقال

المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبيﷺ: «اكتب باسمك اللهمَّ» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صَددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبيﷺ: «والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب محمد ابن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظِّمون فيها حُرُمات الله تعالى، إلا أعطيتهم إياها» فقال النبيﷺ: «على أنْ تخلو بيننا وبين البيت فنطوف به» فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه، أن تردّه إليَّ، فقال النبيﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبيﷺ: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيز ذلك، قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا لك بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل. قال عمرؓ: فأتيت نبي اللهﷺ فقلت: ألستَ نبي الله حقاً؟ قالﷺ: «بلى» قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قالﷺ: «بلى» قلت: فلم نُعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قالﷺ: «إني رسول الله، ولستَ أعصيه، وهو ناصري» قلت: أولستَ كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قالﷺ: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا، قالﷺ: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبابكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهري: قال عمرؓ: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول اللهﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا، ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ، حتى قالﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخلﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدَنَك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول اللهﷺ فلم يكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بيده ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمرؓ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبيﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به، حتى إذا بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمرلهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل، والله، إنه لجيد لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل

المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعْراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه، مُعسرُ حرب، لو كان معه أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ - حتى بلغ - حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. وهكذا ساقه البخاري ههنا، وقد أخرجه في التفسير، و في عمرة الحديبية، وفي الحج وغير ذلك.

وروى البخاري في التفسير: عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني الصُّلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخر ومسلم والنسائي.

وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس، اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جنْدل، ولو أقدر على أن أردّ على رسول الله ﷺ لرددته، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه.

روى أحمد: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي رضي الله عنه: «اكتبْ يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: «امح يا علي، اللهم إنك تعلم أني رسولك، امح يا علي، واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة. أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، ورواه أبو داود.

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾

٢٧- كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام: أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية، لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع من قضية

الصلح ، ورجعوا عامهم ذلك ، على أن يعودوا من قابل ، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ، ونطوف به؟ قال : «بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال : لا ، قال النبي ﷺ : «فإنك آتيه ومُطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه حذو القذة بالقذة ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء في شيء .

وقوله عز وجل : ﴿آمِنِينَ﴾ أي : في حال دخولكم ، وقوله : ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة ، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ، ومنهم من قصَّره ، وثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «رحِم اللهُ المحلِّقين» قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال ﷺ : «رحِم اللهُ المحلِّقين» قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال ﷺ : «رحِم اللهُ المحلِّقين» قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال ﷺ : «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد ، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة ، رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحدٌ غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبى وسار أصحابه يلبون ، فلما كان ﷺ قريباً من مرِّ الظَّهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه ، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص ، فقال : يا محمد ، ما عرفناك تنقض العهد ، فقال ﷺ : «وما ذاك؟» قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح ، فقال عليه الصلاة والسلام : «لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى يأجج؟» فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رؤوسُ الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً ، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان ، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى ، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها ، وهو يقول :

باسم الذي لا دين إلا دينُه ... باسم الذي محمد رسوله ... خلُّوا بني الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويُذهل الخليل عن خليله قد أنزل الرحمنُ في تنزيله في صحفٍ تُتلى على رسوله
بأن خيرَ القتل في سبيله يا ربّ إني مؤمنٌ بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقه .

روى الإمام أحمد : عن أبي الطفيل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مرَّ الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول ما يتباعثون من العجف فقال أصحابه : لو انتحرنا من ظَهْرنا فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه ، أصبحنا غداً حين تدخل على القوم وبنا جَمامة ، قال ﷺ : «لا تفعلوا ، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم» فجمعوا له وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحشَا كل واحد منهم في جرابه ، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد ، وقعدت قريش نحو الحِجر ، فاضطبع ﷺ بردائه ، ثم قال : «لا يرى القوم فيكم غَميزة» فاستلم الركن ثم رمل ، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما يرضون بالمشي ، أما إنهم لينقزون نقز الظباء ، ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سُنَّة ، قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع .

وروى أحمد أيضاً : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حُمَّى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قومٌ قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحِجر ، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالوا ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جلدهم ، قال : فرملوا ثلاثة أشواط وأمرهم أن يمشوا بين الركنين ، حيث لا يراهم المشركون ، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها ، إلا إبقاءً عليهم ، فقال المشركون : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحُمى قد وهنتهم ! هؤلاء أجلد من كذا وكذا . أخرجاه في الصحيحين .

وروى البخاري : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما سعى النبي ﷺ بالبيت ، وبالصفا والمروة ، ليرى المشركون قوته . ورواه في مواضع أخر ومسلم .

وروى أيضاً : عن ابن أبي أوفى يقول : لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم ، أن يؤذوا رسول الله ﷺ . انفرد به البخاري دون مسلم .

وقوله تعالى : ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ أي : فعلم الله عز وجل من الخِيرة والمصلحة في صَرفكم عن مكة ، ودخولكم إليها عامكم ذلك ، ما لم تعلموا أنتم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي : قبل دخولكم الذي وُعدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

٢٨- ثم قال تبارك وتعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه ، وعلى سائر أهل الأرض ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي : بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فإخباراتها حق ، وإنشاآتها عدل ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي : على أهل جميع الأديان ، من سائر أهل الأرض ، من عربٍ وعجم ، ومسلمين ومشركين ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ أي : أنه رسوله ، وهو ناصره ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ مُحمَّدٌ رَّسولُ اللَّه وَالَّذين مَعهُ أَشدَّاءُ علَى الْكُفَّارِ رُحماءُ بيْنهُم تراهُم رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتغُون فَضلاً مِّنَ اللَّه ورِضْوانًا سيماهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثرِ السُّجُود ذَلكَ مثَلُهُمْ فِي التَّوْراة ومَثَلُهُمْ فِي الإِنجيلِ كَزرْعٍ أَخْرج شطْأَهُ فَآزَرهُ فَاسْتغْلَظَ فَاسْتوىٰ علىٰ سُوقه يُعْجبُ الزُّرَّاع ليَغيظَ بهِمُ الْكُفَّار وعَدَ اللَّهُ الَّذين آمنُوا وعَملُوا الصَّالحات منْهُم مَّغْفرَةً وَأَجْرًا عظيمًا (٢٩) ﴾

٢٩- يخبر تعالى عن محمدﷺ أنه رسوله حقاً، بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل. ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ كما قال عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقال النبيﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عُضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقالﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضاً» وشبّكﷺ بين أصابعه. كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾.

وقوله جل جلاله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ يعني: السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع. وروى ابن أبي حاتم: عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنتُ أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني مَنْ هو أقسى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاتُه بالليل، حَسُن وجهه بالنهار، وقد أسنده ابن ماجة في سننه، والصحيح أنه موقوف.

وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس. كما روي عن عمر بن الخطابرضي الله عنه أنه قال: مَن أصلح سريرته، أصلح الله تعالى علانيته.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال: «إن الهديَ الصَّالح، والسَّمْت الصالح، والاقتصاد جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»، ورواه أبو داود.

فالصحابة رضي الله عنهم خَلُصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم

وهديهم. وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا. وصَدقوا في ذلك، فإنَّ هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة، والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾.

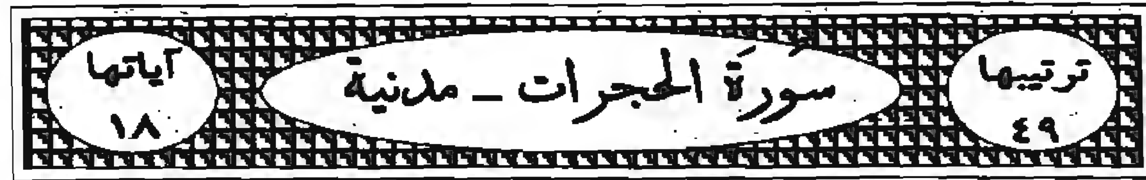
ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فراخه ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: شده ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: شبَّ وطال ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطءِ مع الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ومن هذه الآية، انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه – في رواية عنه – بتكفير الروافض، الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، والنهي عن التعرض بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل. وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحدٌ من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

روى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مِثل أُحدٍ ذَهَباً، ما أدرك مُدَّ أحدِهم ولا نصيفه».

آخر تفسير سورة الفتح

****



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

١ - هذه آداب أدَّب الله تعالى عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تُسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي: حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى، قال ﷺ: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «فإن لم تجد؟» قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي، فضرب في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفَّق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ» وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة(١).

فالغرض منه أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده، إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدَّمه قبل البحث عنهما، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وقال العوفي عنه: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضي الله تعالى على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله، من شرائع دينكم. وقال سفيان الثوري ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: بقول ولا فعل، وقال الحسن البصري ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل فيَّ كذا وكذا لو صح كذا فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

٢ - وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدبٌ ثانٍ أدَّب الله تعالى به المؤمنين، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر

---

(١) وهو حديث ضعيف، ضعفه البخاري بقوله: لا يصح، ولا يعرف إلا مرسلاً، وقال الترمذي: ليس إسناده عندي بمتصل، وضعفه ابن حزم في الإحكام وغيرهم، وذكره الألباني في الضعيفة (٨٨١).

وعمر رضي الله عنهما. روى البخاري: عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا؛ أبوبكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر[١] قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾** قال ابن الزبير رضي الله عنه: فما كان عمر رضي الله عنه يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه - يعني أبا بكر رضي الله عنه. انفرد به البخاري دون مسلم.

وروى البخاري: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله، فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال: كذا وكذا، قال: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: «اذهبْ إليه، فقل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنَّك من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه، ورواه مسلم. ورواه الإمام أحمد (وزاد): قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلمُ أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة، كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت ابن قيس بن شماس وقد تحنَّط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوِّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قُتل رضي الله عنه.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين. كذلك فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه سَمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة، لأوجعتكما ضرباً.

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترمٌ حياً وفي قبره ﷺ دائماً، ثم نهى عن الجهر له بالقول، كما كان يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: **﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾** كما قال تعالى: **﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾**.

وقوله عز وجل: **﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾** أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشيةَ أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عملُ مَن أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلَّم بالكلمةِ من رضوان الله تعالى، لا يُلقي لها بالاً، يُكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»[٢].

٣- ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده، وحثَّ على ذلك، ، وأرشد إليه ورغب فيه، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾** أي: أخلصها لها، وجعلها أهلاً ومحلاً **﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**. وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد: عن مجاهد: قال:

---

(١) وسماه في الرواية الأخرى عند البخاري بـ: القعقاع بن معبد.
(٢) متفق عليه.

كُتب إلى عمر، يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجلٌ يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذي يشتهون المعصية، ولا يعملون بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾

٥- ثم إنه تبارك وتعالى ذمَّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك.

فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة، في الدنيا والآخرة. ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه، فيما أورده غير واحد.

روى الإمام أحمد: عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أنه نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه، فقال: يا رسول الله، إنَّ حَمدي لزين، وإنَّ ذمي لشين، فقال: «ذاك الله عز وجل». ورواه ابن جرير عن البراء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾

٦- يأمر تعالى بالتَّثبُّت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يُحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقَبِلها آخرون، لأنا أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق، لأنه مجهول الحال، وقد قررنا هذه المسئلة في كتاب العلم من شرح البخاري، ولله تعالى الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين: أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، وقد روي ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار رضي الله عنه، والد ميمونة بنت الحارث أم المومنين رضي الله عنها يقول: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي دفعت زكاته، وتُرسل إليَّ يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا، ليأتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول ولم يأته، وظنَّ الحارث

أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسَروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقّت لي وقتاً يُرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سَخْطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق - أي خاف - فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن الحارث قد منعني الزكاة ، وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصل عن المدينة ، لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى مَن بُعثتم؟ قالوا : إليك ، قال : ولم؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال رضي الله عنه : لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ، ما رأيته بتة ولا أتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : «منعتَ الزكاة ، وأردت قتل رسولي؟» قال : لا ، والذي بعثك بالحق ، ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلتُ إلا حين احتبس عليَّ رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سَخطة من الله تعالى ورسوله ، قال : فنزلت الحجرات **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** ورواه ابن أبي حاتم والطبراني .

قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : «التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان»[1] .

وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ويزيد بن رومان والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم في هذه الآية : أنها نزلت في الوليد بن عقبة ، والله أعلم .

وقوله تعالى **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾** أي : اعلموا أن بين أظهركم رسول الله ، فعظموه ووقروه ، وتأدبوا معه ، وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تبارك وتعالى : **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾** . ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم ، فقال : **﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾** أي : لو أطاعكم في جميع ما تختارونه ، لأدّى ذلك إلى عنتكم وحرجكم ، كما قال سبحانه وتعالى : **﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾** .

وقوله عز وجل : **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾** أي : حبّبه إلى نفوسكم ، وحسنه في قلوبكم .

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي : وبغّض إليكم الكفر **﴿وَالْفُسُوقَ﴾** وهي : الذنوب الكبار ، **﴿وَالْعِصْيَانَ﴾** وهي : جميع المعاصي ، وهذا تدريج لكمال النعمة ؛ وقوله تعالى : **﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾** أي : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون ، الذين قد آتاهم الله رشدهم .

روى الإمام أحمد : عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول

---

(١) قد ثبت الحديث مرفوعاً بلفظ : «التأني من الله ، والعجلة من الشيطان» رواه أبو يعلى (٤٢٥٦) والبيهقي (١٠/ ١٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه ، وهو حديث حسن ، وانظر الصحيحة (١٧٩٥) .

اللهﷺ: «استووا حتى أُثني على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقالﷺ: «اللهم لك الحمدُ كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطتَ، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضلَّ لمن هديت، ولا مُعطيَ لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما باعدت، ولا مباعد لما قرَّبت، اللهمَّ ابْسُط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك ورزقك، اللهم إنِّي أسألك النَّعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إنِّي أسألك النعيم يوم العَيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إنِّي عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا، ومن شرِّ ما منعتنا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتلِ الكفرة الذين يُكذِّبون رُسلك، ويَصُدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجْزك وعذابك، اللهم قاتلِ الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إلهَ الحق» ورواه النسائي.

وفي الحديث المرفوع: «من سرَّته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»[1].

ثم قال: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه، هو فضلٌ منه عليكم، ونعمة من لدنه ﴿واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾

٩- يقول تعالى آمراً بالإصلاح، بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره، على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم.

وهكذا ثبت في صحيح البخاري: عن أبي بكرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إن رسول اللهﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ الله تعالى أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فكان كما قالﷺ، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح: عن أنسرَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول اللهﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قالﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه».

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٨) والترمذي (٢٢٦٨) من حديث عمررَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأوله: «أوصيكم بأصحابي ...».

وروى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ، قال: «إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك!» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجالٌ من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ورواه البخاري في الصلح ومسلم في المغازي.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل، بما أقسطوا في الدنيا» ورواه النسائي، وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح.

وروى أيضاً: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابرَ من نور، على يمين العرش، الذين يَعدلون في حُكمهم وأهاليهم وما وَلُوا» ورواه مسلم والنسائي.

١٠- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه». وفي الصحيح: «واللهُ في عون العبد، ما كان العبدُ في عون أخيه».

وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهرِ الغيب، قال الملك: آمين، ولك بمثله» والأحاديث في هذا كثيرة.

وفي الصحيح: «مَثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبُنيان، يشدُّ بعضه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني: الفئتين المقتتلتين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة، لمن اتقاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾

١١- ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطر الحق، وغمص الناس» ويروى: «وغمط الناس». والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه، المحتقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ

﴿عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ﴾ فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس، والهمّاز اللماز من الرجال، مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ والهمز بالفعل، واللمز بالقول، كما قال عز وجل: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يحتقر الناس ويهمزهم، طاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة، وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال ههنا: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ كما قال: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أي: لا تداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

روى الإمام أحمد: عن الشعبي قال: حدثني أبو جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول اللهﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا فنزلت: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ ورواه أبو داود.

وقوله جل وعلا: ﴿بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

١٢ - يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليجتنب كثير منه احتياطاً. وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطابرضي الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وروى مالك: عن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنسرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» ورواه مسلم والترمذي وصححه.

وروى أبو داود: عن زيدرضي الله عنه قال: أتي ابن مسعودرضي الله عنه برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد اللهرضي الله عنه: إنا قد نُهينا عن التجسس، ولكن إنْ يظهر لنا شيء نأخذ به. سمّاه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وعن معاويةرضي الله عنه قال: سمعت النبيﷺ يقول: «إنك إن اتبعتَ عورات الناس أفسدتهم، أو كدت تفسدهم» فقال أبو الدرداءرضي الله عنه: كلمة سمعها معاويةرضي الله عنه من رسول اللهﷺ، نفعه الله تعالى بها. رواه أبوداود منفرداً به.

وروى أبو داود أيضاً: عن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معديكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم: عن النبيﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم».

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح: أن رسول اللهﷺ قال: «لا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء، والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم، والتدابر: الصَّرم. رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قالﷺ: «ذِكْرُكَ أخاك بِمَا يَكره» قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قالﷺ: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه» ورواه الترمذي وابن جرير. وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما ومسروق وقتادة وأبو إسحاق ومعاوية بن قرة.

وروى أبو داود: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبيﷺ: حَسبك من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقالﷺ: «لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته» قالت: وحكيت له إنساناً، فقالﷺ: «ما أحبُّ أني حكيت إنساناً، وأن لي كذا وكذا» ورواه الترمذي.

وروى ابن جرير: عن حسان بن المخارق: إن امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها، فلما قامت لتخرج، أشارت عائشة رضي الله عنها بيدها إلى النبيﷺ - أي: أنها قصيرة - فقال النبيﷺ: «اغتبتيها».

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحة، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقولهﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، وبئس أخو العشيرة».

وكقولهﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها، وقد خَطَبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصُعلوك، وأما أبو الجهم فلا يَضع عصاه عن عاتقه» وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال عز وجل: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعاً، فاكرهوا ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منه، كما قالﷺ في العائد في هبته: «كالكلب يقيء، ثم يرجع في قيئه» وقد قال: «ليس لنا مَثَل السوء».

وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه: أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وروى أبو داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، ماله وعِرْضه ودمه، حَسبُ امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» ورواه الترمذي.

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول اللهﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه مَن يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومَن يتبع الله عورته يفضحه في

بيته» تفرد به أبو داود، وقد روي من حديث البراء بن عازب.

طريق أخرى: عن ابن عمر: روى أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه وزاد: قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك، وأعظم حرمتك! ولَلْمؤمنُ أعظم حرمةً عند الله منك.

وروى أبو داود: عن المستورد: عن النبي ﷺ قال: «مَن أكل برجل مسلم أكلةً، فإن الله يُطعمه مثلها في جهنم، ومن كُسي ثوباً برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله في جهنم؛ ومن قام برجل مقام سمعة ورياء، فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة» تفرد به أبو داود.

وروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نُحاسٍ يَخمشون وجوههم وصدورهم» قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلونَ لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم. تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد.

وروى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ، فارتفعت ريح جيفةٍ منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريحُ الذين يغتابون الناس».

وقوله عز وجل: ﴿واتَّقُوا اللهَ﴾ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك، واخشوا منه ﴿إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي: تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته، أن يقلع عن ذلك، ويعزم على أن لا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه.

وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك، ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذن أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد: عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «مَن حَمى مؤمناً من منافقٍ يغتابه، بَعث الله تعالى إليه ملكاً يَحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومَن رمى مؤمناً بشيءٍ يريد شَينه به، حَبسه الله تعالى على جِسر جهنم، حتى يخرج مما قال» وكذا رواه أبو داود.

وروى أبو داود أيضاً: عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يَخذلُ امرءاً مسلماً في موضع تُنتهك فيه حُرمته، ويُنتقص فيه من عِرضه، إلا خَذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نُصرته، وما من امرئ يَنصر امرأً مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته» تفرد به أبو داود.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

١٣- يقول تعالى مخبراً للناس: أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر، كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك، وقيل المراد بالشعوب: بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل، وقد

لخصت هذا في مقدمة مفردة، جمعتها من كتاب الأشباه لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب (القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم) فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسولهﷺ.

ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة، واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾** أي: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته، وقال مجاهد في قوله عز وجل: **﴿لِتَعَارَفُوا﴾** كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا، وقال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها، وقد روى أبو عيسى الترمذي: عن أبي هريرةرضي الله عنه عن النبيﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرَّحم محبةٌ في الأهل، مَثْراةٌ في المال، مَنسأةٌ في الأثَر».

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى، لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول اللهﷺ.

روى البخاري: عن أبي هريرة قال: سُئل رسول اللهﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف، نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» وقد رواه البخاري في غير موضع.

حديث آخر: روى مسلم رحمه الله: عن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ورواه ابن ماجة.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن أبي ذررضي الله عنه قال: إن النبيﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخيرٍ من أحمر ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله» تفرد به أحمد رحمه الله.

حديث آخر: روى أبو بكر البزار في مسنده: عن حذيفةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب، ولينتهين قومٌ يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجِعلان».

حديث آخر: روى ابن أبي حاتم: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول اللهﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء، يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزلﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول اللهﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجلٌ برٌّ تقي كريم على الله تعالى، ورجلٌ فاجرٌ شقيٌّ هين على الله تعالى، إن الله عز وجل يقول: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**، ثم قالﷺ: «أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم». هكذا رواه عبد بن حميد.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر رضي الله عنهما قال: إن رسول اللهﷺ قال: «إنَّ أنسابكم هذه ليست بمسبَّةٍ على أحدٍ، كلكم بنو آدم طفُّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكونَ بذياً بخيلاً فاحشاً». وقد رواه ابن جرير، وليس هو في شيء من الكتب الستة

من هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة، وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى، مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في «كتاب الأحكام» ولله الحمد والمنة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾

١٤- يقول تعالى منكراً على الأعراب، الذين أول ما دخلوا في الإسلام، ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكَّن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة، أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. وروى الإمام أحمد: عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنهما قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً، ولم يعط رجلاً منهم شيئاً فقال سعد رضي الله عنهما: يا رسول الله، أعطيتَ فلاناً وفلاناً، ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن! فقال النبي ﷺ: «أو مسلم؟» حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم؟» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجالاً، وأدع من هو أحب إليَّ منهم فلم أعطه شيئاً، مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم» أخرجاه في الصحيحين.

فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً، لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية، ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي وقتادة، واختاره ابن جرير.

وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين، يظهرون الإيمان وليسوا كذلك.

وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

والصحيح الأول: أنهم قومٌ ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدِّبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقين في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب.

١٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يَشكُّوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: وبذلوا مهجهم، ونفائس أموالهم، في طاعة الله ورضوانه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب، الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٧- ثم قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ يعني: الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسولﷺ، يقول الله تعالى رداً عليهم ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ فإنَّ نفعَ ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبيﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن.

وروى الحافظ أبو بكر البزار: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول اللهﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك، فقال رسول اللهﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم. ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخر تفسير سورة الحجرات

****

ترتيبها ٥٠ — سُورَةُ ق ـ مكية — آياتها ٤٥

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام إنه من **(عم)** فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء رضي الله عنهم المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل، ما رواه أبو داود في سننه «باب تحزيب القرآن»: عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده أوس ابن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قُبة له – قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف – قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء، يحدثنا – قال أبو سعيد –: قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش، ثم يقول ﷺ: «لا سواء كنا مستضعفين مستذلين – قال مسدد بمكة – فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحربُ سِجالاً بيننا وبينهم، نُدالُ عليهم ويُدالون علينا» فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة! قال ﷺ: «إنه طرأ علي حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه».

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يُحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثَلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزبُ المفصل وحده. ورواه ابن ماجة والإمام أحمد.

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة، فالتي بعدهن سورة ق. بيانه ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء، وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، وسبعٌ: يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل، وتسع: سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، وأحد عشرة: الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، وثلاث عشرة: الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات، ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذي قلناه، ولله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب: سأل أبا واقدٍ الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة.

حديث آخر: وروى أحمد: عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت **﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾** إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعةٍ على المنبر، إذا خطب الناس. رواه مسلم.

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجُمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾

١ - ﴿ق﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله تعالى: ﴿ص﴾ و﴿ن﴾ و﴿الم﴾ و﴿حم﴾ و﴿طس﴾ ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره، وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق جبلٌ محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف! وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل، التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم، مما لا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبِّسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قِدم، فكيف بأمة بني إسرائيل، مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم - ولله الحمد والمنة - حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمة الله عليه، أورد ههنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أي: الكريم العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة: أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ وفي هذا نظر! بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن، كما تقدم في قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۞ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾

٢ - ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله جل وعلا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ أي: وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

٣- ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد، واستبعادهم لوقوعه ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟! ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: بعيد الوقوع، والمعنى أنهم يعتقدون استحالته، وعدم إمكانه.

٤- قال الله تعالى راداً عليهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت، وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم.

٥- ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم، واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾

٦- يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: بالمصابيح ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ قال مجاهد: يعني من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تبارك تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

٧- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهي الجبال، لئلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حسن المنظر.

٨- ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض، وما جعل فيها من الآيات العظيمة، تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي: خاضع خائف وجل، رجَّاع إلى الله عز وجل.

٩- وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً﴾ أي: نافعاً ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق من بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوال شاهقات. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات الطوال ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: منضود.

١٠ ـ ﴿رِزْقاً لِّلْعِبَادِ﴾ أي: للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾

١٢، ١٣ ـ يقول تعالى متهدداً لكفار قريش، بما أحلَّه بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذَّبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس، وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان: ﴿وَثَمُودُ ۞ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وهم أمته الذي بعث إليهم من أهل سدوم، ومعاملتها من الغرور، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة، بكفرهم وطغيانهم، ومخالفتهم الحق.

١٤ ـ ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليماني، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والشكر.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: كل من هذه الأمم، وهؤلاء القرون، كذبت رسولهم، ومن كذَّب رسولاً، فكأنما كذَّب جميع الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: حق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب، من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذَّبوا رسولهم كما كذب أولئك.

١٥ ـ وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أي: أفأعجزنا ابتداء الخلق، حتى هم في شك من الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال الله جل جلاله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته»[(١)].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٦/ ٢٨٧) وفي التفسير (٨/ ٧٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

١٦- يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان، بأنه خالقه، وعلمه محيطٌ بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وقد ثبت في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». وقوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم، فإنما فرَّ لئلا يلزم حُلُولٌ أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ يعني: ملائكته، وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر، وهو القرآن بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، باقتدار الله جل وعلا لهم على ذلك، فللْمَلَك لَمَّة من الإنسان، كما أن للشيطان لمة، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

١٧- ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مترصد ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يرقبها، معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَاماً كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقد اختلف العلماء: هل يكتب المَلَك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما؟ على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما يظنُّ أن تبلغَ ما بلغت، يكتبُ الله عز وجل بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله تعالى، ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وله شاهد في الصحيح.

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها، رواه ابن أبي حاتم.

وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك،

وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ثم يقول: عَدَلَ والله فيك، من جعلك حسيب نفسك.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يُكتب كل ما تكلم به من خيرٍ أو شر، حتى إنه ليكتب قوله أكلت شربت، ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس، عُرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وذكر عن الإمام أحمد: أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتبُ المَلَك كلَّ شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله.

١٩- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يقول عز وجل: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق، أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الذي كنتَ تفرُّ منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا: عن البهي قال: لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه، جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثَّلت بهذا البيت:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليسَ كذلك، ولكن قولي ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وقد أوردت لهذا الأثر طرقاً كثيرة في سيرة الصديق رضي الله عنه عند ذكر وفاته.

وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت، جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات».

وفي قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» ههنا موصولة، أي: الذي كنت منه تحيد، بمعنى تبتعد وتتناءى وتفرّ، قد حلَّ بك ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه، ولا الحيد عنه.

٢٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور، والفزع والصعق والبعث وذلك يوم القيامة. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أَنعم؟! وَصَاحبُ القَرن قد التقم القرن، وحَنى جبهته، وانتظر أن يُؤذن له» قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال ﷺ: «قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعمْ الْوكيل» فقال القوم: حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الْوكِيل.

٢١- ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير. ثم روى عن يحيى بن رافع مولى لثقيف قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يَشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد. (وروى) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال

السائق الملك والشهيد والعمل. وكذا قال الضحاك والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: السائق من الملائكة، والشهيد الإنسان نفسه يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أحدها: أن المراد بذلك الكافر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. والثاني: أن المراد بذلك كل أحد، من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم وابنه، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني: من هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي، لأن كلَّ أحد يوم القيامة يكون مستبصراً، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

٢٣- يقول تعالى مخبراً عن المَلَك الموكَّل بعمل ابن آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: معتد محضر، بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق، يقول: هذا ابن آدم الذي وكَّلتني به قد أحضرته، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

٢٤- فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل، فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقد اختلف النُّحاة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية.

وقيل: بل هي نون التأكيد، سهلت إلى الألف، وهذا بعيد، لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرضه الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم، وبئس المصير ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل، مع علمه بذلك.

٢٥- ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا برَّ فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد في منطقه وسيره وأمره ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره.

٢٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: أشرك بالله، فعبدَ معه غيره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وقد

تقدم في الحديث: «أن عُنُقاً من النار يَبرز للخلائق، فينادى بصوتٍ يسمع الخلائق: إني وُكلت بثلاثة: بكل جبَّار عنيد، وَمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ثم تنطوى عليهم»[1].

٢٧- ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطانُ الذي وكل به ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: يقول عن الإنسان قد وَافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: ما أضللته ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل، معانداً للحق، كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى، في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وعدَكمْ وعْدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ و ما كانَ لِيَ عليكمْ من سُلطانٍ إلاَّ أن دَعَوتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لي فلا تلُومُوني و لُومُوا أنفُسكم ما أنا بمُصرِخكمْ و ما أنتمْ بمُصرِخيَّ إنِّي كَفَرْتُ بما أشرَكْتُمونِ مِن قبلُ إنَّ الظالِمِينَ لهمْ عذابٌ أليمٌ﴾.

٢٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ أي: عن منهج الحق فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قال مجاهد: يعني: قد قضيت ما أنا قاض ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لستُ أعذِّبُ أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾

٣٠- يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجِنّة والناس أجمعين، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث. روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُلقى في النار، وتقول: هل مِن مزيد؟ حتى يَضَع قَدَمه فيها فتقول قط قط».

وروى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربُّ العزة قدَمه فيها، فينزوي بعضُها إلى بعض وتقول: قط قط، وعزَّتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضلٌ، حتى يُنشئُ اللهُ لها خَلقاً آخر، فيسكنهم الله تعالى في فُضول الجنة» ثم رواه مسلم.

طريق أخرى: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجَّت الجنةُ والنار، فقالت النار: أورثتُ بالمُتكبرين والمتجبِّرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاءُ الناس وسقطهم، قال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك مَن أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذِّبُ بك مَن أشاء

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (٢٧١٣) وأحمد (٢/ ٣٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من عبادي، ولكل واحدةٍ منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضعُ رجله فيها، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ، وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خَلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عز وجل يُنشئ لها خلقاً آخر» (ورواه مسلم بنحوه عن أبي سعيد رضي الله عنه). وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وعن عكرمة ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وهل فيَّ مدخل واحد، قد امتلأت، وعن يزيد بن أبي مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يُقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت، فتقول: هل فيَّ من مزيد، وعن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوي وتقول حينئذ: هل بقي فيَّ مزيد يسع شيئاً؟ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

٣١- وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قال قتادة وأبو مالك والسدي ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أدنيت وقربت من المتقين ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد، لأنه واقعٌ لا محالة، وكل ما هو آتٍ قريب.

٣٢- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رجّاع تائب مُقلع ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: يحفظ العهد، فلا ينقضه ولا ينكثه، وقال عبيد بن عمير: الأوّاب الحفيظ: الذي لا يجلس مجلساً فيقوم، حتى يستغفر الله عز وجل.

٣٣- ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من خاف الله في سره، حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل، كقوله ﷺ: «ورجلٌ ذكرَ الله تعالى خالياً، ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: ولقي الله عز وجل يوم القيامة، بقلب منيب سليم إليه، خاضع لديه.

٣٤- ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ قال قتادة: سلموا من عذاب الله عز وجل، وسلّم عليهم ملائكة الله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولاً.

٣٥- وقوله جلت عظمته: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: مهما اختاروا وجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا، أُحضر لهم. وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمنُ الولد في الجنة، كان حمله ووَضعه وسِنُّه في ساعةٍ واحدة» ورواه الترمذي وابن ماجة، وزاد الترمذي: «كما اشتهى».

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وقد تقدم في صحيح مسلم: عن صهيب بن سنان الرومي: أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾

٣٦- يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن

مَّحِيصٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أثروا فيها. وقال مجاهد ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ خرَّبوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب، أكثر مما تخاطفتم أنتم بها. ويقال لمن طوف في البلاد: نقَّب فيها، قال امرؤ القيس:

لقد نقَّبت في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم، ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

٣٧- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أي: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: لبٌّ يعي به، وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بعقله، وتفهمه بلبه، وقال مجاهد ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعني: لا يحدث نفسه في هذا بغيره، وقال الضحاك: العرب تقول ألقى فلان سمعه، إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد.

٣٨- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ فيه تقرير للمعاد لأن مَن قَدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادرٌ على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى، وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع! وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال تبارك وتعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾.

٣٩- وقوله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: المكذبين، اصبر عليهم، واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر؛ وقيام الليل كان واجباً على النبيﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد روى الإمام أحمد: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند النبيﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستُعرضون على ربكم، فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة.

٤٠- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فَصَلِّ له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرةرضي الله عنه أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال النبيﷺ: «وما

ذاك؟» قالوا: يصلون كما نُصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال ﷺ: «أفلا أعلِّمكم شيئاً إذا فعلتموه سَبَقتم من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم، إلا مَنْ فعل مثل ما فعلتم؟ تُسبحون وتحمدون وتكبرون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال ﷺ: «ذَلكَ فَضل الله يؤتيه من يشاء».

والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب، وروي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة رضي الله عنهم، وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم.

روى الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين، إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة، ورواه أبو داود والنسائي.

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

٤١- يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

٤٢- ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: النفخة في الصور، التي تأتي بالحق، الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجداث ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله، إنْ خيراً فخير، وإن شرا فشر.

٤٤- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء، يُنبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها، كما ينبت الحبَّ في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد، أمرَ الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وفي صحيح مسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشقُّ عنه الأرض».

وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: تلك إعادةٌ سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

٤٥- وقوله جل وعلا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: نحن علمنا محيطٌ بما يقول لك المشركون من التكذيب، فلا يهولنك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كُلِّفت به، وقال مجاهد وقتادة والضحاك ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: لا تتجبر عليهم. والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه، لقال ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان، إنما أنت مبلغ. قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا، بمعنى أجبره.

ثم قال عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده، ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقوله جل جلاله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار يا رحيم.

آخر تفسير سورة ق

****

ترتيبها ٥١ | سورة الذاريات ـ مكية | آياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾

١ - ٤- ثبت من غير وجه: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة رسول الله ﷺ، إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال علي رضي الله عنه: الريح، قال ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾؟ قال رضي الله عنه: السحاب، قال ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾؟ قال رضي الله عنه: السفن، قال ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال رضي الله عنه: الملائكة.

وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرا السحاب كما تقدم، لأنها تحمل الماء.

فأما ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فالمشهور عن الجمهور كما تقدم، أنها السفن تجري ميسرة في الماء، جرياً سهلاً. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك تقريباً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية.

٥، ٦- وهذا قسمٌ من الله عز وجل على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي: لخبر صدق ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ وهو الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي: لكائن لا محالة.

٧- ثم قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذات الجمال والبهاء، والحُسن والاستواء. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو صالح والسدي وقتادة وعطية العوفي والربيع بن أنس وغيرهم، وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضاً، طرائق طرائق، فذلك الحبك.

روى ابن جرير: عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبكاً حُبكاً». يعني بالحبك: الجعودة.

وعن أبي صالح ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الشدة. وقال خصيف: ذات الصفاقة، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: حبكت بالنجوم.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة، صفيقة شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: إنكم المشركون المكذبون للرسل، لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف، ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

٩- ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل، إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه، من هو مأفوك ضال غمر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ۝ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذَّب به.

١٠- وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابون، قال: وهي مثل التي في عبس ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ والخراصون الذين يقولون: لا نبعث، ولا يوقنون. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أي: لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ رضي الله عنه يقول في خطبته: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

١١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: في الكفر والشك، غافلون لاهون.

١٢- ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً، وشكاً واستبعاداً.

١٣- قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: يفتنون: يعذبون كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون، كمجاهد أيضاً وعكرمة وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم وسفيان الثوري: يفتنون: يحرقون.

١٤- ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وتحقيراً وتصغيراً، والله أعلم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل، أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه، من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

١٦- وقوله تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال ابن جرير: أي: عاملين بما آتاهم الله من الفرائض

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: قبل أن يفرض عليهم الفرائض، كانوا محسنين في الأعمال أيضاً.

والذي فسره ابن جرير فيه نظر! لأن قوله تبارك وتعالى: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي: من النعيم والسرور والغبطة، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ كقوله جل جلاله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

١٧- ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين: أحدهما أن «ما» نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تكن تمضي عليهم ليلة، إلا يأخذون منها ولو شيئاً. وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة لا تأتي عليهم، إلا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفةٌ لا أجدها فينا، ذكر الله تعالى قوماً فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي رضي الله عنه: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيتُ وجهه ﷺ عرفتُ أن وجهه ليس بوجه رجلٍ كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(١).

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّةِ غُرَفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً، والناس نيام».

١٨- وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخَّروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى ينزلُ كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائبٍ فأتوب عليه، هل من مستغفرٍ فأغفر له، هل من سائل فيعطى سوله؟ حتى يطلع الفجر».

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قالوا: أخَّرهم إلى وقت السحر.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٥١) والترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجة (١٣٣٤) وغيرهم.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لما وصفهم بالصلاة، ثنّى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: جزءٌ مقسوم، قد أفرزوه للسائل والمحروم. أما السائل فمعروف، وهو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق. وأما المحروم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هو المحارف، الذي ليس له في الإسلام سهم، يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له ولا حِرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال، إلا ذهب، قضى الله تعالى ذلك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما وعطاء بن أبي رباح: المحروم المحارف. وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً.

قال الزهري: وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطَّوَّاف، الذي تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه» وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما.

واختار ابن جرير: أن المحروم الذي لا مال له، بأي سبب كان قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هَلَكَ ماله أو نحوه بآفة أو نحوها.

٢٠- وقوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها، وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم، في المحل الذي هو محتاج إليه فيه.

٢١- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: من تفكَّر في خلق نفسه، عَرف أنه إنما خُلق ولينت مفاصله للعبادة.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني: المطر ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: الجنة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة، أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائنٌ لا محالة، وهو حقٌّ لا مرية فيه، فلا تشكُّوا فيه، كما لا تشكُّوا في نُطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه: إذا حدَّث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا الحقٌّ كما أنك هٰهنا.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٥١) والترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجة (١٣٣٤) وغيرهم.

عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

٢٤- هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر أيضاً، فقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي: الذين أرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردُّه أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فالخليل اختار الأفضل، وقوله تعالى: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - قدموا عليه في صورة شبان حسان، عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

٢٦- وقوله عز وجل: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: انسل خفية في سرعة ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: من خيار ماله، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: مشوي على الرضف.

٢٧- ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه منهم ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تلطف في العبارة، وعرضٌ حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقرَّبه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل.

٢٨- وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فلمَّا رَأَى أيديَهمْ لا تَصِلُ إليهِمْ نكِرَهمْ و أوجَسَ منهم خيفةً قَالُوا لا تَخفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي: استبشرت بهلاكهم، لتمردهم وعتوهم على الله تعالى، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ فالبشارة له، هي بشارة لها، لأن الولد منها فكل منهما بشر به.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي: في صرخة عظيمة ورنَّة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وعكرمة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم والثوري والسدي، وهي قولها ﴿يَا وَيْلَتَا﴾. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لطمت، أي تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟

٣٠- ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا

فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم (٣٧) ﴾

٣١- قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ◆ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ◆ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وقال ههنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم، وفيم جئتم؟

٣٢- ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

٣٣، ٣٤- ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ◆ مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلَّمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حَجَر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

٣٥- وقال تعالى ههنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم لوط وأهل بيته، إلا امرأته.

٣٦- ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم، ولا ينعكس، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

٣٧- وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرة، بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) ﴾

٣٨- يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهر، وحجة قاطعة.

٣٩- ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكباراً وعناداً، وقال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ والمعنى الأول قوي، كقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: معرض عن الحق مستكبر ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به، من أن تكون ساحراً، أو مجنوناً.

٤٠- قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي: ألقيناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: وهو ملوم كافر، جاحد فاجر معاند.

٤١- ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: المفسدة التي لا تنتج شيئاً. قاله

الضحاك وقتادة وغيرهما.

٤٢- ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي.

وقد ثبت في الصحيح: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدبور».

٤٣، ٤٤- ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم، والظاهر أن هذه كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۝ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام، فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار.

٤٥- ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هرب ولا نهوض ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

٤٦- وقوله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح، من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة، في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله تعالى أعلم.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

٤٧- يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قد وسَّعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي.

٤٨- ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهداً لأهلها.

٤٩- ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج، سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له.

٥٠- ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجأوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٥١- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: لا تشركوا به شيئاً ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

٥٢- يقول تعالى مسلياً لنبيهﷺ، وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

٥٣- قال الله عز وجل: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم.

٥٤- قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني: فما نلومك على ذلك.

٥٥- ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة.

٥٦- ثم قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي، طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

٥٧- وقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول اللهﷺ ﴿إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي[1]. ومعنى الآية: أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه، وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذَّبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاجٍ إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ- يعني قال الله تعالى -: «يا ابن آدم تفرَّغ لعبادتي، أملأ صدرك غِنىً، وأسدُّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك» ورواه الترمذي وابن ماجة.

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى: ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلاتتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

٥٩- وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقعٌ لا محالة.

٦٠- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

****

(١) قراءة ابن مسعود رضي الله عنه هذه شاذة، لمخالفتها رسم المصحف، وإن صح سندها، لكن يستفاد منها الأحكام، دون أن يقرأ بها في الصلوات وغيرها، كما قرره أهل العلم.

ترتيبها ٥٢ | سورة الطور ـ مكية | آياتها ٤٩

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه: سمعت النبيﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. أخرجاه.

وروى البخاري: عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول اللهﷺ أني أشتكي فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت ورسول اللهﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾

١- يقسم تعالى بمخلوقاته، الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور: هو الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، ومالم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له: جبل.

٢- ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة، التي تقرأ على الناس جهاراً.

٣، ٤- ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۞ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رُفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعني يتعبدون فيه، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليلعليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم.

ثم روى ابن جرير: عن علي بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء علياً عن البيت المعمور، قال: مسجد في السماء يقال له: الضُّراح، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبداً. ورواه من حديث أبي الطفيل عن علي بمثله، وقال العوفي عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون إليه، وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف.

٥- وقوله تعالى: ﴿والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ روى سفيان الثوري: عن علي: ﴿والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني أنه سقف لجميع المخلوقات. وله اتجاه، وهو مراد مع غيره، كما قاله الجمهور.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً، كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج، محيطة بأهل الموقف. ورواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب، وروي عن ابن عباس، وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبيد الله بن عمير وغيرهم.

وعن سعيد بن جبير ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعني: المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء، واختاره ابن جرير، ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم، فهو مملوء. وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض، لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه يقول السدي وغيره.

٧، ٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: لواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن: عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوماً[1].

٩- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكاً، وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله، وموج بعضها في بعض، وهذا اختيار ابن جرير: أنه التحرك في استدارة.

١٠- ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ أي: تذهب فتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً.

١١- ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويلٌ لهم ذلك اليوم، من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم.

١٢- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً.

١٣- ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يدفعون ويساقون ﴿إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾ وقال مجاهد والشعبي ومحمد بن كعب والضحاك والسدي والثوري: يُدفعون فيها دفعاً.

١٤- ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تقول لهم الزبانية ذلك، تقريعاً وتوبيخاً.

١٥، ١٦- ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها دخول مَن تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها، أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها، ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلاً بعمله.

---

(١) وفي سماع الحسن من عمر رضي الله عنه نظر.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) ﴾

١٧- أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال.

١٨- ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن ومراكب، وغير ذلك ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

١٩- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ روى الثوري: عن ابن عباس: السُّرر في الحجال. ومعنى ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسان من الحور العين، وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾

٢١- يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه، ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان، يُلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإنْ لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ روى الثوري: عن ابن عباس: قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرَّ بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وأبو صالح والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد، وهو اختيار ابن جرير، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» إسناده صحيح، ولم يخرجوه من

هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له».

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء، من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، فقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتهن بعمله، لا يُحمل عليه ذنبُ غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ◆ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ◆ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ◆ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٢٢- وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

٢٣- وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون فيها كأساً، أي: من الخمر. قاله الضحاك ﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أي: هذيان، ولا إثم، أي: فحش، كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا، قال ابن عباس: اللغو الباطل، والتأثيم الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون.

وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان، فنزَّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها - كما تقدم - فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة، المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها، فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ◆ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ وقال: ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون، في حسنهم وبهائهم، ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ◆ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: أقبلوا يتحادثون، ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم، إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم.

٢٦- ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: كنا في الدار الدنيا - ونحن بين أهلينا - خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه.

٢٧- ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي: فتصدَّق علينا، وأجارنا مما نخاف.

٢٨- ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نتضرع إليه فاستجاب لنا، وأعطانا سؤالنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ◆ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنَّ علينا وَقِنَا عذابَ السَّموم، إنك أنت البَرُّ الرَّحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ

(٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)﴾

٢٩- يقول تعالى آمراً رسولهﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: لست بحمد الله بكاهن، كما تقول الجهلة من كفار قريش، والكاهن: الذي يأتيه الرَّئِي من الجان، بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.

٣٠- ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسولﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي: قوارع الدهر، والمنون: الموت، يقولون: ننتظره ونصبر عليه، حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه.

٣١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة، في الدنيا والآخرة.

٣٢- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾ أي: عقولهم تأمرهم بهذا، الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة، التي يعلمون في أنفسهم أنها كذبٌ وزور ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم طاغون، ضلالٌ معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

٣٣- وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون: القرآن، قال الله تعالى: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة.

٣٤- ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم «تقوله» وافتراه، فليأتوا بمثل ما جاء به محمدﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)﴾

٣٥- هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. روى البخاري: عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبيﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ◆ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ◆ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبيﷺ بعد وقعة بدر في فداء

الأسارى، وكان إذْ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة، من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

٣٦- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك.

٣٧- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: أهم يتصرفون في الملك، وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك، بل الله عز وجل هو المالك المتصرف، الفعال لما يريد.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: مرقاة إلى الملإ الأعلى ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة، على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أي: ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل.

٣٩- ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

٤٠- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾ أي: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أي: لست تسألهم على ذلك شيئاً ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم.

٤١- ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم مِن أهل السموات والأرض الغيب إلا الله.

٤٢- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريدُ هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين، غرور الناس، وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون.

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا إنكارٌ شديد على المشركين، في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله.

ثم نزَّه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً﴾ أي: عليهم يعذبون به لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا سحاب مركوم، أي: متراكم، وهذا كقوله

تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

٤٥- وقال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: دعهم يا محمد ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيامة.

٤٦- ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم، الذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا خُلِّي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوإ ما كانوا عليه، وفي الأثر الإلهي: «كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله تعالى، يا عبدي كم أعاقبك وأنت لا تدري؟»[1].

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أي: إلى الصلاة: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

وقد روي مثله عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما، وروى مسلم في صحيحه: عن عمر: أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة. ورواه أحمد وأهل السنن: عن أبي سعيد وغيره عن النبيﷺ أنه كان يقول ذلك.

وقال أبو الجوزاء ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير، ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت: عن رسول اللهﷺ قال: «مَنْ تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإنْ عزم فتوضأ، ثم صلى قُبلت صلاته». وأخرجه البخاري في صحيحه وأهل السنن.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس، وروى الثوري: عن أبي الأحوص قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه، قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقد وردت أحاديث مسندة، من طرق يقوي بعضها بعضاً بذلك، فمن ذلك حديث أبي هريرة: عن النبيﷺ أنه قال: «من جَلَس في مجلس فكثُر فيه لغطُه، فقال قبل أن يقومَ من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك» رواه الترمذي وهذا لفظه، والنسائي في اليوم والليلة، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: إسناده على شرط مسلم.

---

(١) من أخبار بني إسرائيل

وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة، بذكر طرقه وألفاظه وعلله وما يتعلق بها، ولله الحمد والمنة.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: اذكره واعبده بالتلاوة، والصلاة في الليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما: الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحهما للغيبوبة.

وقد ثبت في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر، وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

آخر تفسير سورة الطور

****

ترتيبها ٥٣ | سورة النجم ـ مكية | آياتها ٦٢

روى البخاري: عن عبد الله قال: أول سورة أُنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ قال: فسجد النبيﷺ وسَجد مَن خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه! فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع ومسلم وأبو داود والنسائي.

وقوله في الممتنع أنه: أمية بن خلف، في هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه: عتبة ابن ربيعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾

١- قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، رواه ابن أبي حاتم. واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: يعني: بالنجم، الثريا إذا سقطت مع الفجر، وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري، واختاره ابن جرير، وزعم السدي أنها: الزهرة. وقال الضحاك ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا رُمي به الشياطين، وهذا القول له اتجاه.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ يعني: القرآن إذا نزل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٢- وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسولﷺ بأنه راشد، تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي: هو العالم بالحق، العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال، كالنصارى وطرائق اليهود، وهي علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو - صلاة الله وسلامه عليه - وما بعثه الله به من الشرع العظيم، في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد.

٣- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: ما يقول قولاً عن هوى وغرض.

٤- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي: إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً، من غير زيادة ولا نقصان، كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: كنتُ أكتبُ كل شيء أسمعه من رسول اللهﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول اللهﷺ، ورسول اللهﷺ بشرٌ يتكلم في الغضب، فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول اللهﷺ فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا الحق» ورواه أبو داود.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول اللهﷺ أنه قال: «لا أقول إلا حقاً» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ ﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمدﷺ، أنه علَّمه الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ وهو: جبريلعليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

٦- وقال ههنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة، قاله مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن، ولا منافاة بين القولين، فإنهعليه السلام ذو منظر حسن، وقوة شديدة، وقد ورد في الحديث الصحيح: من رواية ابن عمر وأبي هريرة: أن النبيﷺ قال: «لا تحلُّ الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي». وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يعني: جبريلعليه السلام. قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس.

٧، ٨- ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني: جبريل استوى في الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد.

قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار. وكذا قال ابن زيد وغيرهم.

وقد قال ابن جرير ههنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي: هذا الشديد القوي ذو المرة، هو ومحمدﷺ بالأفق الأعلى، أي: استويا جميعاً بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء. كذا قال! ولم يوافقه أحدٌ على ذلك.

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك، فإنَّ هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول اللهﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريلعليه السلام وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة، بعد ما جاءه جبريلعليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ، ثم فتر الوحي فترة، حتى تبدى له جبريل ورسول اللهﷺ بالأبطح، في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، قد سدَّ عِظَمُ خلقه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمر به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاء بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله أنه قال: رأى رسول اللهﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح كل جناح منها، قد سدَّ الأفق، يسقط من جناحه من التَّهَاويل[1] والدُّر والياقوت، ما الله به عليم. انفرد به أحمد.

٩- وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمدﷺ قاب قوسين، أي: بقدرهما إذا مُدَّا. قاله مجاهد وقتادة، وقد قيل: إن

---

(١) التهاويل: الأشياء المختلفة الألوان، ومنه يقال لما يخرج في الرياض من ألوان الزهر: التهاويل (النهاية)

المراد بذلك بُعد ما بين وَتَر القوس إلى كبدها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة، لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عليه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها، أو تزيد عليها في الشدة والقسوة، وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: ليسوا أقل منها، بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها.

فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع ههنا وهكذا هذه الآية ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني، الذي صار بينه وبين محمد ﷺ إنما هو جبريل عليه السلام، وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى.

وروى ابن جرير: عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ جبريل له ستمائة جناح» (وروى البخاري نحوه).

وروى ابن جرير: عن عبد الله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حُلتا رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض.

١٠- فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح.

١١، ١٢- وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ روى مسلم: عن أبي العالية عن ابن عباس ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين. وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين أو مرة، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روي عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر! والله أعلم.

وروى النسائي: عن عكرمة عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخُلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد عليهم السلام.

وفي صحيح مسلم: عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيتَ ربك؟ فقال: «نوراني أُراه» وفي رواية: «رأيتُ نوراً».

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عز وجل» فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام، كما رواه الإمام أحمد أيضاً: عن أبي قلابة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا، فوضع يده بين كتفي، حتى وجدتُ بَردها بين ثديي - أو قال نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا

محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات، قال: وما الكفارات؟ قال: قلت: المُكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة، أن تقبضني إليك غير مفتون، قال: والدرجات: بذل الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام» وقد تقدم في آخر سورة ص عن معاذ نحوه. وقد رواه ابن جرير.

١٣ – ١٥ – وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ هذه هي المرة الثانية، التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خَلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها، في أول سورة سبحان، بما أغنى عن إعادته ههنا. وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم. وروى الإمام أحمد: عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التَّهاويل، من الدُّر والياقوت» وهذا إسناد جيد قوي.

وروى أحمد: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام في خضر، معلقٌ به الدُّر» إسناد جيد أيضاً.

وروى الإمام أحمد: عن عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله، لقد قفَّ شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث، من حدَّثكهن فقد كذب: من حدَّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ الآية، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن مسروق قال: كنت عند عائشة، فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل، لم يره في صورته التي خُلِق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض، ساداً عِظَمَ خلقه ما بين السماء والأرض» أخرجاه في الصحيحين.

رواية أبي ذر: روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأى ربه عز وجل؟ فقال: إني قد سألته، فقال: «قد رأيته نوراً أنى أراه» هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم.

وروى النسائي: عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وقد ثبت في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام.

وقال مجاهد في قوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين، وكذا قال

قتادة والربيع بن أنس وغيرهم.

١٦- وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء: أنه غشيتها ألوان ما أدري ما هي؟ وروى الإمام أحمد: عن عبد الله هو بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراشٌ من ذهب. قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: «أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات» انفرد به مسلم.

١٧- وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذهب يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَغَى﴾ ما جاوز ما أمر به وهذه صفةٌ عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى، وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنةَ المأوى وما فوقَها ولو رأى غيرُه ما قد رآه لتاها

١٨- وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ كقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين، استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان رأى ربه، لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس؛ وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)﴾

١٩، ٢٠- يقول تعالى مقرعاً للمشركين، في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ﴾ وكانت اللات: صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، حوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم «الله» فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس: أنهم قرءوا «اللاتّ» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلاً يلتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وروى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ قال: كان اللات رجلاً يلتُّ السويق، سويق الحاج.

قال ابن جرير: وكذا «العزى» من العزيز، وكانت شجرةً عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول اللهﷺ: «قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم».

وروى البخاري: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «مَن حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه تعالَ أقامرك، فليتصدَّق». فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية.

وأما مناة فكانت بالمُشلَّل - عند قديد بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري: عن عائشة نحوه، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظِّمها العرب كتعظيم الكعبة، غير هذه الثلاثة التي نصَّ عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذِّكر لأنها أشهر من غيرها.

روى النسائي: عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول اللهﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبيﷺ فأخبره، فقال: «ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها، أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على رأسها فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول اللهﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى».

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني معتب. قلت: وقد بعث إليها رسول اللهﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، فبعث رسول اللهﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها، ويقال: علي بن أبي طالب، قال: وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، والكعبة التي بمكة الكعبة الشامية، فبعث إليه رسول اللهﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه. قال: وكانت «قَلْس» لطي ومن يليها بجبل طي بين سلمى وأجا.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾.

٢١، ٢٢- ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ أي: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى؟ وتختارون لأنفسكم الذكور! فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي: جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة، التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً؟

٢٣- ثم قال تعالى منكراً عليهم، فيما ابتدعوه وأحدثوه، من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ أي: ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم، وتعظيم آبائهم الأقدمين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة، ومع

هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به، ولا انقادوا له.

٢٤- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ودَّ شيئاً يحصل له.

٢٥- وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله؟ وهو تعالى لم يَشرع عبادتها، ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟!

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾

٢٧- يقول تعالى منكراً على المشركين، في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، تعالى الله عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

٢٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه، بل هو كذبٌ وزور وافتراء، وكفر شنيع ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ أي: لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث».

٢٩- وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: أعرض عن الذي أعرض عن الحق وهجره. وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وإنما أكثر همه، ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه.

٣٠- ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها، هو غاية ما وصلوا إليه. وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبداً، لا في شرعه، ولا في قدره.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٤٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه: «اللهمَّ اقسِمْ لنا من خَشيتِكَ، ما يحول بيننا وبين معصيتك، . . . . » الحديث.

٣١- يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي: يجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٣٢- ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات الكبائر، وإنْ وقع منهم بعض الصغائر، فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ وقال ههنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ وهذا استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب، ومحقرات الأعمال.

روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة عن النبيﷺ قال: «إنَّ الله تعالى كتبَ على ابن آدمَ حظَّه من الزنا، أدرك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النُّطق، والنَّفس تمنّى وتشتهي، والفرج يُصدِّق ذلك أو يكذِّبه» أخرجاه في الصحيحين.

وروى ابن جرير: عن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويُصدِّق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدَّم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم. وكذا قال مسروق والشعبي. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ إلا ما سلف، كذا قال زيد بن أسلم. وروى ابن جرير: عن مجاهد: أنه قال في هذه الآية ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه.

روى ابن جرير: عن ابن عباس ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب. وقال: قال رسول اللهﷺ:

إنْ تغفر اللهمَّ تَغفر جمّاً وأيُّ عبـــدٍ لـك ما ألما؟

وهكذا رواه الترمذي.

ثم روى ابن جرير: عن الحسن: عن أبي هريرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ أراه رفعه في ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمم من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، قال: فذلك الإلمام. وروى سفيان الثوري: عن ابن الزبير: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: ما بين الحدين حد الزنا وعذاب الآخرة، وكذا رواه شعبة عن الحكم عن ابن عباس مثله سواء. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات، فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا: فكل حدٍّ فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة: فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها، لمن تاب منها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أي: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم، وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم، وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير. وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قد كتب

المَلَك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد؟ قال مكحول: كنا أجنة في بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقي، ثم كنا مراضيع، فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يفعة، فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شباناً، فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً، لا أبالك فماذا بعد هذا تنتظر؟ رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تمدحوها وتشكروها، وتمنوا بأعمالكم ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾. وروى مسلم في صحيحه: عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسُمِّيتُ برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُزكُّوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب».

وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ويلك قطعتَ عُنُقَ صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالةَ، فليقل: أحسبُ فلاناً - واللهُ حسيبه ولا أزكي على الله أحداً - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك» وكذا رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب، ويقول: أَمَرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين، أن نحثو في وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١)﴾

٣٣- يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله، فلا صدَّق ولا صلى، ولكن كذَّب وتولى.

٣٤- ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: أكدينا، ويتركون العمل.

٣٥- وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عياناً؟ أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة، بُخلاً وشُحّاً وهلعاً، ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

٣٦، ٣٧- وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ قال سعيد بن جبير

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء الأول (ص ١٧٦).

والثوري: أي: بلَّغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس ﴿وَفَّى﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبير ﴿وَفَّى﴾ ما أُمر به، وقال قتادة ﴿وَفَّى﴾ طاعة الله، وأدَّى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً، يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٣٨- ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى، فقال: ﴿أَنْ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب، فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

٣٩- ﴿وَأَن لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يَحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه: أن القراءة لا يَصِل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة، فذاك مجمعٌ على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولدٍ صالحٍ يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به».

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكلَ الرجلُ من كسبه، وإنَّ ولده من كسبه» (١). والصدقة الجارية كالوقف ونحوه، هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ الآية. والعلم الذي نشره في الناس، فاقتدى به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً».

٤٠- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي: يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم به ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إنْ خيراً فخير، وإن شرا فشر.

٤١- وهكذا قال ههنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾ أي: الأوفر.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٢٨) والترمذي (١٣٥٨) والنسائي (٧/ ٢٤١) وابن ماجة (٢٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

٤٢- يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المعاد يوم القيامة.

وفي الصحيح: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَن خَلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خلق ربك؟! فإذا بَلغ أحدُكم ذلك فليستعذ بالله، ولينته».

٤٣- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي: خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما، وهما مختلفان.

٤٤- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

٤٥، ٤٦- ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

٤٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي: كما خلق البداءة، هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة.

٤٨- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي: ملَّك عباده المال، وجعله لهم قنية مقيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما. وعن مجاهد ﴿أَغْنَىٰ﴾ موَّل ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أخدم. وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً: ﴿أَغْنَىٰ﴾ أعطى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ رَضَّى.

٤٩- وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقَّاد، الذي يقال له: مِرزَم الجوزاء، كانت طائفة من العرب يعبدونه.

٥٠- ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود، ويقال لهم: عاد ابن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم، على الله تعالى وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعة.

٥١- وقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ أي: دمَّرهم فلم يبق منهم أحداً.

٥٢- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: أشد تمرداً من الذين من بعدهم.

٥٣- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعني: مدائن قوم لوط قَلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

٥٤- ولهذا قال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

٥٥- ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة، وقال ابن جريج. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ يا محمد، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا

الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴾

٥٦- ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ أي: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

٥٧- ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي: اقتربت القريبة، وهي القيامة.

٥٨- ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه. والنذير الحذر لما يُعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنِّي نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. وفي الحديث: «أنا النذير العريان» أي: الذي أعجله شدةُ ما عاين من الشر، عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً، وهو مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي: اقتربت القريبة، يعني: يوم القيامة، كما قال في أول السورة التي بعدها ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومُحقَّرات الذنوب، فإنما مثلُ محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن وادٍ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه».

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَل الساعة كهاتين» وفرَّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان» ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل رجلٍ بعثه قومه طليعةً، فلما خشي أن يُسبق، ألاح بثوبه: أُتيتم أُتيتم» ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك». وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان.

٥٩، ٦٠- ثم قال تعالى منكراً على المشركين، في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾.

٦١- وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ رُوي عن ابن عباس قال: الغناء، هي يمانية، اسمد لنا: غن لنا. وكذا قال عكرمة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿سَامِدُونَ﴾ معرضون، وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال الحسن: غافلون، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون، وبه يقول السدي.

٦٢- ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي: فاخضعوا له، وأخلصوا ووحدوه.

روى البخاري: عن ابن عباس قال: سَجَد النبي ﷺ بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده، فرفعتُ رأسي فأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه. وقد رواه النسائي في الصلاة.

آخر تفسير سورة النجم

****

ترتيبها ٥٤ — سورة القمر ـ مكية — آياتها ٥٥

قد تقدم في حديث أبي واقد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر. وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ ﴾

١ - يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: **﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾** وقال: **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾** وقد وردت الأحاديث بذلك.

روى الحافظ أبو بكر البزار: عن أنس: أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شِفٌّ يسير، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» وما نرى من الشمس إلا يسيراً.

(حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره): روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى، إلا كما بقي من النهار فيما مضى».

وروى الإمام أحمد: عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى. أخرجاه.

وروى الإمام أحمد: عن إسماعيل بن عبيد الله قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين» تفرد به أحمد رحمه الله.

وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح: في أسماء رسول الله ﷺ أنه: الحاشر، الذي يُحشر الناس على قدميه.

وروى الإمام أحمد: عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان - قال بهز: وقال قبل هذه المرة: خطبنا رسول الله ﷺ - قال: فحمد الله تعالى وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد، فإنَّ الدنيا قد آذنت بصرْم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذُكر لنا: أن الحجر يُلقى من شَفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاماً ما يُدرك لها قعراً، والله لتملؤنه أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتينَّ

عليه يومٌ وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح: عن ابن مسعود أنه قال: «خمسٌ قد مضين: الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر» وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، أي: انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

رواية أنس بن مالك: روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ورواه مسلم.

ورواه البخاري: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما.

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: روى البخاري: عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ. ورواه البخاري أيضاً ومسلم. وروى ابن جرير: عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ❁ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شِقيه. وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا.

رواية عبد الله بن عمر: روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن مجاهد: عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين: فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد» وهكذا رواه مسلم والترمذي.

رواية عبد الله بن مسعود: روى الإمام أحمد: عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا» وهكذا رواه البخاري ومسلم.

وروى أبوداود الطيالسي: عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سِحر ابن أبي كبشة! قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السُّفَّار فقالوا ذلك.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أي: دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يُعْرِضُوا﴾ أي: لا ينقادوا له، بل يعرضون عنه، ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج، سِحْرٌ سحرنا به. ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، أي: باطل مضمحل، لا دوام له.

٣- ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمَرتهم به آراؤهم وأهواؤهم، من جهلهم وسخافة عقلهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: يوم القيامة. وقال السدي: مستقر أي: واقع.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسل، وما حلَّ بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه واعظٌ لهم عن

الشرك، والتمادي على التكذيب.

٥- وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي: في هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ﴾ يعني: أي شيء تغني النذر، عمن كَتَبَ الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾

٦- يقول تعالى: فتول يا محمد، عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا، ويقولوا: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال.

٧- ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ وهي: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: كأنهم في انتشارهم، وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي، جراد منتشر في الآفاق.

٨- ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يوم شديد الهول، عبوس قمطرير ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾

٩- يقول تعالى: كذبت قبل قومك يا محمد، قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: صرحوا له بالتكذيب، واتهموه بالجنون ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد ﴿وَازْدُجِرَ﴾: أي: استطير جنوناً، وقيل: وازدجر، أي: انتهروه وزجروه وتواعدوه، لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن.

١٠- ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أي: إني ضعيفٌ عن هؤلاء، وعن مقاومتهم، فانتصر أنت لدينك.

١١- قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قال السدي: وهو الكثير.

١٢- ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ أي: نَبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التنانير التي هي محالُّ النيران، نبعت عيوناً ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: من السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: أمر مقدَّر. وروى ابن أبي حاتم: أن ابن الكواء سأل علياً عن المجرة، فقال: هي شَرْجُ[1] السماء، ومنها فُتحت السماء بماء منهمر.

١٣- ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد: هي

(١) الشرج: مسيل الماء، وجمعه شراج.

المسامير. واختاره ابن جرير قال: وواحدها دسار، ويقال: دسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبُك، وقال: مجاهد: الدسر أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج، وقال الضحاك: الدسر طرفاها وأصلها.

١٤- وقوله: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**﴾ أي: بأمرنا بمرأى منا، وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿**جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ**﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح ﷺ.

١٥- وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً**﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك: جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾. ولهذا قال ههنا ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ أي: فهل من يتذكر ويتعظ. روى الإمام أحمد: عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾: وهكذا رواه البخاري.

ورواه عن أبي إسحاق: أنه سمع رجلاً سأل الأسود: فهل من مذكر أو مدكر؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾. وقال سمعت رسول الله يقرؤها: ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ دالاً، وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجة.

١٦- وقوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذَّب رسلي؟ ولم يتعظ بما جاءت به نذري؟ وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر؟

١٧- ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾. وقال تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً**﴾ قال مجاهد ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ يعني: هوَّنّا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

قلت: ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن، ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن، الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد ابن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟

روى ابن أبي حاتم: عن مطر هو الوراق في قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ هل من طالب علم فيُعان عليه. وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق، ورواه ابن جرير، وروى عن قتادة مثله.

﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)**﴾

١٨، ١٩- يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود، أنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه

تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ وهي: الباردة الشديدة البرد ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: عليهم، قاله الضحاك وقتادة والسدي ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي.

٢٠ - ٢٢- وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض فتثلغ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾

٢٣- وهذا إخبار عن ثمود، أنهم كذبوا رسولهم صالحاً.

٢٤- ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا، إنْ سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا.

٢٥- ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: متجاوز في حد الكذب.

٢٦- قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديدٌ، ووعيد أكيد.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً لهم، أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء، طبقَ ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم، في تصديق صالح ﷺ فيما جاءهم به. ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة.

٢٨- ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم لهم ويوم للناقة، كقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.

٢٩، ٣٠- ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه: قُدار بن سالف، وكان أشقى قومه، كقوله: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي: خسر ﴿فَعَقَرَ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي؟ وتكذيبهم رسولي؟

٣١، ٣٢- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي: فبادوا عن آخرهم، لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا، كما يهمد يبيس الزروع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين، والمحتظر: قال السدي: هو المرعى بالصحراء، حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً

على الإبل والمواشي من يبيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾

٣٣- يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط، كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود.

٣٤- ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي: الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، ولا رجلٌ واحد، حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم، سالماً لم يمسسه سوء.

٣٥- ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾.

٣٦- ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم، قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكُّوا فيه وتماروا به.

٣٧- ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، في صور شباب مُردٍ حسان، محنة من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعثتْ امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب - وذلك عشية - ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءهم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا فيهن أرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

فلما اشتد الحال، وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم، يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسَّسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح.

٣٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه.

٣٩، ٤٠- ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾

٤١، ٤٢- يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه، أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة

إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة، وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي: فأبادهم الله، ولم يبق منهم مخبرٌ ولا عين ولا أثر.

٤٣- ثم قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أي: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ﴾ يعني: من الذين تقدم ذكرهم، ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب أأنتم خير أم أولئكم؟ ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال.

٤٤- ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء.

٤٥، ٤٦- قال الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي: سيفترق شملهم ويغلبون.

روى البخاري: عن ابن عباس: أن النبيﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئتَ لم تُعبد بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكرؓ بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ وكذا رواه البخاري والنسائي.

وروى البخاري: عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، فقالت: نزل على محمدﷺ بمكة، وإني لجارية ألعب ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ هكذا رواه ههنا مختصراً، ورواه في فضائل القرآن مطولاً، ولم يخرجه مسلم.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾

٤٧- يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك، من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

٤٨- ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي: كما كانوا في سعر وشك وتردد، وأورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي: قدَّر قدراً، وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة: على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل تبرمها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات، على الفرقة القدرية، الذين نَبَغُوا في أواخر عصر الصحابة، وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً، وما ورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» رحمه الله، ولنذكر ههنا الأحاديث المتعلقة

بهذه الآية الكريمة :

روى أحمد : عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبيﷺ يخاصمونه في القدر ، فنزلت : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجة .

وروى الإمام أحمد : عن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر : إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إليَّ ، فإني سمعت رسول اللهﷺ يقول : «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر» ورواه أبو داود .

وروى أحمد : عن عبد الله بن عمر أن رسول اللهﷺ قال : «لكل أمةٍ مجوس ، ومجوس أمتي الذين يقولون : لا قَدَر ، إنْ مرضوا فلا تعُودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

وروى الإمام أحمد : عن ابن عمر قال : قال رسول اللهﷺ : «كل شيء بقَدَر ، حتى العَجز ، والكَيس» ورواه مسلم .

وفي الحديث الصحيح : «استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمرٌ فقل : قدَّر الله وما شاء فعل ، ولا تقل : لو أني فعلت لكان كذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان» .

وفي حديث ابن عباس : أن رسول اللهﷺ قال له : «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ، لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفَّت الأقلام ، وطويت الصحف» .

وروى الإمام أحمد : عن عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال : دخلت على عبادة وهو مريض أتخايَلُ فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني ، فلما أجلسوه قال : يا بنيَّ إنك لم تطعم طعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله ، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت يا أبتاه ، وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدرِ وشره؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليُصيبك ، وما أصابكَ لم يكن ليخطئك ، يا بني ، إني سمعت رسولَ اللهﷺ يقول : «إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم ، ثم قال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني ، إنْ متَّ ولستَ على ذلك ، دخلت النار . ورواه الترمذي .

وقد ثبت في صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول اللهﷺ : «إنَّ الله كتبَ مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب : «وكان عرشه على الماء» ورواه الترمذي .

٥٠- وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم .

فقال : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ أي : إنما نأمر بالشيء مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد اللهُ أمراً فإنما　　　يقول له : كن قولةً فيكون

٥١- وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني : أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة ، المكذبين

بالرسل ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدَّر لهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: مكتوب عليهم في الكتب، التي بأيدي الملائكة عليهم السلام.

٥٣- ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد روى الإمام أحمد: عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشةُ، إياك ومُحقَّرات الذنوب، فإنَّ لها من الله عز وجل طالباً» ورواه النسائي وابن ماجة.

وقد قال بعضهم:

لا تحقِرَنَّ من الـذُّنوب صَـغيراً ... إنَّ الصَّغيرَ غَـداً يعـودُ كَبيراً
إنَّ الصَّغيرَ ولو تقـادم عَـهـده ... عند الإله مسطراً تسـطـيراً
فازجُرْ هواكَ عن البطالة لا تكن ... صعب القياد وشمِّرن تشميراً
إن المحب إذا أحب إلــهــه ... طـار الفـؤاد وألهـم التفكيرا
فاسأل هـدايتك الإله بـنيـَّةٍ ... فكفى بربك هادياً ونصيـراً

٥٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.

٥٥- وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم، الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون.

وقد روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند اللهِ على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يَعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» انفرد بإخراجه مسلم والنسائي.

آخر تفسير سورة القمر

****

ترتيبها ٥٥ سورة الرحمن ـ مكية آياتها ٧٨

روى الإمام أحمد: عن زر أن رجلاً قال: كيف تعرف هذا الحرف ﴿مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أو: أسن؟ فقال: كل القرآن قد قرأت، قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة! فقال: أهذاً كهذ الشعر لا أبا لك؟ قد علمتُ قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين، من أول المفصل. وكان أول مفصل ابن مسعود (الرحمن).

وروى أبو عيسى الترمذي: عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتُها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسنَ مردوداً منكم، كنتُ كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد». ورواه الحافظ أبو بكر البزار.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ
ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

١ - ٤- يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه، أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على مَن رحمه، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني: الخير والشر. وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها، من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

٥- وقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان متعاقبين، بحساب مقنن، لا يختلف ولا يضطرب ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروي عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض. يعني: من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله تعالى. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء، وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر - والله أعلم - لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي

﴿الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعني: العدل، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

٨- وهكذا قال ههنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل.

٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الأنام الخلق ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه، رطباً ويابساً و﴿الْأَكْمَامِ﴾ قال ابن جريج عن ابن عباس: هي أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه العنقود، ثم ينشق عن العنقود فيكون بُسْراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه.

وقيل: الأكمام: رفاتها وهو الليف الذي على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

١٢- ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: التبن. وقال العوفي عن ابن عباس: العصفُ ورقُ الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة والضحاك وأبو مالك: عصفه: تبنه، وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني: الورق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: والريحان: خضر الزرع، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما، له في حال نباته عصف، وهو ما على السنبلة، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها.

وقيل: العصف الورق أول ما ينبت الزرع بقلاً، والريحان والورق، يعني: إذا أدجن وانعقد فيه الحب.

١٣- وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي الآلاء - يا معشر الثقلين من الإنس والجن - تكذبان؟ قاله مجاهد وغير واحد، ويدل عليه السياق بعده. أي: النعم ظاهرة عليكم، وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به: اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد. وكان ابن عباس يقول: لا بأيها يا رب. أي: لا نكذب بشيء منها.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

١٤ ، ١٥ - يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهبها ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه يقول عكرمة ومجاهد والحسن وابن زيد . وقال العوفي عن ابن عباس ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ من لهب النار من أحسنها . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : من خالص النار . وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم . وروى الإمام أحمد : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وُصف لكم» ورواه مسلم .

١٦ - وقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره .

١٧ ، ١٨ - ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني : مشرقي الصيف والشتاء ، ومغربي الصيف والشتاء ، وقال في الآية الأخرى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس ، وتنقلها في كل يوم ، وبروزها منه إلى الناس ، وقال في الآية الأخرى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب ، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق ، من الجن والإنس ، قال : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

١٩ - ٢١ وقوله تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن عباس : أي : أرسلهما ، وقوله : ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن زيد ، أي : منعهما أن يلتقيا ، بما جعل بينهما من البرزخ ، الحاجز الفاصل بينهما ، والمراد بقوله : ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والحلو ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة الفرقان ، عند قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ .

٢٢ - وقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي : من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى ، كما قال تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن ، وقد صح هذا الإطلاق . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان : فقيل : هو صغار اللؤلؤ . قاله مجاهد وقتادة وأبو رزين والضحاك ، وروي عن علي ، وقيل : كباره وجيده ، حكاه ابن جرير عن بعض السلف . ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس . وروي مثله عن علي ، ومجاهد أيضاً ومرة الهمداني . وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون . روى السدي : عن عبد الله قال : المرجان الخرز الأحمر .

وأما قوله : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاللحم من كل من الأجاج والعذب ، والحلية إنما هي من المالح دون العذب . قال ابن عباس : ما سقطت قطرة من السماء في البحر فوقعت في صدفة ، إلا صار منها لؤلوة . وكذا قال عكرمة ، وزاد : فإذا لم تقع في صَدَفَة ، نبتت بها عنبرة . وروي من غير وجه عن ابن عباس نحوه .

وقد روى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها ، فما وقع فيها - يعني من قطر - فهو اللؤلؤ . إسناده صحيح .

٢٣ - ولما كان اتخاذ هذه الحلية ، نعمة على أهل الأرض ، امتن بها عليهم فقال : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعني: السفن التي تجري ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ قال مجاهد: ما رفعَ قلعه من السفن فهي منشآت، وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت. وقال قتادة: المنشآت يعني: المخلوقات، وقال غيره: المنشِآت بكسر الشين يعني: البادئات ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال في كِبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، بما فيه صلاحٌ للناس في جلب ما يحتاجون إليه، من سائر أنواع البضائع.

٢٥- ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾

٢٦- ٢٨- يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله، ولا يبقى أحدٌ سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى وتقدس لايموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان.

قال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة: بأنه ذو الجلال والإكرام، أي: هو أهلٌ أن يُجلّ فلا يُعصى، وأن يُطاع فلا يُخالف، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: ذو الجلال والإكرام، ذو العظمة والكبرياء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل، قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٩، ٣٠- وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن. عن عبيد بن عمير ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: من شأنه أن يُجيب داعياً، أو يُعطي سائلاً، أو يفكَّ عانياً، أو يشفي سقيماً. وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض، يُحيي حياً ويُميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم.

وقال ابن أبي حاتم: سويد بن جبلة هو الفزاري قال: إنَّ ربكم كل يوم في شأن، فَيُعتق رقاباً، ويعطي رغاباً، ويقحم عقاباً.

وروى ابن أبي حاتم: عن أم الدرداء: عن النبيﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويُفرِّج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين». وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة.

(قلت): وقد روي موقوفاً، كما علقه البخاري بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء، فالله أعلم.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٣٤ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾

٣١، ٣٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾: وعيدٌ من الله تعالى للعباد، وليس بالله شغلٌ وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغٌ لخلقه، وقال ابن جريج ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنقضي لكم. وقال البخاري: سنحاسبكم، لا يشغله شيءٌ عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرغن لك، وما به شغلٌ، يقول لآخذنك على غرتك.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾: الإنس والجن، كما جاء في الصحيح: «يسمعه كلُّ شيء إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الإنس والجن». ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٣، ٣٤- ثم قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيطٌ بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر؛ الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بأمر الله ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۞ كَلاَّ لا وَزَرَ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٥، ٣٦- ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: الشواظ: الدخان.

وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال أبو صالح: الشواظ هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان، وقال الضحاك ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾: سيل من نار.

وقوله تعالى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَنُحَاسٌ﴾: دخان النار، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد بن جبير وأبي سنان، وقال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاساً، بضم النون وكسرها، والقراءة مجمعة على الضم.

وقال مجاهد: النحاس الصفر المذاب، فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة وقال الضحاك ﴿وَنُحَاسٌ﴾: سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة، لردتكم الملائكة والزبانية، بإرسال اللهب من النار، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿فَلا تَنتَصِرَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ٣٧ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ٣٩ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ٤١ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ٤٤ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾

٣٧ ، ٣٨- يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة ، كما دلت عليه هذه الآية ، مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها ، كقوله : ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وقوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ وقوله : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ . وقوله تعالى : ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: تذوب كما يذوب الدَّرْدي والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء ، وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر ، وهول يوم القيامة العظيم . وقال الحسن البصري : تكون ألواناً . وقال مجاهد ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كألوان الدهان . وقال عطاء الخراساني : كلون دهن الورد في الصفرة . وقال قتادة : هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة ، يوم ذي ألوان . وقال أبو الجوزاء : في صفاء الدهن . وقال ابن جريج : تصير السماء كالدهن الذائب ، وذلك حين يصيبها حر جهنم .

٣٩ ، ٤٠- وقوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ۞ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فهذا في حال ، وثمَّ في حال لا يُسئل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال الله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولهذا قال قتادة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ قال : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، وقد قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا؟ فهذا قول ثان .

وقال مجاهد في هذه الآية : لا تسأل الملائكة عن المجرم ، يُعرفون بسيماهم . وهذا قول ثالث ، وكأن هذا بعد ما يُؤمر بهم إلى النار ، فذلك الوقت لا يسئلون عن ذنوبهم ، بل يقادون إليها ويلقون فيها .

٤١ ، ٤٢- كما قال تعالى : ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي : بعلامات تظهر عليهم .

وقال الحسن وقتادة : يعرفونهم باسوداد الوجوه ، وزُرقة العيون . قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

وقوله تعالى : ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ أي : يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ، ويلقونه في النار كذلك . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ، وقال السدي : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ، فتربط ناصيته بقدمه ، ويفتل ظهره .

٤٣- وقوله تعالى : ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي : هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً .

٤٤- وقوله تعالى : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي : تارة يعذبون في الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب ، يقطع الأمعاء والأحشاء ، وهذه كقوله تعالى : ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ ۞ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿آنٍ﴾ أي : حار ، قد بلغ الغاية في الحرارة ، لا يستطاع من شدة ذلك ، قال ابن عباس في قوله : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي : قد انتهى غليه ، واشتد حره . وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن والثوري والسدي . وقال محمد بن كعب القرظي : الحميم الآن يعني : الحار ، وعن القرظي رواية أخرى ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي : حاضر ، وهو قول ابن زيد أيضاً ، والحاضر لا ينافي ما روي عن القرظي أولاً

أنه: الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: حاضرة، شديدة الحر لا تستطاع، وكقوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ يعني: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: حميم حار جداً.

٤٥- ولما كان معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين، من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره له عن عذابه وبأسه، مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتناً بذلك على بريته ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) ﴾

٤٦، ٤٧- قال ابن شوذب وعطاء الخراساني نزلت هذه الآية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ في أبي بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: ولمن خاف مقام ربه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، ونهى النفس عن الهوى، ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري رحمه الله: عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس بن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «جنّتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود.

وروى ابن جرير: عن عطاء بن يسار أخبرني أبو الدرداء: أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإنْ زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإنْ زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي الدرداء» ورواه النسائي.

وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة، إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء، فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ❁ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٤٨، ٤٩- ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة، أن الأفنان: أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً. وحكى البغوي عن مجاهد وعكرمة والضحاك الكلبي: أنه الغصن المستقيم. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: ذواتا ألوان. قال: وروى سعيد بن جبير والحسن والسدي وخصيف والنضر بن عدي وأبي سنان مثل ذلك، ومعنى هذا القول: أن فيهما فنوناً من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فُنوناً من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ واسعتا الفناء.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ذواتا أفنان يعني: بسعتها وفضلها، ومزيتها على ما سواها.

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى فقال: «يسير في ظل الفَنن منها

الراكب مائة سنة - أو قال - يستظل في ظِلِّ الفنن منها مائة راكب ، فيها فَراش الذهب ، كأن ثمرها القِلال» ورواه الترمذي .

٥٠ ، ٥١- ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي : تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان ، فتثمر من جميع الألوان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصري : إحداهما يقال لها تسنيم والأخرى السلسبيل .

وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين ، ولهذا قال بعد هذا :

٥٢ ، ٥٣- ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي : من جميع أنواع الثمار ، مما يَعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطرَ على قلب بشر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الآخرة ، إلا الأسماء . يعني : أن بين ذلك بَوناً عظيماً ، وفرقاً بيناً في التفاضل .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴾

٥٤ ، ٥٥- يقول تعالى : ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ يعني : أهل الجنة . والمراد بالاتكاء ههنا : الاضطجاع ، ويقال : الجلوس على صفة التربيع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ من الديباج . قاله عكرمة والضحاك وقتادة ، وقال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزين بالذهب ، فنبَّه على شرف الظهارة بشرف البطانة ، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وعن عبد الله بن مسعود قال : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر؟ وقال مالك ابن دينار : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور ، وبنحوه قال سفيان الثوري أو شريك . وقال القاسم بن محمد : بطائنها من إستبرق وظواهرها من الرحمة ، وقال أبو عبد الله الشامي : ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر ، وعلى الظواهر المحاسن ، ولا يعلم ما تحت المحاسن إلا الله تعالى ، ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم رحمه الله .

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي : ثمرهما قريب إليهم ، متى شاءوا تناولوا على أي صفة كانوا ، كما قال تعالى : ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ وقال : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي : لا تمتنع ممن تناولها ، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

٥٦ ، ٥٧- ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك : ﴿فِيهِنَّ﴾ أي : في الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي : غضيضات عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن . قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراساني وابن زيد ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا في الجنة شيئاً أحب إليَّ منك ، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي : بل هنَّ أبكارٌ عرب أتراب ، لم يطأهن أحدٌ قبل أزواجهن ، من الإنس والجن .

وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة . قال أرطأة بن المنذر : سئل ضمرة بن حبيب : هل يدخل الجنُّ الجنة؟ قال : نعم وينكحون ، للجن جنيات ، وللإنس إنسيات ، وذلك قوله : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ

قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٥٨- ثم قال ينعتهن للخُطَّاب: **﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾** قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت، وبياض المرجان. فجعلوا المرجان ههنا: اللؤلؤ.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «للرجل من أهلِ الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

وقد رواه مسلم: عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا: الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسمﷺ: «إنَّ أول زُمرةٍ تدخل الجنة، على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوء كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماء، لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان، يُرى مخُّ ساقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد: عن أنس أن رسول اللهﷺ قال: «لغدوةٌ في سبيل الله أو روحة، خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ قوسِ أحدكم أو موضع قده - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعتْ امرأةٌ من نساء أهل الجنة إلى الأرض، لملأتْ ما بينهما ريحاً، ولطاب ما بينهما، ولنصيفُها على رأسها، خيرٌ من الدنيا وما فيها» ورواه البخاري بنحوه.

٦٠- وقوله تعالى: **﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾** أي: لا لمن أحسن العمل في الدنيا، إلا الإحسان إليه في الآخرة، كما قال تعالى: **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾**.

٦١- ولما كان في الذي ذُكر نعمٌ عظيمة، لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾**.

ومما يتعلق بقوله تعالى: **﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾** ما رواه الترمذي والبغوي: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «من خاف أدلجَ، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ، ألا إنَّ سلعة الله الجنة».

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾

٦٢، ٦٣- هاتان الجنتان، دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: **﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾** وقد تقدم في الحديث: «جَنَّتان مِن ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما» فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين؛ قال أبو موسى. وقال ابن عباس **﴿وَمِن دُونِهِمَا**

﴿جَنَّتَانِ﴾ من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل.

والدليل على شرف الأولين على الأخريين وجوه: **أحدها:** أنه نعت الأوليين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني، وقال هناك ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وهي الأغصان، أو الفنون في الملاذ.

٦٤، ٦٥- وقال ههنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدة الري من الماء. قال ابن عباس: قد اسودّتا من الخضرة، من شدة الري من الماء، وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ قال: خضراوان. وروي عن أبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي أوفى وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في إحدى الروايات، وعطاء وعطية العوفي والحسن البصري ويحيى بن رافع وسفيان الثوري نحو ذلك. وقال محمد بن كعب ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الري ناعمتان.

ولا شك في نضارة الأغصان، على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض.

٦٥، ٦٦- وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقال ههنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: فياضتان. والجري أقوى من النضج، وقال الضحاك ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: ممتلئتان ولا تنقطعان.

٦٧، ٦٨- وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال ههنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولا شك أن الأولى أعم وأكثر، في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر، لشرفهما على غيرهما.

٧٠، ٧١- ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة، وقيل: خيرات جمع خيِّرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق، الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى، أن الحور العين يغنين: نحن الخيراتُ الحسان، خُلقنا لأزواج كرام، ولهذا قرأ بعضهم: ﴿فِيهِنَّ خَيِّراتٌ﴾ بالتشديد ﴿حِسَانٌ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٧٢، ٧٣- ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ ولا شك أن التي قد قَصَرت طرفها بنفسها، أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ روى البخاري: عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون» ورواه أيضاً، وقال: «ثلاثون ميلاً» وأخرجه مسلم.

٧٤، ٧٥- وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ قد تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٧٦- وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفرف: المحابس، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: هي المحابس، وقال العلاء بن زيد: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلي، وقال عاصم الجحدري ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعني: الوسائد. وهو قول الحسن البصري في رواية عنه. وروى أبو داود الطيالسي: عن سعيد بن جبير قال: الرفرف:

رياض الجنة.

٧٦، ٧٧- وقوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي: العبقري: الزرابي. وقال سعيد بن جبير: هي عتاق الزرابي يعني جيادها، وقال مجاهد: العبقري الديباج، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هي بُسُط أهلِ الجنة لا أبا لكم، فاطلبوها، وعن الحسن رواية أنها: المرافق، وقال زيد بن أسلم: العبقري أحمر وأصفر وأخضر، وسئل العلاء بن زيد عن العبقري، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حرزة يعقوب بن مجاهد: العبقري من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد، وقا أبو العالية: العبقري الطنافس المخملة، إلى الرقة ما هي، وقال القتيبي: كل ثوب موشى عند العرب عبقري، وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي، وقال الخليل بن أحمد: كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك، يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أر عبقرياً يفري فريه».

وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين، أرفع وأعلى من هذه الصفة، فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى.

٧٨- وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخيرتين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يُجلَّ فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذي العظمة والكبرياء.

وفي الحديث: «إنَّ من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السُّلطان، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه»(١).

وروى الحافظ أبو يعلى: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام» وكذا رواه الترمذي. ورواه أحمد والنسائي من حديث ربيعة بن عامر به.

وقال الجوهري: ألظَّ فلانٌ بفلان إذا لزمه، وقول ابن مسعود: ألظوا بياذا الجلال والإكرام، أي: الزموا، يقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر - والله أعلم - وهو المداومة واللزوم والإلحاح.

وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة: من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم لا يقعد - يعني بعد الصلاة - إلا بقدر ما يقول: «اللهمَّ أنتَ السلامُ، ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام».

آخر تفسير سورة الرحمن

****

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٣) بنحوه، والبخاري في الأدب (٣٥٧) والبيهقي (٨/ ١٦٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وله شاهد من حديث جابر رضي الله عنه، عند الطبراني في الأوسط - كما في مجمع البحرين (٢٥٤٩).

ترتيبها ٥٦ — سورة الواقعة ـ مكية — آياتها ٩٦

روى ابن عباس فقال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت قال: «شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» رواه الترمذي. وروى الإمام أحمد: عن جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف، كانت صلاتُه أخفَّ من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ﴾

١- الواقعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ◆ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾. ومعنى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ كما قال محمد بن كعب: لا بد أن تكون، وقال قتادة: ليس فيها مَثْنوية ولا ارتداد ولا رجعة، قال ابن جرير: والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية.

٣- وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين، إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء. هكذا قال الحسن وقتادة وغيرهما. وعن عثمان بن سراقة ابن خالة عمر بن الخطاب ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وقال محمد بن كعب: تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال السدي: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أسمعت القريب والبعيد، وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك وقتادة.

٤- وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: حُرِّكت تحريكاً، فاهتزت واضطربت بطولها

---

(١) المسند (٥/ ١٠٤) وفي بعض روايات الحديث قال: يقرأ (ق)، بدلاً من الواقعة.

وعرضها. ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أي: زلزلت زلزالاً، وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرجِّ الغربال بما فيه. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتتت فتّاً، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم، وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ روي عن علي رضي الله عنه: هباءً منبثاً كرهج الغبار، يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء. وقال العوفي عن ابن عباس: الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وقال عكرمة: المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته. وقال قتادة ﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ كيبيس الشجر الذي تذروه الرياح. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها، أي: قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قومٌ عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمالهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عياذاً بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه عز وجل، وهم أخصُّ وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين، الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين.

٨- ١٠- ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة، في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه، كما تقدم بيانه.

وقال مجاهد ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ يعني: فرقاً ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثة، وقال عثمان بن سراقة ابن خالة عمر بن الخطاب: اثنان في الجنة، وواحد في النار.

وقال محمد بن كعب وأبو حزرة يعقوب بن مجاهد ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الأنبياء عليهم السلام. وقال السدي: هم أهل عليين. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن سيرين ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الذين صلوا إلى القبلتين. ورواه ابن جرير. وقال الحسن وقتادة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أي: من كل أمة. وعن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيل الله.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين، هم المبادرون إلى فعل الخيرات، كما أمروا كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا، وسبقَ إلى فعل الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

١١ ، ١٢- ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦) ﴾

١٣ ، ١٤- يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين، أنهم ثلة، أي: جماعة من الأولين، وقليل من الآخرين، وقد اختلفوا في المراد بقوله: الأولين والآخرين، فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، وبالآخرين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري، رواها عنهما ابن أبي حاتم، وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» ولم يحك غيره، ولا عزاه إلى أحد.

وقد وردت طرق كثيرة متعددة، بقوله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة» الحديث بتمامه، وهو مفرد في صفة الجنة، ولله الحمد والمنة، وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر! بل هو قول ضعيف، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأمة. روى ابن أبي حاتم: عن الحسن أتى على هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فقال: أما السابقون فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين. ثم روى عنه فقال: قرأ الحسن ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ قال: ثلةٌ ممن مضى من هذه الأمة. وروي عن: محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ قال: كانوا يقولون أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة.

فهذا قول الحسن وابن سيرين، أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم، كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ القرون قرني[1] ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» الحديث بتمامه.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ أُمَّتي مَثلُ الْمَطَرِ، لاَ يُدْرَى أَوَّلُهُ خيرٌ أم آخِرُهُ»[2]. فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت للناس على السنة وروايتها، وإظهارها والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، فإنه لولاه ما نبت في الأرض، ولا تعلق أساسه فيها، ولهذا قال ﷺ: «لا تَزَال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم من خذلهم ولا مَن خالفهم، إلى

---

(١) سبق التنبيه على أن الحديث في الصحيحين وغيرهما بلفظ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي....» انظر الجزء الثاني (ص ٢٨٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٤٢) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني.

قيام الساعة» وفي لفظ: «حتى يأتي أمرُ الله تعالى وهم كذلك».

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظم نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر: أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وفي لفظ: «مع كل ألفٍ سبعون ألفاً».

١٥- وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: أي: مرمولة بالذهب، يعني: منسوجة به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم وقتادة والضحاك وغيره، وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت، وقال ابن جرير: ومنه يُسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول، لأنه مظفور، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ.

١٦- وقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحدٌ وراء أحد.

١٧- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون.

١٨- ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أما الأكواب: فهي الكيزان، التي لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق: التي جمعت الوصفين، والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عينٍ جارية مَعين، ليس من أوعيةٍ تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

١٩- وقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تصدع رؤوسهم، ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المُطربة، واللذة الحاصلة. وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع والقيء والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال. وقال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطية وقتادة والسدي ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس، وقالوا في قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تَذهب بعقولهم.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها. وروى الحافظ أبو يعلى: عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه، إذا لم يكن يعرفه، فإذا أُثني عليه معروف، كان أعجبَ لرؤياه إليه، فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأني أتيت فأُخْرِجْتُ من المدينة، فأدخلت الجنة، فسمعت وَجبة ارتجت لها الجنة فنظرت فإذا فلان بن فلان وفلان بن فلان، فسمَّت اثني عشر رجلاً كان النبي ﷺ قد بعثَ سرية قبل ذلك، فجيء بهم عليهم ثياب طُلسٌ، تَشْخَب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيذخ أو البيدح، قال: فغُمسوا فيه فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصَحفةٍ من ذهب فيها بُسر، فأكلوا من بُسره ما شاءوا، فما يقبلونها من وجهٍ إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلتُ معهم، فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، فأُصيب فلان وفلان، حتى عدَّ اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قُصِّي رُؤياك» فقصتها وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان، كما قال. هذا لفظ أبي يعلى قال الحافظ الضياء، وهذا على شرط مسلم.

٢١- ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ طيرَ الجنة

كأمثال البُخت، يرعى في شجر الجنة» فقال أبوبكر: يا رسول الله، إنَّ هذا لطير ناعمة، فقال: «أكَلَتُها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها» انفرد به أحمد من هذا الوجه.

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهرٌ أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العَسل، فيه طيورٌ أعناقها يعني كأعناق الجُزُر» فقال عمر: إنها لناعمة، قال رسول الله ﷺ: «آكلها أنعم منها» وكذا رواه الترمذي.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَحورٌ عِينٌ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله، كقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ◆ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ◆ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ◆ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ◆ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ◆ وَحُورٌ عِينٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وكما قال تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾. والاحتمال الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم: الحور العين، ولكن يكون ذلك في القصور لا بين بعضهم بعضاً، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين، والله أعلم.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، كما تقدم في سورة الصافات ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وقد تقدم في سورة الرحمن وصفهن أيضاً.

٢٤- ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا الذي أتحفناهم به، مجازاةً لهم على ما أحسنوا من العمل.

٢٥، ٢٦- ثم قال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ◆ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾ أي: لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، أي: عبثاً خالياً عن المعنى، أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾ أي: كلمة لاغية ﴿وَلاَ تَأْثِيماً﴾ أي: ولا كلاماً فيه قبح ﴿إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾ أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم.

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠) ﴾

٢٧- لما ذكر تعالى مآل السابقين، وهم: المقربون، عَطَف عليهم بذكر أصحاب اليمين، وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ إلى أي شيء أصحاب اليمين، وما حالهم وكيف مآلهم.

ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو الأحوص وقسامة ابن زهير والسفر بن قيس والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وأبو حزرة وغيرهم: هو الذي لا شوك فيه، وعن ابن عباس: هو الموقر بالثمر، وهو رواية عن عكرمة ومجاهد، وكذا قال قتادة أيضاً: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه، والظاهر أن المراد: هذا وهذا، فإنَّ سدر الدنيا كثير الشوك، قليل الثمر، وفي الآخرة على

العكس من هذا، لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما روى الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجاد: عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوما فقال: يا رسول الله، ذكرَ الله في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟» قال: السدر، فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضَد الله شوكه، فجعل مكانَ كلِّ شوكةٍ ثمرة، فإنها لتُنبتُ ثمراً تفتَّق الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لونٌ يُشبه الآخر».

٢٩- وقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: شجرٌ عِظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العضاه، واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك.

وقال مجاهد ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: مُتراكم الثمر، يذكِّر بذلك قريشاً، لأنهم كانوا يعجبون من «وَجٍّ» وظلاله من طلح وسدر. وقال السدي: منضود: مصفود. قال ابن عباس يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل، قال الجوهري. والطلح لغة في الطلع **(قلت)** وقد روى ابن أبي حاتم: عن شيخ من همدان قال: سمعت علياً يقول: هذا الحرف في ﴿طَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: طلع منضود. فعلى هذا يكون من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه مخضود، وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي سعيد ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: الموز، قال: وروي عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة وقسامة ابن زهير وأبي قتادة وأبي حزرة مثل ذلك، وبه قال مجاهد وابن زيد، وزاد فقال: أهل اليمن يسمون الموز الطلح، ولم يحكِ ابن جرير غير هذا القول.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ روى البخاري: عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرةً يسير الراكبُ في ظلِّها مائةَ عامٍ لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾» ورواه مسلم.

أخرج البخاري ومسلم: من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرةً، يسير الراكبُ الجوادَ المُضمَّر السريع مائةَ عام، ما يقطعها» فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواترٌ مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه وقوة أسانيده، وثقة رجاله.

وروى الترمذي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنةِ شجرةٌ، إلا ساقها ذهبٌ».

وقال الضحاك والسدي وأبو حزرة: لا ينقطع، ليس فيها شمسٌ ولا حر، مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سَجسَج، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقد تقدمت الآيات كقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ وقوله: ﴿فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

٣١- وقوله تعالى: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ قال الثوري: يجري في غير أخدود. وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية، بما أغنى عن إعادته ههنا.

٣٢، ٣٣- وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة، المتنوعة في الألوان، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم، وفي الصحيحين: في ذكر سدرة المنتهى «فإذا ورقها كآذان الفيلة، وَنبْقها مِثل قِلال هَجَر».

وفيهما أيضاً: من حديث ابن عباس قال: خَسَفت الشمسُ فصلى رسول اللهﷺ والناس معه، فذكر الصلاة، وفيه: قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تَكَعكَعْتَ، قال: إني رأيتُ الجنة فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

وروى الإمام أحمد: عن عتبة بن عبد السلمي يقول: جاء أعرابي إلى رسول اللهﷺ فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة. قال: نعم، وفيها شجرة تُدعى طُوبى. قال: فذكر شيئاً لا أدري ما هو، قال: أي شجر أرضنا تُشبه؟ قال: ليست تُشبه شيئاً من شجر أرضك؟ فقال النبيﷺ: «أتيتَ الشام؟» قال: لا، قال: تشبه شجرةً بالشام تُدعى الجَوزة، تَنبتُ على ساق واحد، ويَنفرشُ أعلاها. قال: ما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتر». قال: ما عِظمُ أصلها؟ قال: لو ارتحلتَ جذَعةً من إبل أهلكَ ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر تُرقوتها هَرماً. قال: فيها عنبٌ؟ قال: «نعم». قال: فما عِظم الحبة؟ قال: «هل ذبحَ أبوك تيساً من غَنمه قطُّ عظيماً؟» قال: نعم، قال: «فسلخ إهابه فأعطاه أمكَ، فقال: اتخذي لنا منه دلواً؟». قال: نعم، قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لتُشبعني وأهل بيتي؟ قال: «نعم وعامة عشيرتك».

وقوله تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تنقطع شتاءً ولا صيفاً، بل أُكُلُهَا دائمٌ مستمر أبداً، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء. وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عُودٌ ولا شوك ولا بُعد.

٣٤- وقوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: عالية وطيئة ناعمة.

٣٥- ٣٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا ۞ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ جرى الضمير على غير مذكور، لكن لما دل السياق، وهو ذكر الفرش، على النساء اللاتي يضاجعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهنَّ، وعاد الضمير عليهن، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۞ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني: الشمس على المشهور من قول المفسرين، وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك. وقال أبو عبيدة: ذكرن في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أي: أعدناهن في النشأة الأخرى، بعد ما كُنَّ عجائزَ رُمْصاً صرن أبكاراً عربا، أي: بعد الثيوبة عدن أبكاراً، عرباً: متحببات إلى أزواجهن، بالحلاوة والظرافة والملاحة، وقال بعضهم: عرباً: أي: غَنِجات.

وروى عبد بن حميد: عن الحسن قال: أَتت عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز» قال: فولَّت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾. وهكذا رواه الترمذي في الشمائل.

وروى عبد الله بن وهب: عن أبي هريرة عن رسول اللهﷺ أنه قال له: أنطأ في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده دَحْماً دَحْماً، فإذا قام عنها رجعت مطهَّرة بكراً».

وروى أبو داود الطيالسي: عن أنس قال: قال رسول اللهﷺ: «يُعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء» قلت: يا رسول الله، ويطيقُ ذلك؟ قال: «يُعطى قوة مائة» ورواه الترمذي.

وروى أبو القاسم الطبراني: عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، هل نصلُ إلى نسائنا في الجنة؟ قال:

«إنَّ الرجل ليصلُ في اليوم إلى مائة عذراء» قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

وقوله: ﴿عُرُبًا﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني: متحببات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة، هي كذلك، وقال الضحاك عن ابن عباس: العُرُب: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون. وكذا قال عبد الله بن سرجس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية ويحيى بن أبي كثير وعطية والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿عُرُبًا﴾ قال: هي المَلِقةُ لزوجها. وعن عكرمة: هي الغَنِجة. وعنه: هي الشَّكلة. وقال تميم بن حذلم: هي حسن التبعل، وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: العُرُب: حسنات الكلام.

وقوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: يعني في سن واحدة، ثلاثٍ وثلاثين سنة، وقال مجاهد: الأتراب المستويات، وفي رواية عنه: الأمثال، وقال عطية: الأقران، وقال السدي ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: في الأخلاق، المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغض ولا تحاسد، يعني: لا كما كُنَّ ضرائرَ متعاديات.

وروى الحافظ أبو يعلى: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الحُور العين ليُغنين في الجنة، يقلن نحن خيراتٌ حسانٌ، خُبِّئنا لأزواج كرام».

وقوله تعالى: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: خلقن لأصحاب اليمين، أو ادُّخرنَ لأصحاب اليمين، أو زُوجن لأصحاب اليمين، والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فتقديره: أنشأناهنَّ لأصحاب اليمين، وهذا توجيه ابن جرير. قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلقاً بما قبله، وهو قوله: ﴿أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: في أسنانهم، كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زُمرةٍ يَدْخُلون الجنة عَلى صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُري في السماء إضاءة، لا يبُولون ولا يتغوَّطون ولا يَتْفلون ولا يتمخَّطون، أمشاطهم الذهب، ورشْحهم المسك، ومَجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، وأخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستُّون ذراعاً في السماء».

وروى الترمذي: من حديث معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «يدخلُ أهلُ الجنة الجنة جُرداً مُرداً مُكحَّلين، بني ثلاث وثلاثين سنة».

وروى أبوبكر بن أبي الدنيا: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهلُ الجنة الجنةَ على طولِ آدم، ستين ذراعاً بذراع الملك، على حُسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، جُرْدٌ مُرْدٌ مكحَّلون».

وروى أبو بكر بن أبي داود: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعثُ أهلُ الجنة على صورة آدم، في ميلاد عيسى، ثلاث وثلاثين، جُرداً مُرداً مكحلين، ثم يُذهب بهم إلى شجرةٍ في الجنة، فيُكسون منها، لا تَبلى ثيابُهم، ولا يفنى شبابهم».

وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: جماعةٌ من الأولين، وجماعة من الآخرين.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا

بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

٤١- لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: **﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾** أي: أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟.

٤٢- ثم فسَّر ذلك فقال: **﴿فِي سَمُومٍ﴾** وهو: الهواء الحار، **﴿وَحَمِيمٍ﴾** وهو الماء الحار.

٤٣- **﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾** قال ابن عباس: ظل الدخان. وكذا قال مجاهد وعكرمة وأبو صالح وقتادة والسدي وغيرهم، وهذه كقوله تعالى: **﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ◆ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ◆ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ◆ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ◆ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ◆ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** ولهذا قال ههنا: **﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾** وهو: الدخان الأسود.

٤٤- **﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾** أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر، ، كما قال الحسن وقتادة **﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾** أي: ولا كريم المنظر. وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم.

وقال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة في النفي، فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة. وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين عن قتادة به نحوه.

٤٥- ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال تعالى: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾** أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين، مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل.

٤٦- **﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾** أي: يقيمون ولا يتوبون توبة **﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾** وهو الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله، قال ابن عباس: الحنث العظيم: الشرك. وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس.

٤٧، ٤٨- **﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ◆ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾** يعني: أنهم يقولون ذلك مكذبين به، مستبعدين لوقوعه.

٤٩، ٥٠- قال الله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ◆ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾** أي: أخبرهم يا محمد، أن الأولين والآخرين من بني آدم، سيُجمعون إلى عَرَصات القيامة، لا يغادر منهم أحداً، كما قال تعالى: **﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ◆ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ◆ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾** ولهذا قال هنا: **﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾** أي: هو مؤقّت بوقتٍ محدود، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

٥١ - ٥٣ - ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۞ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۞ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويُسْجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتى يملأوا منها بطونهم.

٥٤، ٥٥ - ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۞ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وهي الإبل العطاش، واحدها: أهيم، والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة: الهيم: الإبل العطاش الظماء، وعن عكرمة أنه قال: الهيم الإبل المراض، تمص الماء مصاً ولا تروى. وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً.

وعن خالد بن معدان: أنه كان يكره أن يشرب شرب الهيم، غبّة واحدة من غير أن يتنفس ثلاثاً.

٥٦ - ثم قال تعالى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: هذا الذي وصفنا، هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة.

﴿ نحنُ خلقناكُمْ فلولا تُصدّقونَ (٥٧) أفرأيتم مّا تُمنونَ (٥٨) أأنتُمْ تخلُقونهُ أم نحنُ الخالقونَ (٥٩) نحنُ قدّرْنا بينكُمُ الموتَ وما نحنُ بمسبُوقينَ (٦٠) علىٰ أن نُّبدّلَ أمثالكُمْ ونُنشئكُمْ في ما لا تعلمُونَ (٦١) ولقدْ علمتمُ النّشأةَ الأُولىٰ فلولا تذكّرُونَ (٦٢) ﴾

٥٧ - يقول تعالى مقرراً للمعاد، وراداً على المكذِّبين به من أهل الزيغ والإلحاد، من الذين قالوا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة، بقادر على الإعادة، بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلا تصدقون بالبعث؟

٥٨، ٥٩ - ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أنتم تقرُّونه في الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟

٦٠ - ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي: صرَّفناه بينكم. وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بعاجزين.

٦١ - ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: نغير خلقكم يوم القيامة ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الصفات والأحوال.

٦٢ - ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة - وهي البداءة - قادرٌ على النشأة الأخرى، وهي الإعادة، بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۞ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾.

﴿ أفرأيتم مَّا تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧) أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (٧٠) أفرأيتم النار التي تورون (٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون (٧٢) نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين (٧٣) فسبح باسم ربك العظيم (٧٤) ﴾

٦٣- يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها، والبذر فيها.

٦٤- ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أي: تنبتونه في الأرض ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي: بل نحن الذي نقره قراره، وننبته في الأرض.

روى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولنَّ زرعتُ، ولكن قل: حرثتُ» قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ورواه البزار.

وروى ابن أبي حاتم: عن حجر المدري: أنه كان إذا قرأ: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ وأمثالها يقول: بل أنت يا رب.

٦٥- وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم و﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

٦٦، ٦٧- ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: لو جعلناه حطاماً، لظللتم تفكهون في المقالة، تنوعون كلامكم، فتقولون تارة ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: لملقون. وقال مجاهد وعكرمة: إنا لموقع بنا. وقال قتادة: معذبون. وتارة تقولون: بل نحن محرومون، وقال مجاهد أيضاً: إنا لمغرمون: ملقون للشر. أي: بل نحن مُحارفون. قاله قتادة: أي: لا يثبت لنا مال، ولا ينتج لنا ربح. وقال مجاهد: بل نحن محرومون أي: مجدودون يعني: لا حظ لنا. قال ابن عباس ومجاهد ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبون. وقال مجاهد أيضاً: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم. وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم، وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: فظلتم تفكهون: تلاومون. وقال الحسن وقتادة والسدي: فظلتم تفكهون: تندمون. ومعناه: إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب. قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

٦٨- ٦٩- ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يعني: السحاب، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ يقول: بل نحن المنزلون.

٧٠- ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي: زُعاقاً مراً، لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم، في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً ﴿لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٧١- ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تَقدحون من الزناد، وتستخرجونها من أصلها.

٧٢- ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ أي: بل نحن الذين جعلناها مُودعة في موضعها. وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ، والأخرى: العَفار، إذا أخذ منها غصنان أخضران، فحُك أحدهما بالآخر، تناثر بينهما شرر النار.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ قال مجاهد وقتادة: أي: تذكر النار الكبرى.

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدم التي يوقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، فقال: «إنها قد فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً» رواه البخاري ومسلم.

وفي لفظ: «والذي نفسي بيده، لقد فُضلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كلهُنَّ مثل حرِّها».

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والنضر بن عربي: يعني بالمقوين: المسافرين. واختاره ابن جرير، وقال: ومنه قولهم: أقوت الدار إذا رحل أهلها.

وقال غيره: القيّ والقواء: القفر الخالي البعيد من العمران. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقوي ههنا: الجائع، وابن أبي سليم عن مجاهد ﴿وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾: للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار. وعنه: للمقوين: يعني المستمتعين من الناس أجمعين. وكذا ذكر عن عكرمة.

وهذا التفسير أعم من غيره، فإنَّ الحاضر والبادي من غنى وفقير، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناراً، فأطبخ بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون، وإنْ كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم.

وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود: عن رجل من المهاجرين من قَرَن: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاءُ في ثلاثة: النارُ والكلأ والماء».

٧٤- وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً، كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزجراً لهم في المعاد.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾

٧٥- قال جويبر عن الضحاك: إن الله تعالى لا يقسم بشيء من خلقه، ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه! وهذا القول ضعيف، والذي عليه الجمهور أنه قسمٌ من الله تعالى، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته، ثم قال بعض المفسرين: «لا» ههنا زائدة، وتقديره: أقسم بمواقع النجوم. رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير، ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.

وقال آخرون: ليست «لا» زائدة لا معنى لها، بل يُؤتى بها في أول القسم، إذا كان مقسماً به على منفي، كقوله عائشة رضي الله عنها: لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط.

وهكذا ههنا تقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم. وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل: أقسم.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني: نجوم القرآن، فإنه نزل جُملةً ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. وقال الضحاك عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ، إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجَّمته السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجَّمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة، فهو قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ نجوم القرآن، وكذا قال عكرمة ومجاهد والسدي وأبو حزرة.

وقال مجاهد أيضاً: مواقع النجوم في السماء، ويقال: مطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير، وعن قتادة: مواقعها منازلها، وعن الحسن أيضاً: أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة.

وقال الضحاك ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني: بذلك الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا، قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا.

٧٦- وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته، لعظمتم المقسم به عليه.

٧٧- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم.

٧٨- ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ أي: مُعظَّم في كتاب محفوظ موقر.

٧٩- وقال العوفي عن ابن عباس ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ يعني الملائكة، وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو الشعثاء جابر بن زيد وأبو نهيك والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

روى ابن جرير: عن قتادة ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، قال: وهي في قراءة ابن مسعود ﴿مَا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾.

وقال أبو العالية ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ ليس أنتم، أنتم أصحاب الذنوب. وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾. وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله. وقال الفراء: لا يجد طَعمه ونفعه، إلا من آمن به.

وقال آخرون ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبرٌ، ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف، كما روى مسلم: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يُسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو. واحتجوا في ذلك: بما رواه الإمام مالك في موطئه: عن عبد الله ابن أبي بكر بن محمد عن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتَبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: أن «لا يمس

القرآن إلا طاهر» ورواه أبو داود في المراسيل، وهذه وجادة جيدة.

٨٠- وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع.

٨١- ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أي: مكذبون غير مصدقين، وكذا قال الضحاك وأبو حزرة والسدي، وقال مجاهد ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ أي: تريدون أن تمالئوهم فيه، وتركنوا إليهم.

٨٢- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال بعضهم: معنى وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم، أنكم تكذبون، أي: تكذبون بدل الشكر، وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرآها: ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ كما سيأتي.

وروى الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وتجعلون رزقكم، يقول: شكركم، أنكم تكذبون، تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا» وهكذا رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن جرير: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مَا مُطر قومٌ قط، إلا أصبح بعضهم كافراً، يقولون: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا، وقرأ ابن عباس ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

وروى مالك في الموطأ: عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هَل تَدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمنٌ بالكوكب» أخرجاه في الصحيحين وأبو داود والنسائي.

وروى مسلم: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل اللهُ من السماء من بركةٍ، إلا أصبحَ فريقٌ من الناس بها كافرين، يُنزل الله الغيث فيقولون: بكوكب كذا وكذا» انفرد به مسلم من هذا الوجه.

وقال مجاهد ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: قولهم في الأنواء: مُطرنا بنوء كذا وبنوء كذا، يقول: قولوا: هو من عند الله، وهو رزقه. وهكذا قال الضحاك وغير واحد. وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قومٌ لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب. فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله، أنكم تكذبون به، ولهذا قال قبله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۞ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾

٨٣- يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروح ﴿الْحُلْقُومَ﴾ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۞ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۞ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

٨٤- ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت.

٨٥- ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بملائكتنا ﴿وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترونهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ۞ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

٨٦، ٨٧- وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ۞ تَرْجِعُونَهَا﴾ معناه: فهلا ترجعون هذه النفس، التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها من الجسد، إن كنتم غير مدينين، قال ابن عباس: يعني: محاسبين. وروي عن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والسدي وأبي حزرة مثله.

وقال سعيد بن جبير والحسن البصري ﴿فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون، فردوا هذه النفس. وعن مجاهد ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير موقنين، وقال ميمون بن مهران: غير معذبين مقهورين.

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾

٨٨- هذه الأحوال الثلاثة، هي أحوال الناس عند احتضارهم، إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ﴾ أي: المحتضر ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وبعض المباحات.

٨٩- ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ أي: فلهم روحٌ وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما تقدم في حديث البراء: «أن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان». قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فَرَوْحٌ﴾ يقول: راحة وريحان، يقول: مستراحة. وكذا قال مجاهد: إن الرَّوح الاستراحة، وقال أبو حزرة: الراحة من الدنيا، وقال سعيد بن جبير والسدي: الروح: الفرح. وعن مجاهد ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جنة ورخاء، وقال قتادة: فروح فرحمة. وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: وريحان: ورزق.

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإنَّ من مات مقرَّباً، حصل له جميع ذلك، من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور، والرزق الحسن.

﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ قال محمد بن كعب: لا يموت أحدٌ من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هو، أم من أهل النار؟ وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ ولو كتبت ههنا لكان حسناً، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية.

روى الإمام أحمد: عن عائشة: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ برفع الراء. وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي. وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده، وخالفه الباقون فقرؤوا ﴿فَرَوْحٌ

﴿وَرَيْحَانٌ﴾ بفتح الراء.

وروى الإمام أحمد: عن أم هانئ: أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «يكون النَّسم طيراً يعلُق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلتْ كلُّ نفسٍ في جسدها» هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن، ومعنى يعلق: يأكل، ويشهد له بالصحة أيضاً: ما رواه الإمام أحمد: عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه: عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمةُ المؤمن طائرٌ يَعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه اللهُ إلى جسده يوم يبعثه». وهذا إسناد عظيم، ومتن قويم.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشُّهداء في حواصل طيور خُضر، تَسْرح في رياض الجنة، حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش» الحديث.

وروى الإمام أحمد: عن عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى، رأيتُ شيخاً أبيض الرأس واللحية، على حمار هو يتبع جنازة، فسمعته يقول: حدثني فلان بن فلان: سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» قال: فأكب القوم يبكون، فقال: «ما يبكيكم؟» فقالوا: إنا نكره الموت، قال: ليس ذاك، ولكنه إذا احتضر ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ فإذا بُشِّر بذلك أحبَّ لقاء الله عز وجل، والله عز وجل للقائه أحبُّ، ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۞ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۞ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ فإذا بُشِّر بذلك، كره لقاء الله، والله تعالى للقائه أكره، هكذا رواه الإمام أحمد. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها شاهد لمعناه.

٩٠- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلامٌ لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين. وقال قتادة وابن زيد: سلم من عذاب الله، وسلمت عليه ملائكة الله. كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

وقال البخاري ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ أي: مسلم لك، أنك من أصحاب اليمين، وألغيت «أن» وبقي معناها كما تقول أنت مصدق مسافر عن قليل، إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل، وقد يكون كالدعاء له، كقولك: سقيا لك من الرجال، إن رفعت «السلام» فهو من الدعاء، وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه، والله أعلم.

٩٢- ٩٤- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۞ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۞ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿فَنُزُلٌ﴾ أي: فضيافة ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو المذاب، الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته.

٩٥- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: إن هذا الخبر لهو حق اليقين، الذي لا مرية فيه، ولا

محيد لأحد عنه.

٩٦- ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: «اجعلوها في رُكوعِكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» وكذا رواه أبو داود وابن ماجة.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سُبحان الله العظيم وبحمده، غُرست له نخلة في الجنة» هكذا رواه الترمذي والنسائي.

وروى البخاري في آخر كتابه: عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود.

آخر تفسير سورة الواقعة

****

ترتيبها ٥٧ — سورة الحديد ـ مدنية — آياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ ﴾

١- يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض، أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد خضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه.

٢- ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٣- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرباض ابن سارية: أنها أفضل من ألف آية[1]. وروى أبو داود: عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيءٌ أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيءٌ من شك؟ قال: وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو بضعة عشر قولاً. وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. وقال شيخنا الحافظ المزي: يحيى هذا، هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه «معاني القرآن». وقد ورد في ذلك أحاديث: فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهمَّ ربَّ السموات السبع، وربَّ العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، مُنزلَ التَّوراةِ والإنجيل والفرقان، فالق الحبِّ والنَّوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول ليس قبلك شيء، وأنت الآخر ليس بعدك شيء، وأنت الظَّاهرُ ليس فوقك شيء، وأنت الباطنُ ليس دونك شيء، اقضِ عنَّا الدَّين وأغننا من الفقر» ورواه مسلم في صحيحه.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي

(١) لم يثبت الحديث، ولذا حذفناه من هذا التهذيب

اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾

٤- يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها، في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾** أي: يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر **﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾** من نبات وزرع وثمار، كما قال تعالى: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يعلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيعلمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحرِ وَما تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾**. وقوله تعالى: **﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾** أي: من الأمطار، والثلوج والبرد، والأقدار، والأحكام، مع الملائكة الكرام، وقد تقدم في سورة البقرة أنه ما ينزل من قطرة من السماء، إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء الله تعالى.

وقوله تعالى: **﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾** أي: من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يُرفعُ إليه عمل الليل قبل النهار، وعملُ النهار قبل الليل».

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم، وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: **﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهم لِيَسْتَخفُوا مِنهُ أَلاَ حِينَ يَستغشُونَ ثِيابَهُمْ يَعلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ﴾** وقال تعالى: **﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هوَ مُستخفٍ بالليلِ وَسارِبٌ بالنَّهارِ﴾** فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: عن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: زوِّدني حكمةً أعيش بها، فقال: «استحِ اللهَ، كما تستحيي رجلاً من صالحي عشيرتك لا يفارقك».

وروى أبو نعيم: من حديث عبد الله بن علوية العامري مرفوعاً: «ثلاث من فعلهن فقد طعمَ الإيمان: إن عبد الله وحده، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشَّرط اللئيمة، ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، وزكّى نفسه» وقال رجل: يا رسول الله، ما تزكية المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيث كان».

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين:

إذا مَا خلوتَ الدَّهر يوما فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة ... ولا أن مَا تخفى عليه يغيب

٥- وقوله تعالى: **﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾** أي: هو المالك للدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾** وهو المحمود على ذلك، كما قال تعالى: **﴿وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾** وقال تعالى: **﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾** فجميع ما **﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِ الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ**

عدًّا﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ ولهذا قال: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن عمل أحدُهم حسنة واحدة، يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: هو المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته، كما يشاء فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء، ثم ربيعاً، ثم قيظاً، ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره، لما يريده بخلقه ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم السرائر وإن دقت، وإن خفيت.

﴿آمنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾

٧- أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم، ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه، وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان.

روى الإمام أحمد: عن مطرف يعني ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «ألهاكم التكاثر؛ يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت» ورواه مسلم وزاد: «وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس».

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ترغيب في الإيمان، والإنفاق في الطاعة.

٨- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان، والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ

﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويعني بذلك: بيعة الرسول ﷺ. وزعم ابن جرير أن المراد بذلك: الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد، فالله أعلم.

٩- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: حججاً واضحات، ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: في إنزاله الكتاب، وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه.

١٠- ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله، هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ فمن توكل على الله أنفق، ولم يخش من ذي العرش إقلالا، وعَلِم أن الله سيُخلفه عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أي: لا يستوي هذا، ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا: فتح مكة، وعن الشعبي وغيره: أن المراد بالفتح ههنا صلح الحديبية، وقد يستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحدٍ أو مثل الجبال ذهباً، ما بلغتم أعمالهم».

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب، كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة، الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك؛ والذي في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خيرٌ».

وإنما نبَّه بهذا ، لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمُّه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التام ، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق ، وفي الحديث : «سبق درهم مائة ألف»[1] .

ولا شك عند أهل الإيمان ، أن الصديق أبابكر رضي الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد مَن عَمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحدٍ عنده نعمة يجزيه بها .

١١ - وقوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، والصحيح : أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل في عموم هذه الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي : جزاء جميل ، ورزق باهر ، وهو الجنة يوم القيامة .

روى ابن أبي حاتم : عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإنَّ الله ليُريد منا القرض؟ قال : «نعم يا أبا الدحداح» قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضتُ ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها - قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي ، فقد أقرضتُه ربي عز وجل . وفي رواية : أنها قالت له : ربحَ بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وإن رسول الله ﷺ قال : «كم من عذقٍ رداحٍ في الجنة لأبي الدحداح» .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

١٢ - يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين ، أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة ، بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ، يتَّقد مرَّة ويطفأ مرة ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

---

(١) حديث حسن ، رواه النسائي (٥/ ٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وتمامه : قالوا : وكيف؟ قال : «كان لرجل درهمان ، تصدق بأحدهما ، وانطلق رجلٌ إلى عُرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدَّق بها» وحسنه الألباني في السنن (٢٣٦٧) .

وقال الضحاك: ليس أحداً لا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طَفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون، أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين. فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وقال الحسن ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: على الصراط.

وقد روى ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى: عن أبي الدرداء وأبي ذر يخبران عن النبي ﷺ قال: «أنا أولُ من يُؤذن له يوم القيامة بالسُّجود، وأولُ من يُؤذنُ له برفع رأسه، فأنظر من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرفُ أمتي من بين الأمم، فقال له رجل: يا نبي الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ فقال: «أعرفهم محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحدٍ من الأمم غيرهم، وأعرفهم يُؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم».

وقوله: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ قال الضحاك: أي: وبأيمانهم كتبهم، كما قال: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقوله: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: يقال لهم بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣- وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات، من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله به، وترك ما عنه زجر. روى ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي فلما صلى على الجنازة، وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوَحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين، حيث قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قُسم فيه النور، فلا يجدون شيئاً، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية، يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغتراً، حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن.

وقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهكذا روي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد، وهو الصحيح. ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: الجنة وما فيها ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: النار. قاله قتادة وابن زيد وغيرهما.

وقول كعب الأحبار إن الباب المذكور في القرآن هو «باب الرحمة» الذي هو أحد أبواب المسجد! فهذا من إسرائيلياته وترهاته، وإنما المراد بذلك: سورٌ يضرب يوم القيامة، ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة.

١٤- ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت. وقال قتادة ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالحق وأهله ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: قلتم سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا، أي: بأبدان لا نية لها، ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك، فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً. قال مجاهد كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتاً، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ.

وهذا القول من المؤمنين، لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم، حيث يقول وهو أصدق القائلين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ◆ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ◆ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ◆ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ◆ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ◆ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ◆ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ◆ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ◆ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ◆ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ.

١٥- ثم قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ كما قال ههنا: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً، ومثله معه، ليفتدي به من عذاب الله، ما قبل منه.

وقوله تعالى: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: هي مصيركم، وإليها منقلبكم، وقوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم، من كل منزل، على كفركم وارتيابكم، وبئس المصير.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾

١٦- يقول تعالى أما آن للمؤمنين أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة، وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه. روى ابن أبي حاتم ومسلم: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، إلا أربع سنين.

وقال قتادة ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يرفع من الناس الخشوع».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين، أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم، من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فسدت قلوبهم فقست، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور، الأصلية والفرعية.

وقد قال ابن أبي حاتم: عن الربيع بن عميلة الفزاري قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعت أعجب إليَّ منه، إلا شيئاً من كتاب الله أو شيئاً قاله النبي ﷺ، قال: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم واستلذته، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا: تعالوا ندع بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تابعنا عليه تركناه، ومَن كره أن يتابعنا قتلناه، ففعلوا ذلك، وكان فيهم رجل فقيه، فلما رأى ما يصنعون عمد إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه في شيء لطيف، ثم أدرجه فجعله في قرن، ثم علق ذلك القرن في عنقه، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء إنكم قد أفشيتم القتل في بني إسرائيل، فادعوا فلاناً فاعرضوا عليه كتابكم، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس، وإن أبى فاقتلوه، فدعوا فلاناً ذلك الفقيه، فقالوا: أتؤمن بما في كتابنا هذا؟ قال: وما فيه؟ اعرضوه عليَّ، فعرضوه عليه إلى آخره، ثم قالوا: أتؤمن بهذا؟ قال: نعم آمنت بما في هذا - وأشار بيده إلى القرن - فتركوه فلما مات فتشوه فوجدوه معلقاً ذلك القرن، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة، فافترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة، وخير مللهم ملة أصحاب ذي القرن. قال ابن مسعود: وإنكم أوشك بكم إن بقيتم، أو بقي من بقي منكم أن تروا أموراً تنكرونها، لا تستطيعون لها غِيَر، فيحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره. وروى أبو جعفر الطبري نحوه.

١٧- وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة، لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

١٨- يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم، على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ أي: دفعوه بنية خالصة، ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً، ولهذا قال: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أي: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح، ومآب حسن.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ هذا تمام لجملة وصف المؤمنين بالله ورسله، بأنهم صديقون، قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ هذه مفصولة ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ وقال أبو الضحى بنحوه، وهكذا قال مسروق والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم.

وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين والصديقين والشهداء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

ففرق بين الصديقين والشهداء، فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في كتابه الموطأ: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغُرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» اتفق البخاري ومسلم عليه.

وقال آخرون: بل المراد من قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء، حكاه ابن جرير عن مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: «إنَّ أرواح الشّهداء في حواصل طيرٍ خُضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعةً، فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردَّنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل فيك، فنُقتل كما قُتلنا أول مرة، فقال: إني قد قَضيتُ أنهم إليها لا يرجعون».

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم عند الله أجر جزيل، ونور عظيم، يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء، وبيَّن حالهم.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ

غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢٠) سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢١)﴾

٢٠- يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا، ومحقراً لها ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها، هذا كما قال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا، في أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة، فقال: ﴿كمثل غيث﴾ وهو: المطر، الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أعجب الكفار نباته﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع، الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً، أي: يصير يَبَساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره، وعنفوان شبابه، غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه، ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾.

ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا، وانقضائها وفراغها لا محالة، وأنَّ الآخرة كائنةٌ لا محالة، حذَّر من أمرها، ورغب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة، إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: هي متاع فانٍ غارّ، لمن ركن إليه فإنه يغترّ بها وتعجبه، حتى يعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

روى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لموضع سوطٍ في الجنة، خيرٌ من الدنيا وما فيها، اقرءوا: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾» وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقربُ إلى أحدكم من شِراك نَعْله، والنار مثل ذلك» انفرد بإخراجه البخاري في الرقاق.

ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك، فلهذا حثَّه الله تعالى

على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات.

٢١- فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال ههنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هذا الذي أهّلهم الله له، هو من فضله ومنّه عليهم، وإحسانه إليهم، كما قدمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهبَ أهلُ الدُّثُور بالأجور، بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سَبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء».

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾

٢٢- يخبر تعالى عن قدَره السابق في خَلقه، قبل أن يبرأ البريَّة، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في الآفاق وفي نفوسكم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل أن نخلق الخليقة، ونبرأ النسمة. وقال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ عائد على النفوس، وقيل: عائد على المصيبة، والأحسن عوده على الخليقة والبرية، لدلالة الكلام عليها، كما روى ابن جرير: عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن فقال رجل: سله عن قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ فسألته عنها، فقال: سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله، من قبل أن يبرأ النسمة. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: هي السنون، يعني: الجدب. ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر(١).

وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقوله: «قدَّر الله المقادير، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

ورواه مسلم وزاد: «وكان عرشه على الماء» ورواه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها، وكتابته لها طبق ما

---

(١) وقد ورد حديثاً مرفوعاً: «ما اختلجَ عِرقٌ ولا عينٌ إلا بذنب، وما يدفعُ الله عنه أكثر» رواه الطبراني في الأوسط - كما في مجمع البحرين (١١٥٠) - والصغير (٢/ ١٠٣) من حديث البراء بن عازب، وصححه الألباني.

يوجد في حينها، سهلٌ على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، لأنه لو قُدِّر شيءٌ لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: جاءكم، وتفسير ﴿آتَاكُمْ﴾ أي: أعطاكم، وكلاهما متلازم. أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال في نفسه متكبر، فخور أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحدٌ إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، و الحزن صبراً.

٢٤- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: يفعلون المنكر، ويحضون الناس عليه ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن أمر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما قال موسى عليه السلام ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾

٢٥- يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو النقل الصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤا غُرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف، شرعَ الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام، لمن خالف القرآن وكذب به وعانده.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود: من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ بالسيفِ بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تَحت ظلِّ رمحي، وجل الذِّلَّة والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح، كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع

ونحوها ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم، كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والأزميل والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه وغيره ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾

٢٦، ٢٧- يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً، ولا أرسل رسولاً، ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم، الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً﴾ أي: رقة وهي الخشية ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخلق.

وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي: ابتدعها أمة النصارى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل.

وروى ابن جرير وأبو عبد الرحمن النسائي واللفظ له: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ملوكٌ بعد عيسى عليه السلام بدّلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقيل لملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتموناه هؤلاء، إنهم يقرءون ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هذه الآيات، مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعهم فليقرأوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك، دعونا! فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا اسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم، ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونحرث البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمر بكم، وليس أحدٌ من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً

﴿ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ والآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم، لا علم لهم بإيمان الذي اقتدوا بهم، فلما بعث الله النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل، انحط منهم رجلٌ من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدَّير من دَيره فآمنوا به وصدقوه، فقال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم عليه السلام وبالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم، قال: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ القرآن، واتباعهم النبي ﷺ، قال: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. هذا السياق فيه غرابة، وسيأتي تفسير هاتين الآيتين الأخيرتين على غير هذا، والله أعلم.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن سهل بن أبي أمامة: أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة، زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير، وهو يصلي صلاة خفيفة وقعه، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها، فلما سلَّم قال: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أم شيء تنفلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه، إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تُشدِّدُوا على أنفسكم، فيشدد الله عليكم، فإنَّ قوماً شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» ثم غدوا من الغد، فقالوا: نركب فننظر ونعتبر، قال: نعم، فركبوا جميعاً فإذا هم بديار قفر، قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا، خاوية على عروشها، فقالوا: أتعرف هذه الديار؟ قال: ما أعرفني بها وبأهلها، هؤلاء أهل الديار، أهلكهم البغي والحسد، إن الحسد يطفئ نور الحسنات، والبغي يُصدِّق ذلك أو يكذِّبه، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

٢٨- قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية: على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التي في القصص، وكما في حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ يؤتون أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ، أدى حقَّ الله وحقَّ مواليه، فله أجران، ورجلٌ أدَّب أَمَتَه فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» أخرجاه في الصحيحين.

ووافق ابن عباس على هذا التفسير: الضحاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي: ضعفين ﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾ وزادهم: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم، ففضلهم بالنور والمغفرة. رواه ابن جرير عنه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً

وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثل رجلٍ استعمل عمالاً، فقال: مَن يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار، على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس، على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء! قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء» انفرد بإخراجه البخاري بمثله.

٢٩- ولهذا قال الله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ﴾ أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا إعطاء ما منع الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ قال ابن جرير ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي: ليعلم.

وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها: ﴿لِكَيْ يَعْلَمَ﴾ وكذا حطَّان بن عبد الله وسعيد بن جبير.

قال ابن جرير: لأن العرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في أوله وآخره جحد غير مصرح، فالسابق كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾.

آخر تفسير سورة الحديد

****

ترتيبها ٥٨ — سورة المجادلة ـ مدنية — آياتها ٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾

١- روى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وَسِعَ سمعه الأصواتَ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلِّمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمعُ ما تقول، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً.

وفي رواية لابن أبي حاتم: عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوْعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ قالت: وزوجها أوس بن الصامت.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

٢- روى الإمام أحمد[(١)]: عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت امرأً قد أوتيتُ من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهَّرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضانُ، فَرَقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً، فأتابع في ذلك إلى أن يُدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء فوثبتُ عليها، فلما أصبحت غدوتُ على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لا نفعل، نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنتَ فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت حتى أتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرته خبري، فقال لي: «أنت بذاك» فقلت: أنا بذاك، فقال: «أنت بذاك»، فقلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك» قلت: نعم، ها أنا ذا فأمض فيَّ

(١) ذكر الحافظ ابن كثير قبل هذه الرواية رواية خولة بنت ثعلبة السابقة بسند فيه ضعف، ثم قال: هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر، فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة من العتق أو الصيام أو الإطعام. ثم ذكر الحديث الآتي.

حكم الله عز وجل، فإني صابر له، قال: «أعتق رقبة» قال: فضربتُ صفحةَ رقبتي بيدي، وقلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أصبحتُ أملك غيرها، قال: «فصم شهرين متتابعين» قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فتصدق» فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك» قال: فرجعت إلى قومي، فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السَّعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليَّ، فدفعوها إليَّ، وهكذا رواه أبو داود وابن ماجة، واختصره الترمذي وحسنه.

وظاهر السياق أن هذه القصة، كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خويلة بنت ثعلبة، كما دل عليه سياق تلك، وهذه بعد التأمل.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ﴾ أصل الظهار: مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء، قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً، كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف.

وقال سعيد بن جبير: كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية، فوقَّت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة. رواه ابن أبي حاتم بنحوه. وقد استدل الإمام مالك: على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية، بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ فالخطاب للمؤمنين. وأجاب الجمهور: بأن هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له، واستدل الجمهور عليه بقوله: ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها، ولا تدخل في هذا الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: لا تصير المرأة بقول الرجل: أنت علي كأمي، أو مثل أمي، أو كظهر أمي، وما أشبه ذلك لا تصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدته. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ أي: كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم[1] ولو قصده لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم، من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره.

وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم وقول داود، وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء، وفرقة من أهل الكلام.

وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع، أو يعزم عليه، فلا تحل له حتى يُكفِّر بهذه الكفارة، وقد حكى عن مالك أنه: العزم على الجماع أو الإمساك، وعنه: أنه الجماع، وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه، ورفع ما كان عليه

(١) كقول إبراهيم ﷺ للجبار لما سأله عن امرأته أنها أخته، قال: «وإنك أختي في كتاب الله» متفق عليه.

أمر الجاهلية، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة. وإليه ذهب أصحابه والليث ابن سعد.

وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج، وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج، قبل أن يكفّر، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ والمس: النكاح. وكذا قال عطاء والزهري وقتادة ومقاتل بن حيان. وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفّر.

وقد روى أهل السنن: من حديث ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أكفّر، فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله؟» قال: رأيت خَلْخَالَهَا في ضوء القمر، قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل»[1].

وقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فإعتاق رقبة كاملة، من قبل أن يتماسا، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيد هناك، لاتحاد الموجب، وهو: عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده: عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» قد رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: تزجرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم.

٤- وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ من قبل أن يتماسا ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ قد تقدمت الأحاديث الآمرة بهذا في الترتيب، كما ثبت في الصحيحين: في قصة الذي جامع امرأته في رمضان ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: شرعنا هذا لهذا.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: محارمه فلا تنتهكوها، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: الذين لم يؤمنوا، ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا ليس الأمر كما زعموا! بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

٥- يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله، ، وعاندوا شرعه ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أهينوا ولُعنوا وأخزوا، كما فعل بمن أشبههم ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات، لا يعاندها ولا يخالفها، إلا كافر فاجر مكابر ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد له،

---

(١) وفيه من الفقه: أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة، قاله ابن كثير وغيره.

والخضوع لديه.

٦- ثم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: فيخبرهم بالذي صنعوا، من خير وشر ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً.

٧- ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه، واطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم، حيث كانوا، وأين كانوا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ﴾ أي: من سر ثلاثة ﴿إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾ أي: مطلع عليهم، يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به وسمعه له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية: معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن وسمعه أيضاً مع علمه بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)﴾

٨- قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال: اليهود، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول، ومخالفته يصرون عليها، ويتواصون بها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم! فقالت عائشة: وعليكم السام، قالت: فقال

رسول اللهﷺ: «يا عائشة، إنَّ الله لا يُحبُّ الفُحْشَ ولا التفحش» قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول اللهﷺ: «أو ما سمعت أقول: وعليكم؟» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾. وفي رواية في الصحيح: أنها قالت لهم عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول اللهﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا».

وروى ابن جرير: عن أنس بن مالك: أن رسول اللهﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذْ أتى عليهم يهودي فسلَّم عليهم فردوا عليه، فقال نبي اللهﷺ: «هل تدرون ما قال؟» قالوا: سلم يا رسول الله، قال: «بل قال: سام عليكم» أي: تسامون دينكم، قال رسول اللهﷺ: «ردوه» فردوه عليه، فقال نبي الله: «أقلت سام عليكم» قال: نعم، فقال رسول اللهﷺ: «إذا سلَّم عليكم أحدٌ من أهل الكتاب، فقولوا: عليك» أي: عليك ما قلت. وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام، وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن، لأن الله يعلم ما نسرُّه، فلو كان هذا نبياً حقاً، لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر: أن اليهود كانوا يقولون لرسول اللهﷺ: سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول؟ فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إسناد حسن ولم يخرجوه.

٩- ثم قال الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين، أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب، ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم، التي أحصاها عليكم وسيجزيكم بها.

وروى الإمام أحمد: عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عَرَض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول اللهﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إنَّ الله يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته؛ وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين» أخرجاه في الصحيحين.

١٠- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما النجوى - وهي المسارّة - حيث يَتوهَّم مؤمنٌ بها سواء ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين، عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسَّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله، وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن، كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه» أخرجاه.

ورواه عبد الرزاق من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، انفرد بإخراجه مسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

١١- يقول تعالى مؤدِّباً عباده المؤمنين، وآمراً لهم أن يُحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ وقُرئ ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة» وفي الحديث الآخر: «وَمن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» ولهذا أشباه كثيرة. ولهذا قال تعالى: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً، ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقد روى الإمام أحمد والشافعي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسعوا» وأخرجاه في الصحيحين. ورواه الإمام أحمد عن أبي هريرة بنحوه.

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال: فمنهم من رخَّص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم». ومنهم من منع من ذلك، محتجاً بحديث: «من أحبَّ أن يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار».

ومنهم من فصَّل، فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد ابن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرآه مقبلاً، قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم.

فأما اتخاذه ديدناً، فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن: أنه لم يكن شيءٌ أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك.

وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس.

ولكن حيث يجلس، يكون صدر ذلك المجلس، فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم، فالصدِّيق رضي الله عنه يُجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالباً عثمان وعلي، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي وكان يأمرهما بذلك، كما رواه مسلم: عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليليني منكم أولوا الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله صلوات الله وسلامه عليه. وروى الإمام أحمد: عن أبي مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «استووا، ولا تختلفوا فَتختلفَ قلوبُكم، ليليني منكم أولوا

الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال أبو مسعود: فأنتم اليوم أشد اختلافاً، وكذا رواه مسلم وأهل السنن إلا الترمذي.

وإذا كان هذا أمره في الصلاة، أن يليه العقلاء منهم والعلماء، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة.

وروى أبو داود: عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «أقيموا الصُّفوف، وحاذوا بين المناكب، وسُدُّوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذَروا فُرجاتٍ للشيطان، ومَن وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله».

ولهذا كان أبي بن كعب سيد القراء، إذا انتهى إلى الصف الأول، انتزع منه رجلاً يكون من أفناد الناس، ويدخل هو في الصف المقدم، ويحتج بهذا الحديث: «ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى». وأما عبد الله بن عمر، فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه، ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع.

وفي الحديث الصحيح: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثةُ نفرٍ، فأما أحدهم فوجد فرجةً في الحلقة فدخل فيها، وأما الآخر فجلس وراء الناس، وأدبر الثالث ذاهباً، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخبر الثلاثة؟ أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرضَ فأعرض الله عنه».

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لرجلٍ أن يُفرق بين اثنين إلا بإذنهما» ورواه أبو داود والترمذي. وقد رُوي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى: **﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾** يعني في مجالس الحرب، قالوا ومعنى قوله: **﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾** أي: انهضوا للقتال. وقال قتادة **﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾** أي: إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا. وقال مقاتل: إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده، فربما يشق ذلك عليه ﷺ، وقد تكون له الحاجة، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا، كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾**.

وقوله تعالى: **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** أي: لا تعتقدوا أنه إذا أفسح أحدٌ منكم لأخيه، إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصاً في حقه، بل هو رفعة ورتبة عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإنَّ من تواضع لأمر الله، رفع الله قدره، ونشر ذكره، ولهذا قال تعالى: **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** أي: خبير بمن يستحق ذلك، وبمن لا يستحقه.

وروى الإمام أحمد: عن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفتَ على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبزى، رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً،

ويضع به آخرين» وهكذا رواه مسلم.

وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث، مستقصاة في كتاب العلم من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾

١٢- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ، أي: يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة، تطهره وتزكيه، وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فما أمر بها إلا من قَدَر عليها.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم، من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب، قدَّم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ، حتى شقُّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام، فلما قال ذلك جَبُن كثيرٌ من المسلمين، وكفوا عن المسئلة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق.

وقال عكرمة والحسن البصري في قوله تعالى: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ نسختها الآية التي بعدها ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ إلى آخرها.

وروى عبد الرزاق: عن مجاهد قال علي: ما عمل بها أحدٌ غيري حتى نسخت، وأحسبه قال: وما كانت إلا ساعة(١).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا

(١) قال أبو حاتم وغيره: مجاهد عن علي مرسل.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

١٤- يقول الله تعالى منكراً على المنافقين، في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ وقال ههنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن. ثم قال تعالى: ﴿مَا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ﴾ أي: هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم، وهم اليهود.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المنافقين، يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنّا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.

١٥- ثم قال تعالى: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع، العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم.

١٦- ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كثيرٌ ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم، فاغترَّ بهم، فحصل بهذا صدٌّ عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم، في الأيمان الكاذبة الحانثة.

١٧- ثم قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً﴾ أي: لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١٨- ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم، فلا يغادر منهم أحداً، فيحلفون له كما يحلفون لكم، ويحسبون أنهم على شيء، أي: يحلفون بالله عز وجل أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا، لأن مَن عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله، كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: حلفهم ذلك لربهم عز وجل.

ثم قال منكراً عليهم حسبانهم ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: أن النبيﷺ كان في ظل حجرةٍ من حجره وعنده نفر من المسلمين، قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه» فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول اللهﷺ فكلمه، فقال: «علام تَشتمني أنتَ وفلان وفلان» نفر دعاهم بأسمائهم، قال:

فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وهكذا رواه الإمام أحمد بإسناد جيد، ولم يخرجوه.

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين، حيث يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

١٩- ثم قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان، حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه. ولهذا روى أبو داود: عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بدوٍ، لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذَ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية»، قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادِّين لله ورسوله، يعني الذين هم في حد، والشرع في حد، أي: مجانبون للحق، مشاقون له، هم في ناحية، والهدى في ناحية ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة.

٢١- ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة له، ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين، في الدنيا والآخرة ﴿وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وقال ههنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كتب القوي العزيز، أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدرٌ محكم، وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين، في الدنيا والآخرة.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يوادون المحادِّين، ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ نزلت في أبي عبيدة، قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق، همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم.

قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصدِّيق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى، يا رسول الله، هل تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين، القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حادَّ الله ورسوله، ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتبَ الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة، وقررها في قلبه، وزيَّن الإيمان في بصيرته، قال السدي ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان. وقال ابن عباس ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: قوّاهم. وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة.

وفي قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سرٌّ بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى، عوَّضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه، بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هؤلاء حزب الله، أي: عباد الله، وأهل كرامته، وقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تنويهٌ بفلاحهم وسعادتهم، ونصرتهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان.

ثم قال: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المجادلة

****

ترتيبها ٥٩ | سورة الحشر ـ مدنية | آياتها ٢٤

كان ابن عباس يقول: سورة بني النضير.

وروى سعيد بن منصور: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير، ورواه البخاري ومسلم.

ورواه البخاري: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: سورة بني النضير.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ② وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ⑤ ﴾

١- يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له، ويمجِّده ويقدِّسه، ويصلي له ويوحده، كقوله تعالى: **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾**. وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** أي: منيع الجناب **﴿الْحَكِيمُ﴾** في قدره وشرعه.

٢- وقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾** يعني: يهود بني النضير. قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم، وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحلَّ الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة، التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال تعالى: **﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾** أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذَّب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

روى أبو داود: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا

إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر، إنكم أويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه، أو لنخرجن، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونسبي نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «لقد بلغ وعيدُ قريش منكم المبالغَ، ما كانت تكيدكم بأكثرَ مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم» فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: أنكم أهل الحلقة[1] والحصون، وأنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء - وهي الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ليخرج منا ثلاثون حَبْراً، حتى نلتقي بمكان النصف وليسمعوا منك، فإن صدَّقوك وآمنوا بك، آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: «إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهدٍ تعاهدوني عليه» فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وتَرك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجَلاء، فَجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ**﴾ يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة.

ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار، وبالله المستعان.

وكان سبب ذلك: فيما ذكره أصحاب المغازي والسير: أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة، قتل رجلين من بني عامر وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين، لأدينَّهما» وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم،

---

(١) الحلقة: الدروع وقد يراد بها السلاح مطلقاً.

فقال: أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، وتعيبه على من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعة بن مالك بن أبي قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك ابن خرشة، ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ قال: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها.

قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها. وهكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق بنحو ما تقدم.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني النضير ﴿مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ أي: في مدة حصار كم لهم وقصرها، وكانت ستة أيام، مع شدة حصونهم ومنعتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: جاءهم من الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك، وقد حاصرهم الذي نُصِرَ بالرُّعْب مسيرة شهر، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك، وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم، وتحملها على الإبل. وكذا قال عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد. وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودبروها، يقول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

٣- وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر، من القتل والسبي ونحو ذلك، قاله

الزهري عن عروة والسدي وابن زيد، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا، مع ما أعدَّ لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم.

وقال عكرمة: الجلاء القتل. وفي رواية عنه: الفناء. وقال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد. وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء فهذا الجلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي: حتمٌ لازم لا بد لهم منه.

ـوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: إنما فعل الله بهم ذلك، وسلط عليهم رسوله

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول:

أدام اللهُ ذلك من صنيع وحرَّق في نواحيها السعير
ستعلمُ أيُّنا منها بنُزهٍ وتعلم أيَّ أرضينا نضير

كذا رواه البخاري ولم يذكره ابن إسحاق.

وقد أورد ابن إسحاق رحمه الله ههنا أشعاراً كثيرة، فيها آداب ومواعظ وحكم، وتفاصيل للقصة تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه، ولله الحمد والمنة. قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد، وبعد بئر معونة، وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)** ﴾

٦- يقول تعالى مبيناً ما الفيء، وما صفته وما حكمه، فالفيء: كل مال أُخذ من الكفار من غير قتال، ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم، من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاء الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فردَّه على المسلمين، في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات.

فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ**﴾ أي: من بني النضير ﴿**فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ**﴾ يعني: الإبل ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ أي: هو قدير لا يغالب ولا يمانع، بل هو القاهر لكل شيء.

٧- ثم قال تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى**﴾ أي: جميع البلدان التي تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.

روى الإمام أحمد: عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله في الكُراع والسلاح في سبيل الله عز وجل. هكذا أخرجه أحمد ههنا مختصراً، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم إلا ابن ماجة.

وروى أبو داود رحمه الله: عن مالك بن أوس قال: أرسل إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تعالى النهار، فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا رمال، إنه قد دفَّ أهلُ أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء، فأقسم فيهم، قلت: لو أمرت غيري بذلك، فقال: خذه فجاءه يرفا فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟ قال:

نعم، فأذن لهم فدخلوا، ثم جاءه يرفا فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا، يعني علياً، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين، اقض بينهما وارحمهما، قال مالك بن أوس: خُيِّل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك، فقال عمر رضي الله عنه: اتئدا، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ» قالوا: نعم، ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ» فقالا: نعم، فقال: فإن الله خصَّ رسوله بخاصة، لم يخص بها أحداً من الناس، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير، فوالله ما استأثر بها عليكم، ولا أخذها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة، أو نفقته ونفقة أهله سنة، ويجعل ما بقي أسوة المال، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم أقبل على عليٍّ والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم، فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة» والله يعلم إنه لصادقٌ بارٌّ راشد، تابع للحق، فوليها أبو بكر، فلما توفي قلتُ: أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئتَ أنت وهذا وأنتما جميع، وأمركما واحد، فسألتمانيها فقلت: إن شئتما فأنا أدفعها إليكما، على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك، ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرُدَّاها إليَّ. أخرجوه.

وقد روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: إن الرجلَ كان يجعل من ماله النخلات، أو كما شاء الله، حتى فُتحت عليه قُريظة والنضير، قال: فجعل يردُّ بعد ذلك، قال: وإنَّ أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن، أو كما شاء الله، قال: فسألت النبي ﷺ فأعطانيها، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي، وجعلت تقول: كلا، والله الذي لا إله إلا هو لا يُعطيكهنَّ وقد أعطانيهنَّ، أو كما قالت، فقال نبي الله ﷺ: «لك كذا وكذا» قال: وتقول: كلا، والله، قال ويقول: «لك كذا وكذا» قال: وتقول: كلا والله، قال ويقول: «لك كذا وكذا» قال حتى أعطاها حسبت أنه قال: عشرة أمثاله، أو قال قريباً من عشرة أمثاله، أو كما قال. رواه البخاري ومسلم.

وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية، هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة، وقد قدمنا الكلام عليها في سورة الأنفال بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿كَيْلاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: لعنَ اللهُ الواشمات والمستوشمات، والمُتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل، قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها: أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت: كيت وكيت، قال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وفي كتاب الله تعالى، فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنتِ قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأتِ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ قالت: بلى! قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كانت كذلك لم تُجامعنا. أخرجاه في الصحيحين.

وقد ثبت في الصحيحين أيضاً: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

وروى النسائي: عن ابن عمر وابن عباس: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: اتقوه في امتثال أوامره، وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾

٨- يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء، أنهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: خرجوا من ديارهم، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين.

٩- ثم قال تعالى مادحاً للأنصار، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين، وآمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: وأوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم. رواه البخاري ههنا أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. روى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، مارأينا مثل قومٍ قدمنا عليهم،

أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم». لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وروى البخاري: عن أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيُصيبكم أثَرة» تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى البخاري: عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقْسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تَكفونا المؤُنة، ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. تفرد به دون مسلم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: ولا يجدون في أنفسهم حَسَداً للمهاجرين، فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة. قال الحسن البصري **﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾** يعني: الحسد **﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾** قال قتادة: يعني فيما أُعطي إخوانهم. وكذا قال ابن زيد، ومما يستدل به على هذا المعنى: ما رواه الإمام أحمد: عن أنس قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة» فطلع رجلٌ من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد علَّق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي، فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيتَ أن تُؤويني إليك حتى تمضي فعلتُ، قال: «نعم» قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه، ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الليالي الثلاث، وكدتُ أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليتُ دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشاً، ولا أحسدُ أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله فهذه التي بلغت بك، وهي التي لا تطاق، ورواه النسائي في اليوم والليلة، وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

وقوله تعالى: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾** يعني: حاجة، أي: يقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم، في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة، جَهْدُ المُقل»(١).

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾** وقوله: **﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾** فإنَّ هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه، ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم إلى ما أنفقوه.

---

(١) الحديث ليس في الصحيح، إنما رواه أحمد (٣/ ٤١٢) وأبو داود مختصراً ومطولاً (١٣٢٥) (١٤٤٩) من حديث عبد الله بن حبشي الخثعمي رضي الله عنه، وخرجه الألباني في «الصحيحة» (٥٦٦).

ومن هذا تصدَّق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك» فقال رضي الله عنه: أبقيتُ لهم الله ورسوله. وهكذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل، أحوج مايكون إلى الماء، فردَّه الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وروى البخاري: عن أبي هريرة قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجلٌ يُضيِّف هذا الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة» وأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وكذا رواه البخاري في موضع آخر ومسلم والنسائي، وفي رواية لمسلم: تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من سلم من الشح، فقد أفلح وأنجح. روى أحمد عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظُّلم، فإن الظلم ظُلُماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَن كَانَ قبلَكم، حَمَلهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» انفرد بإخراجه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظُّلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الفُحش، فإن الله لا يحب الفحش، وإياكم والشُّح، فإنه أهلكَ من كان قبلكم أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» ورواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبدٍ أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»(١).

وروى ابن أبي حاتم: عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر في القرآن، أن تأكل مال أخيك ظُلماً، ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل. وروى سفيان الثوري: عن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شح نفسي. لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: إني إذا وُقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، رواه ابن جرير.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث، ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال في آية براءة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ

(١) رواه النسائي (٦/ ١٣).

﴿الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: قائلين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ﴾ أي: بغضاً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة، أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ الآية[1].

وروى أبو داود: عن عمر رضي الله عنه ﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ﴾ هذه لرسول الله ﷺ خاصة قرى عرينة فدك وكذا وكذا ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ و ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبق أحدٌ من المسلمين إلا له فيها - حق، قال أيوب: أو قال: حظ - إلا بعض من تملكون من أرقائكم.

وروى ابن جرير: عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الآية، ثم قال هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي - وهو بسرو حمير - نصيبه فيها، لم يعرق فيها جبينه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى

(١) أخرجه مسلم بنحوه، دون ذكر الآية (٤/ ٢٣١٧).

مُّحصنَّةٍ أَوْ من وراءِ جُدُرٍ بَأْسُهم بينهُمْ شَديدٌ تَحْسَبُهُم جَميعًا وقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلكَ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقلُونَ (١٤) كمثَلِ الَّذِينَ من قبْلهِمْ قريبًا ذَاقُوا وبَالَ أمرِهِمْ ولَهُمْ عذابٌ أليمٌ (١٥) كَمثَلِ الشَّيْطَانِ إذْ قَالَ للإنسَانِ اكْفُرْ فلمَّا كفر قالَ إنِّي بريءٌ مِّنكَ إنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربَّ العَالَمِينَ (١٦) فكَانَ عاقبتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وذَلكَ جزاءُ الظَّالمينَ (١٧)﴾

١١- يخبر تعالى عن المنافقين، كعبد الله بن أبي وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به، إما لأنهم قالوا لهم قولا، ومن نيتهم أن لا يفُوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه.

١٢- ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: لا يقاتلون معهم ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا معهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللهِ﴾ أي: يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾.

١٤- ثم قال تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يعني: أنهم من جبنهم وهلعهم، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة. ثم قال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف. قال إبراهيم النخعي: يعني: أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾.

١٥- ثم قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان: يعني: كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر. وقال ابن عباس: يعني: يهود بني قينقاع. وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق.

وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

١٦- وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ يعني: مثل هؤلاء اليهود، في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم، ثم لما حقَّت الحقائق، وجدَّ بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان، إذ سوَّل للإنسان - والعياذ بالله - الكفر، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرأ منه وتنصل، وقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل، هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل،

بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها، فروى ابن جرير: عن عبد الله بن نهيك قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنَّها ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها، قال: فجاءوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، فاسجد لي سجدة، فسجد له، فلما سجد له، قال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو: برصيصا، فالله أعلم.

وهذه القصة مخالفة لقصة «جريج» العابد، فإن جريجاً اتهمته امرأة بغي بنفسها، وادَّعت أن حملها منه، ورفعت أمرها إلى ولي الأمر، فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته، وهو يقول: مالكم مالكم؟ قالوا: يا عدو الله، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا، فقال جريج: اصبروا، ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً، ثم قال: يا غلام من أبوك؟ قال: أبي الراعي، وكانت قد أمكنته من نفسها، فحملت منه، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً، وقالوا: نعيد صومعتك من ذهب، قال: لا، بل أعيدوها من طين كما كانت.

١٧- وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: جزاء كل ظالم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾

١٨- روى الإمام أحمد: عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حُفاة عُراة مجتابي النِّمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذَّن، وأقام الصلاة فصلى، ثم خطب فقال: «يا أيها الناس، اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ تصدق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلَّل وجهُه، كأنه مُذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنة، فله أجرُها، وأجر من عَملَ بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئةً، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» انفرد بإخراجه مسلم.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بتقواه، وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادَّخرتم

لأنفسكم من الأعمال الصالحة، ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد ثان ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا تنسوا ذكر الله تعالى، فينسيكم العمل الصالح، الذي ينفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل. ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء، في حكم الله تعالى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ في آيات أخر، دالات على أن الله تعالى يُكرم الأبرار، ويُهين الفجار، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الناجون المسلمون من عذاب الله عز وجل.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

٢١- يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق، والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم؟ وتخشع وتتصدع من خشية الله؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس يقول تعالى، لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه، لتصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن، أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير.

وقد ثبت في الحديث المتواتر: أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وُضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب، فجاوز الجذع إلى نحو المنبر،

فعند ذلك حن الجذع، وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده. ففي بعض روايات هذا الحديث: قال الحسن البصري بعد إيراده: فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع.

وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته، لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهتم؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ الآية. وقد تقدم أن معنى ذلك: أي: لكان هذا القرآن، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو، فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا، والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من جليل وحقير، وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير بما أغنى عن إعادته ههنا، والمراد أنه: ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٢٣- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، وقوله تعالى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قال وهب بن منبه: أي: الطاهر. وقال مجاهد وقتادة: أي: المبارك، وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام ﴿السَّلاَمُ﴾ أي: من جميع العيوب والنقائص، لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي: أَمِنَ خلقُه من أن يظلمهم، وقال قتادة: أمن بقوله أنه حق، وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به.

وقوله تعالى: ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد عزَّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء، فلا ينال جنابه لعزته، وعظمته وجبروته وكبريائه. ولهذا قال تعالى: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما تقدم في الصحيح: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبته».

وقال قتادة: الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء. وقال ابن جرير: الجبار المُصلِّح أمور خلقه، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم، وقال قتادة: المتكبر يعني عن كل سوء. ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ الخلق التقدير، والبرء هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كلُّ من قدَّر شيئاً ورتبه، يقدر على تنفيذه وإيجاده، سوى الله عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنتَ تَفْري ما خلقتَ وبعـــ ـــضُ القومِ يخلقُ ثم لا يَفري

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد، فالخلق التقدير، والفري التنفيذ، ومنه يقال قدر الجلاد ثم فرى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده.

وقوله تعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئاً، قال له كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ولهذا قال: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده، على الصفة التي يريدها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، ونذكر الحديث المروي في الصحيحين: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: فلا يرام جنابه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

آخر تفسير سورة الحشر

****

ترتيبها ٦٠ | سورة الممتحنة ـ مدنية | آياتها ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾

١ - كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم عمِّ عليهم خَبَرنا». فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه، فبعث في إثر المرأة، فأخذ الكتاب منها. وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته.

روى الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا رَوضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجة، وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وفي رواية للصحيحين فقال ﷺ: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه! فقال: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو: قد غفرت لكم» فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم، هذا لفظ البخاري في «المغازي» في غزوة بدر.

وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد: أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ يعني: المشركين والكفار، الذين هم محاربون لله ورسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنب، إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي: إنْ كنتم كذلك، فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي، باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم، حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي: تفعلون ذلك، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

٢- ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي: لو قدروا عليكم، لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به، بالمقال والفعال ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً.

٣- وقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: قراباتكم لا تنفعكم عند الله، إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط

الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم، فقد خاب وخسر، وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء.

قال الإمام أحمد: عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفّى دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار» ورواه مسلم وأبو داود.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾

٤- يقول تعالى لعباده المؤمنين، الذين أمرهم بمصارمة الكافرين، وعداوتهم ومجانبتهم، والتبري منهم **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾** أي: وأتباعه الذين آمنوا معه **﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾** أي: تبرأنا منكم **﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾** أي: بدينكم وطريقكم **﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾** يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم **﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾** أي: إلى أن تُوحِّدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد.

وقوله تعالى: **﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾** أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك، ويستغفرون لهم ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله عز وجل: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ و ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾**.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾** أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في الاستغفار للمشركين. هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك، وغير واحد.

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم، فلجأوا إلى الله، وتضرعوا إليه، فقالوا **﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلَّمنا أمورنا إليك، وفوَّضناها إليك، وإليك المصير: أي: المعاد في الدار الآخرة.

٥- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق، ما أصابهم هذا! وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: لا تُظهرهم علينا فيفتنونا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍّ هم عليه. واختاره ابن جرير، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُضام من لاذ بجنابك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك.

٦- ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضاً، لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا، هي الأولى بعينها، وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهييج إلى ذلك، لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الغني الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، والحميد: المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾

٧- يقول تعالى لعباده المؤمنين، بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي: محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء، من الجمع بين الأشياء المتنافرة، والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ الآية، وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي؟»(١).

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي الحديث: «أحبب حبيبك هوناً مَّا، فعسى أن يكون بغيضك يوماً مَّا، وأبغض بغيضك هوناً مَّا، فعسى أن يكون حبيبك يوما مَّا»(٢).

---

(١) الحديث في الصحيح، وقد مضى.
(٢) الحديث رواه الترمذي (٢٠٨٢) وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه، وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أي ذنب كان.

وقد قال مقاتل بن حيان: إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان صخر بن حرب، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته، فكانت هذه مودة ما بينه وبينه. وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر! فإن رسول الله ﷺ تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح، وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف. وفي صحيح مسلم: عن ابن عباس: أن أبا سفيان قال: يا رسول الله، ثلاث أعطنيهن، قال: «نعم» قال: تأمرني أن أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين، قال: «نعم» قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم» قال: وعندي أحسن العرب وأجمله، أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها - الحديث - وقد تقدم الكلام عليه.

٨- وقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، ولم يظاهروا، أي: يعاونوا على إخراجكم، كالنساء والضعفة منهم ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

روى الإمام أحمد: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنَّ أمي قدِمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك» أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قد تقدم تفسير ذلك في سورة الحجرات، وأورد الحديث الصحيح: «المقسطون على منابرَ من نور عن يمين العرش، الذين يَعدلون في حُكمهم وأهاليهم وما ولوا».

٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء، الذين ناصبوكم بالعداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾

١٠- تقدم في سورة الفتح في ذكر صلح الحديبية، الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان

فيه: «على أن لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا، وفي رواية: على أنه لا يأتيك منا أحدٌ، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي. فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات، فلا يرجعوهن إلى الكفار، لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وقال مجاهد ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾: فاسألوهن عما جاء بهن، فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سخطة أو غيره، ولم يؤمنَّ، فارجعوهن إلى أزواجهن، وقال عكرمة: يقال لها: ما جاء بك إلا حب الله ورسوله، وما جاء بك عشق رجل منا، ولا فرار من زوجك، فذلك قوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾. وقال قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله: ما أخرجكن النشوز، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، وحرص عليه، فإذا قلن ذلك، قُبل ذلك منهن.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً.

وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر، بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقَّة شديدة، وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها فافعلوا» ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفَّى له بذلك وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر، وكانت سنة اثنتين، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص ابن الربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لها صداقاً، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ ردَّ ابنته زينب على أبي العاص - وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين - على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة. ومنهم من يقول: بعد سنتين، وهو صحيح، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين(١).

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين، يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه، لأن الذي عليه الأكثرون، أنها متى انقضت العدة ولم يُسلم، انفسخ نكاحها منه. وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ يعني: أزواج المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من

---

(١) وجمع بينهما: على أن المراد بالست، ما بين هجرة زينب رضي الله عنها وإسلامه، وبالسنتين ما بين نزول الآية وبين قدومه مسلماً. (حاشية السندي مختصراً).

الأصدقة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري وغير واحد. وقوله تعالى: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن، أي: تزوجوهن بشرطه، من انقضاء العدة، والولي وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهن.

وفي الصحيح: عن الزهري عن عروة المسور بن مروان بن الحكم: أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: وإنما حكم الله بينهم بذلك، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم، اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الصلح، واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله، هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك.

١١ – ثم قال تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها.

وروى ابن جرير: عن الزهري قال: أقرَّ المؤمنون بحكم الله، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم، من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمؤمنين به: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين، رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها، من العَقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين، من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنَّ وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلى منزلهم إن كان بقي لهم، والعَقب: ما كان بقي من صداق نساء الكفار، حين آمنَّ وهاجرن.

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة. وهكذا قال مجاهد ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ يعني: مهر مثلها. وهكذا قال إبراهيم ومسروق وإبراهيم وقتادة ومقاتل والضحاك وسفيان بن حسين والزهري أيضاً. وهذا لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير، ولله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ

يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

١٢- روى البخاري: عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن مَن هاجر إليه من المؤمنات، بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقول: «قد بايعتك على ذلك» هذا لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد: عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن، أن لا نشرك بالله شيئاً الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة» هذا إسناد صحيح، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة. وقد رواه أحمد أيضاً، وزاد: «ولم يصافح منا امرأة» وكذا رواه ابن جرير.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة بنت قدامة يعني ابن مظعون قالت: أنا مع أمي رائطة ابنة أبي سفيان الخزاعية والنبي ﷺ يبايع النسوة، ويقول: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف» قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قلن نعم، فيما استطعتن» فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني: قولي أي بُنية نعم فيما استطعت، فكنت أقول كما يقلن.

وروى البخاري: عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا ﴿وَلَا تُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأةٌ يدها، قالت: أسعدتني فلانة، فأريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها، ورواه مسلم.

وفي رواية: فما وفَّى منهن امرأة غيرها، وغير أم سليم امرأة ملحان.

وللبخاري: عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح، فما وفَت امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان، أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما روى البخاري: عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يُجلّس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم

قال حين فرغ «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة - ولم يجبه غيرها - نعم، يا رسول الله - قال: فتصدقن، قال: وبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفَتَخ والخواتيم في ثوب بلال.

وقد روى الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس، فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التي أُخذت على النساء ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ - فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقب به، فهو كفَّارةٌ له، ومن أصابَ من ذلك شيئاً، فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه» أخرجاه في الصحيحين.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط، فبايعها ﴿عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان من غير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة: أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ شحيح، لا يُعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ، فهل عليَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خُذي من ماله بالمعروف، ما يكفيك ويكفي بنيك» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وفي حديث سمرة، ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله ﷺ، فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرِّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل، إما لغرض فاسدٍ، أو ما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يعني: فيما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر.

روى البخاري: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرطٌ شرطه الله للنساء. وقال ميمون بن مهران: لم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف، والمعروف: طاعة. وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله، وهو خيرة الله من خلقه في المعروف.

وقد قال غيره عن ابن عباس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجعد وأبي صالح وغير واحد: نهاهن يومئذ عن النوح، وقد تقدم حديث أم عطية في ذلك أيضاً.

وروى ابن جرير: عن أم عطية الأنصارية قالت: كان فيما اشترط علينا رسول الله ﷺ من المعروف حين بايعناه: أن لا ننوح، فقالت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني، فلا حتى أجزيهم، فانطلقت

فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفى منهن غيرها، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك، وقد روى البخاري هذا الحديث.

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرَب الخُدود، وشقّ الجيُوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وفي الصحيحين أيضاً: عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ بريءٌ من الصَّالقة والحالقة والشاقَّة.

وروى الحافظ أبو يعلى: عن أبي موسى الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطَّعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت» وقال: «النائحةُ إذا لم تتُب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران، ودرعٌ من جرب» ورواه مسلم في صحيحه منفرداً به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾

١٣- ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾** يعني: اليهود والنصارى، وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه، واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء، وقد يئسوا من الآخرة، أي: ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عزوجل.

وقوله تعالى: **﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾** فيه قولان أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور، أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه.

وقال الحسن البصري: الكفار الأحياء، قد يئسوا من الأموات. وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا. وكذا قال الضحاك، رواهن ابن جرير.

والقول الثاني: معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور، من كل خير. روى الأعمش: عن ابن مسعود **﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾** قال: كما يئس الكافر إذا مات، وعاين ثوابه واطلع عليه. وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وابن زيد والكلبي ومنصور، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

آخر تفسير سورة الممتحنة

****

ترتيبها ٦١ — سورة الصف ـ مدنية — آياتها ١٤

روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فلم يقم أحدٌ منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة، يعني: سورة الصف كلها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾

١- قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غير مرة بما أغنى عن إعادته.

٢- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إنكارٌ على مَن يعد وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف: إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة، بما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان». وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلةٌ من نفاق حتى يدعها» فذكر منهن: إخلاف الوعد. وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

٣- ولهذا أكَّد الله تعالى هذا الإنكار عليهم، بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبيٌّ، فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟ قالت: تمراً، فقال: «أما إنك لو لم تفعلي، كُتِبت عليك كذبة».

وذهب الإمام مالك رحمه الله: إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزمٌ على الموعود، وجبَ الوفاء به، كما لو قال لغيره: تزوج ولك عليَّ كل يوم كذا، فتزوج، وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك، لأنه تعلق به حقُّ آدمي. وهو مبني على المضايقة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنَّوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۞ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ

الْمَوْتِ﴾ الآية.

هكذا هذه الآية، معناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾** قال: كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عز وجل دلَّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحبَّ الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه، وجهادُ أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد كَره ذلك ناس من المؤمنين، وشقَّ عليهم أمره، فقال الله سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾** وهذا اختيار ابن جرير.

ومنهم من يقول: أنزلت في شأن القتال، يقول الرجل: قاتلت ولم يقاتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت ولم يصبر. وقال قتادة والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون قتلنا ضربنا طعنا وفعلنا، ولم يكونوا فعلوا ذلك. وقال ابن زيد: نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر، ولا يفون لهم بذلك. وقال مالك عن زيد بن أسلم: الجهاد.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي حرب بن أبي الأسود الذيلي عن أبيه قال: بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل، كلهم قد قرأ القرآن، فقال: أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم، وقال: كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيناها غير أني قد حفظت منها **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾** فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة.

٤- ولهذا قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾** فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين، إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان.

وروى ابن أبي حاتم: عن مطرف قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديثٌ كنت أشتهي لقاءه، فلقيته فقلت: يا أبا ذر، كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك، فقال: لله أبوك، فقد لقيت فهات، فقلت: كان يبلغني عنك أنك تزعم: أن رسول الله ﷺ حدثكم: «أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة» قال: أجل، فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ، قلت: فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل؟ قال: «رجل غزا في سبيل الله، خرج محتسباً مجاهداً فلقي العدو فقتل، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل، ثم قرأ: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾** وذكر الحديث. هكذا أورد هذا الحديث، من هذا الوجه بهذا السياق وهذا اللفظ واختصره، وقد أخرجه الترمذي والنسائي.

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً﴾** قال: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله تعالى: **﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾** أي: ملتصق بعضه ببعض من الصف في القتال. وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه ببعض، وقال ابن عباس **﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾** مثبتٌ لا يزول، ملصق بعضه ببعض.

وقال قتادة: ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره، وأن الله صف المؤمنين في قتالهم، وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به،

أورد ذلك كله ابن أبي حاتم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، أنه قال لقومه ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: لم توصلون الأذى إليَّ، وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟! وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر، ولهذا قال: «رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1]. وفيه نهيٌ للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ، أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني: التوراة قد بشَّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملإ بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي رواه محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» ورواه مسلم.

وروى أبو داود الطيالسي: عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد، وأنا أحمدُ، والحاشر، والمقفِّي، ونبي الرحمة والتوبة والملحمة» ورواه مسلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً، إلا أخذ عليه العهد: لئن بُعث محمدٌ وهو حيٌّ ليتبعنه،

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٦/ ٤٣٦) ومسلم في الزكاة (٢/ ٧٣٩) واللفظ له من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه.

وروى محمد بن إسحاق: عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: «دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي، كأنه خرج منها نورٌ، أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام» وهذا إسناد جيد، وروي له شواهد.

وقوله تعالى: **﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾** قال ابن جريج وابن جرير **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾** أحمد، أي: المبشَّر به في الأعصار المتقادمة، المنوَّه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات، قال الكفرة والمخالفون **﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾**.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾

٧- يقول تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾** أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يُدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**.

٨، ٩- ثم قال تعالى: **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومَثَلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل، كذاك ذلك مستحيل، ولهذا قال الله تعالى: **﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة، بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾

١٠- تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، ومن جملتها هذه الآية **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، والتي هي محصِّلة للمقصود، ومزيلة للمحذور.

١١- فقال تعالى: **﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** أي: من تجارة الدنيا والكد لها، والتصدي لها وحدها.

١٢ـ ثم قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: إن فعلتم ما أمرتكم به، ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣ـ ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: إذا قاتلتم في سبيله، ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا، موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾

١٤ـ يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مَن مُعيني في الدعوة إلى الله عز وجل؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به، وموازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام، في الإسرائيليين واليونانيين.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «مَن رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟»(١)، حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه وآزروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر، إنْ هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه، وفَّوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله «الأنصار» وصار ذلك عَلَماً عليهم، رضي الله عنهم أرضاهم.

وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ أي: لما بلَّغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغَلَبت فيه طائفةٌ ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ومن قائل: إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: عليهم، وذلك ببعثه محمد ﷺ، كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: «إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي»

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٢) وهو أول حديث طويل من حديث جابر رضي الله عنه.

قال: ثم قال: «أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي» قال: فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال: أنا، فقال له: «اجلس» ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنا، فقال له «اجلس» ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: «نعم أنت ذاك» فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا فيه ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ **﴿فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾** يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى **﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾** بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة، وهكذا رواه النسائي.

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الصف

****

ترتيبها ٦٢ | سورة الجمعة ـ مدنية | آياتها ١١

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة: بسورة الجمعة والمنافقين. رواه مسلم في صحيحه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾

١- يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض، أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ أي: هو مالك السموات والأرض، المتصرف فيها بحكمه، وهو المقدس أي: المنزّه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ تقدم تفسيرها غير مرة.

٢- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ الأميون: هم العرب، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وتخصيص الأميين بالذكر، لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ وقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ وقوله تعالى إخباراً عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام، بالآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وهذه الآية مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة، أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه الله سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقتَ اللهُ أهلَ الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، أي: نزراً يسيراً مما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

مُّبِينٍ﴾ وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل ﷺ. فبدّلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم، وحرفوها وغيروها وأوّلوها، فبعثَ الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم، كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه، من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب، في الأصول والفروع، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

٣- وقوله تعالى: **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال أو رجل من هؤلاء» ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير.

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسَّر قوله تعالى: **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾** بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله عز وجل، وإلى اتباع ما جاء به، ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى: **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** قال: هم الأعاجم، وكل مَن صدَّق النبي ﷺ من غير العرب. وروى ابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي، يدخلون الجنة بغير حساب» ثم قرأ **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾**. يعني: بقية من بقي من أمة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** أي: ذو العزة والحكمة، في شرعه وقدره.

٤- وقوله تعالى: **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** يعني: ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته ﷺ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾

٥- يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة، وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها؟ فهو يحملها حملاً حسياً، ولا

يدرى ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أوّلوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقال تعالى ههنا: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٦، ٧- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين، أي: فيما تزعمونه قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد أسلفنا الكلام هناك، وبينا أن المراد أن يدعو على الضلال من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ومباهلة المشركين في سورة مريم: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعنه الله: إنْ رأيتُ محمداً عند الكعبة، لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أنَّ اليهودَ تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً» رواه البخاري والترمذي والنسائي.

٨- وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة النساء ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)﴾

٩- إنما سميت الجمعة جمعة، لأنها مشتقة من الجمع، فإنَّ أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة، بالمعابد الكبار، وفيه كمُل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلقَ الله فيها السموات والأرض، وفيه خُلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مؤمن يسأل فيها الله خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح.

وقد كان يقال له في اللغة القديمة: يوم العروبة، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاري ومسلم: عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غد» لفظ البخاري.

وفي لفظ مسلم: «أَضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق».

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها ﴿فَامْضُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فأما المشي السريع إلى الصلاة، فقد نُهي عنه، لما أخرجاه في الصحيحين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوَقار، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا» لفظ البخاري.

وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جَلبة رجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا. أخرجاه. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة: يعني أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها. وكان يتأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: المشي معه، وروي عن محمد بن كعب وزيد ابن أسلم وغيرهما نحو ذلك.

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة: أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل».

ولهما: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غُسل يوم الجمعة واجبٌ على كل محتلم».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حقٌّ لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده» رواه مسلم، وعن جابر رضي الله عنه نحوه. رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

وروى الإمام أحمد: عن أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن غسَّل واغتسل يوم الجمعة، وبكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغُ، كان له بكل خطوةٍ أجر سنة صيامها وقيامها». وهذا الحديث له طرق وألفاظ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَن اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرَّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما

قرَّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» أخرجاه.

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه، ويتطيب، ويتسوك، ويتنظف ويتطهر. وروى الإمام أحمد: عن أبي أيوب الأنصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة، ومسَّ من طيبِ أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إنْ بدا له، ولم يُؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى».

وفي سنن أبي داود وابن ماجة: عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة، سوى ثوبي مهنته».

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال: «ما على أحدكم إنْ وَجدَ سعةً أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته» رواه ابن ماجة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ المراد بهذا النداء: هو النداء الثاني، الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري رحمه الله: عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر، على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء، يعني: يؤذن به على الدار التي تسمى الزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد.

وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار، دون العبيد والنساء والصبيان، ويعذر المسافر والمريض، وقيم المريض، وما أشبه ذلك من الأعذار، كما هو مقرر في كتب الفروع.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: اسعوا إلى ذكر الله، واتركوا البيع إذا نودي للصلاة، ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني، واختلفوا: هل يصح إذا تعاطاه متعاطٍ أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة، كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ترككم البيع، وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة، خير لكم أي في الدنيا والآخرة، إن كنتم تعلمون.

١٠- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي: فرغ منها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض، والابتغاء من فضل الله، كما كان عراك بن مالك رضي الله عنه، إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين. رواه ابن أبي حاتم.

وروي عن بعض السلف أنه قال: من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة، بارك الله له سبعين مرة، لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: حال بيعكم وشرائكم، وأخذكم وإعطائكم،

اذكروا الله ذكرا كثيرا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة.

ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة».

وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

١١ - يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة، إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: على المنبر تخطب، هكذا ذكره غير واحد من التابعين منهم أبو العالية والحسن وزيد بن أسلم وقتادة. وقد صح بذلك الخبر، فروى الإمام أحمد: عن جابر قال: قدمت عيرٌ المدينة ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أخرجاه في الصحيحين.

وروى الحافظ أبو يعلى: عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عيرٌ إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ وقال: كان في الاثني عشر الذين تثبتوا مع رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ دليلٌ على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً. وقد روى مسلم في صحيحه: عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن، ويذكر الناس.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقته.

آخر تفسير سورة الجمعة

****

ترتيبها ٦٣ سورة المنافقون ـ مدنية آياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)﴾

١- يقول تعالى مخبراً عن المنافقين، أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إذا حضروا عندك، واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقاً للخارج، لأنهم لم يكونوا يعتقدوا صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذَّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم.

٢- وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، والحلفان الآثمة، ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقد أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها ﴿اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: تصديقهم الظاهر جُنة، أي: تقية يتقون به القتل، والجمهور يقرؤها ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ جمع يمين، أي: إنما قُدِّر عليهم النفاق، لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: وكانوا أشكالاً حسنة، وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور، والهلع والجزع والجبن، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كلما وقع أمر، أو كائنة أو خوف، يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ

﴿إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ فهم جهامات وصور بلا معاني، ولهذا قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلالة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
(٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ
(٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ
وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨)﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن المنافقين - عليهم لعائن الله - أنهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ أي: صدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكباراً عن ذلك، واحتقاراً لما قيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

٦- ثم جازاهم على ذلك، فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما قال في سورة براءة، وقد تقدم الكلام على ذلك، وإيراد الأحاديث المروية هناك.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي عمر العدني قال: قال سفيان ﴿لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ قال ابن أبي عمر: حوَّل سفيان وجهه على يمينه، ونظر بعينه شزراً، ثم قال: هو ذا. وقد ذكر غير واحد من السلف، أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دَعْوى الجاهلية؟ دعوها فإنها مُنْتِنة» وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعزُّ منها الأذل، قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعْه، لا يتحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» ورواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم نحوه.

٧، ٨- وروى الإمام أحمد: عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله ابن أُبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال: فلامني قومي، وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، قال: فأرسل إليَّ نبي الله ﷺ فقال: «إنَّ الله قد أنزل عذرك وصدقك» قال: فنزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ ورواه البخاري عند هذه الآية.

ثم روى أحمد أيضاً: عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدةٌ، فقال عبد الله بن أُبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل! فقالوا: كذب زيد يا رسول الله، فوقع في نفسي مما قالوا، فأنزل الله تصديقي ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء، وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي.

وروى محمد بن إسحاق بن يسار: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه، أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتلَ عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾

٩- يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من الْتهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له، من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

١٠- ثم حثهم على الإنفاق في طاعته، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار فكما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

١١- ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يُنظِر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله، ممن لو ردَّ لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المنافقون

****

ترتيبها ٦٤ | سورة التغابن مدنية وقيل مكية | آياتها ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ② خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ④ ﴾

١- هذه السورة هي آخر المسبِّحات، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلق ويقدر، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن.

٢- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بدَّ من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيدٌ على أعمال عباده، سيجزيهم بها أتم الجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٣- ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والحكمة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ◆ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ◆ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب.

٤- ثم أخبر تعالى عن علمه، بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية، فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑥ ﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال، في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: خبرهم وما كان من أمرهم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: وخيم تكذيبهم، ورديء أفعالهم، وهو ما حلَّ بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدار الآخرة، مضاف إلى هذا الدنيوي.

٦- ثم علل ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم

﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي: كذبوا بالحق، ونكلوا عن العمل ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي: عنهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿زعم الَّذين كفروا أن لَّن يُبعثوا قُلْ بلى وربي لتبعثُنَّ ثُمَّ لتُنبَّؤُنَّ بما عملْتم وذلك على الله يسير (٧) فآمنوا بالله ورسوله والنُّور الَّذي أنزلْنا واللَّهُ بما تعملُون خبيرٌ (٨) يوم يجمعكُمْ ليوم الْجمع ذلك يوم التَّغابن ومن يُؤْمن بالله ويعملْ صالحًا يُكفِّر عنْهُ سيِّئاته ويُدْخلْهُ جنَّات تجْري من تحْتها الأنْهارُ خالدين فيها أبدًا ذلك الْفوْزُ الْعظيمُ (٩) والَّذين كفروا وكذَّبُوا بآياتنا أُولْئك أصْحابُ النَّار خالدين فيها وبئْس الْمصيرُ (١٠)﴾

٧- يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين، أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتخبرن بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة، التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ والثانية في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية، والثالثة هي هذه ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٨- ثم قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية.

٩-، ١٠- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، سمي ذلك لأنه يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار. وكذا قال قتادة ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار. قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

﴿ما أصاب من مُّصيبة إلاَّ بإذْن الله ومن يُؤْمنْ بالله يهْد قلْبهُ واللَّهُ بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ (١١) وأطيعُوا اللَّه وأطيعُوا الرَّسُول فإن تولَّيْتُمْ فإنَّما علىٰ رسُولنا الْبلاغُ الْمُبينُ (١٢) اللَّهُ لا إله إلاَّ هُو وعلى الله فلْيتوكَّل الْمُؤْمنُون (١٣)﴾

١١- يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هَدى الله قلبه، وعوّضه عما فاته من الدنيا هُدًى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي

طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: يسترجع يقول ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي اللهُ له قضاء إلا كان خيراً له، إنْ أصابته ضراء صَبَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكرَ فكان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن».

١٢ – وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر. ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمِّل من البلاغ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة، قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

١٣ – ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، فقال تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فالأول خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه، وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

١٤ – يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد، أن منهم من هو عدُو، الزوج والولد، بمعنى أنه يلتهى به عن العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني: على دينكم، وقال مجاهد ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهؤلاء رجالٌ أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول اللهﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول اللهﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكذا رواه الترمذي وابن جرير والطبراني.

وروي من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه، وهكذا قال عكرمة مولاه سواء.

١٥ – وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ عِندَهُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ والتي بعدها.

وروى الإمام أحمد: عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسنُ والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صَدَقَ الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» ورواه أهل السنن.

وروى الحافظ أبوبكر البزار عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الولدُ ثمرةُ القلوب، وإنهم مَجبنةٌ محزنةٌ».

١٦- وقوله تعالى: **﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾** أي: جهدكم وطاقتكم، كما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

وقد قال بعض المفسرين كما رواه مالك عن زيد بن أسلم: إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران، وهي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾**.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير في قوله: **﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** قال: لما نزلت هذه الآية، اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين **﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾** فنسخت الآية الأولى.

وروي عن أبي العالية وزيد بن أسلم وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقوله تعالى: **﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾** أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زجرتم.

وقوله تعالى: **﴿وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنفُسِكُمْ﴾** أي: وابذلوا مما رزقكم الله، على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خَلق الله كما أحسن الله إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإنْ لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** تقدم تفسيره في سورة الحشر، وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

١٧- وقوله تعالى: **﴿إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾** أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونزَّل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيحين: أن الله تعالى يقول: «مَن يُقرض غير ظلوم ولا عديم».

ولهذا قال تعالى يضاعفه لكم كما تقدم في سورة البقرة **﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾**.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويكفر عنكم السيئات، ولهذا قال تعالى: **﴿وَاللهُ شَكُورٌ﴾** أي: يجزي على القليل بالكثير **﴿حَلِيمٌ﴾** أي: يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات، والخطايا والسيئات.

١٨- **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** تقدم تفسيره غير مرة.

آخر تفسير سورة التغابن

****

ترتيبها ٦٥ | سورة الطلاق مدنية | آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) ﴾

١ - خوطب النبيﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن أنس قال: طلق رسول اللهﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعها فإنها صوّامة قوّامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة. ورواه ابن جرير.

وقد ورد من غير وجه أن رسول اللهﷺ طلق حفصة ثم راجعها.

وروى البخاري: أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول اللهﷺ فتغيظ رسول اللهﷺ منه، ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإنْ بَدَا له أنْ يطلقها، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل» وقد رواه في مواضع من كتابه، ومسلم ولفظه: «فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة، وألفاظ كثيرة، وموضع استقصائها كتب الأحكام.

وأمسُّ لفظٍ يورد ههنا، ما رواه مسلم في صحيحه: من طريق أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزة - يسأل ابن عمر - وأبو الزبير يسمع: كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول اللهﷺ فقال رسول اللهﷺ: «لِيُراجعها» فردها وقال: «إذا طهرت فليطلق أو يمسك» قال ابن عمر: وقرأ النبيﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ في قبل عدتهن.

وعن عبد الله في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: لايطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة. وقال عكرمة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ العدة الطهر، والقرء الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا؟

ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها، والبدعي هو: أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها، واعرفوا ابتداءها وانتهاءها، لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في ذلك. وقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: في مدة العدة، لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً.

وقوله تعالى ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: لا يخرجن من بيوتهن، إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي والحسن وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو قلابة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزت المرأة، أو بذت على أهل الرجل، وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: يفعل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها، ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل.

عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قالت: هي الرجعة، وكذا قال الشعبي وعطاء وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان والثوري، ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف، ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى، إلى أنه: لا تجب السكنى للمبتوتة، أي: المقطوعة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلقها زوجها أبو عمرو ابن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير، يعني نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة» ولمسلم: «ولا سكنى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يَغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك» الحديث.

وروى أبو القاسم الطبراني: عن عامر الشعبي: أنه دخل على فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس القرشي وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليَّ – وهو منطلق في جيش إلى اليمن – بطلاقي، فسألت أولياءه النفقة عليَّ والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً، ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليَّ بطلاقي، فسألت أولياءه السكنى والنفقة عليَّ، فقال أولياؤه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنما السكنى والنفقة للمرأة، إذا كان لزوجها عليها رجعة، فإذا كانت لا تحلُّ له حتى تنكحَ زوجاً غيره،

فلا نفقة لها ولا سكنى» وكذا رواه النسائي.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾

٢ ، ٣- يقول تعالى فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي: شارفن على انقضاء العدة، وقارين ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه، والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: محسناً إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف، أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل، وسبيل حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: على الرجعة إذا عزمتم عليها، كما رواه أبو داود وابن ماجة: عن عمران ابن حصين: أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها، فقال: طلقت لغير سنة، وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها، ولا تعد.

وقال ابن جريج كان عطاء يقول: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع، إلا شاهدا عدل، كما قال الله عز وجل، إلا أن يكون من عذر. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد، وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر، وأنه شرع هذا، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه: إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح، وقد قال بهذا طائفة من العلماء، ومن قال بهذا يقول: إن الرجعة لا تصح إلا بالقول، ليقع الإشهاد عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن مسعود قال: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وإنَّ أكبر آية في القرآن فرجاً ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

وفي المسند: عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أكثر من الاستغفار، جعل الله له من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ يقول: ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وقال الربيع بن خثيم ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ أي: من كل شيء ضاق على الناس، وقال عكرمة: من طلق كما أمره الله، يجعل له مخرجاً، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك، وقال ابن مسعود ومسروق ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ يعلم أن الله إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من حيث لا يدري وقال قتادة ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ أي: من شبهات الأمور والكرب عند الموت ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو ولا يأمل، وقال السدي

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يُطلق للسنة، ويراجع للسنة. وروى الإمام أحمد: عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليُحرم الرزق بالذَّنب يصيبه، ولا يردُّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العُمر إلا البرُّ» ورواه النسائي وابن ماجة. وروى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله، كفَاه الله كلَّ مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها».

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عباس: أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «يا غلام، إنِّي معلِّمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصُّحف» وقد رواه الترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من نَزَل به حاجةٌ فأنزلها بالناس، كان قَمناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل، أو بموت آجل».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه، بما يريده ويشاؤه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾

٤- يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض، أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهو قول طائفة من السلف، كمجاهد والزهري وابن زيد، أي: إن رأين دماً، وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة، وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه، فهو ثلاثة أشهر. وهذا مروي عن سعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى، واحتج عليه بما رواه أبي بن كعب: يا رسول الله، إن عدداً من عدد النساء لم تُذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال؟ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، ورواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا السياق.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية، وقد روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها، أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع، أو الأشهر، عملاً بهذه الآية، والتي في سورة البقرة.

وروى البخاري: عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال: أفتني في امرأة

ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت: أنا: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة -فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها، هكذا أورد البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً، وقد رواه هو مسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر.

وروى الإمام أحمد: عن المسور بن مخرمة: أن سبيعة الأسلمية تُوفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلمَّا تعلَّت من نفاسها خُطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح، فأذن لها أن تُنكح، فنُكحت. ورواه البخاري في صحيحه ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

وروى ابن جرير: عن علقمة بن قيس: أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها، فقد حلَّت، يريد بآية المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ وقد رواه النسائي.

وروى ابن أبي حاتم: عن مسروق قال: بلغ ابن مسعود أن علياً رضي الله عنه يقول: آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته، إن التي في النساء القصرى، نزلت بعد البقرة ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ورواه أبو داود وابن ماجة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ أي: يُسهِّلُ له أمره، وييسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً، ومخرجاً عاجلاً.

٥- ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم، بواسطة رسول الله ﷺ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل الثواب على العمل اليسير.

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (٧) ﴾

٦- يقول تعالى آمراً عباده، إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: عندكم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني سَعَتكم حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدى منه بمالها، أو تخرج من مسكنه، وروى الثوري: عن أبي الضحى ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قال: يطلقها، فإذا بقي يومان راجعها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف: هذه في البائن، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها،

قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها، سواء كانت حاملاً أو حائلاً، وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق على الوضع، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة، ثم اختلف العلماء: هل النفقة لها بواسطة الحمل، أم للحمل وحده؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره، ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: إذا وضعن حملهن وهنَّ طوالق، فقد بنَّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه ولكن بعد أن تغذيه باللبأ، وهو باكورة اللبن، الذي لا قوام للمولود غالبا إلا به، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً، ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية، فهي أحق بولدها.

٧- وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: لينفق على المولود والده، ووليه، بحسب قدرته ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ وعدٌ منه تعالى، ووعده حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾

٨- يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حلَّ بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: تمردت وطغت، واستكبرت عن اتباع أمر الله، ومتابعة رسله ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً﴾ أي: منكراً فظيعاً.

٩- ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: غِبَّ مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾.

١٠ - ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في الدار الآخرة، مع ما عجّل لهم من العذاب في الدنيا. ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا بالله ورسله ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

١١ - وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قال بعضهم «رسولا» منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة، لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر. وقال ابن جرير: الصواب أن «الرسول» ترجمة عن الذكر، يعني تفسير له. ولهذا قال تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي: في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وقال تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمّى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً، لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحاً، لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾

١٢ - يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة، وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «مَن ظلم قِيد شبرٍ من الأرض، طُوّقه من سبع أرضين». وفي صحيح البخاري: «خسف به إلى سبع أرضين». وقد ذكرت طرقه وألفاظه وعزوه في أول البداية والنهاية، عند ذكر خلق الأرض ولله الحمد والمنة.

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند، وقد تقدم في سورة الحديد عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ذكر الأرضين السبع وبعد ما بينهن، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام، وهكذا قال ابن مسعود وغيره.

آخر تفسير سورة الطلاق

****

ترتيبها ٦٦ — سورة التحريم – مدنية — آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾

١ – اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن مارية، وكان رسول الله ﷺ قد حرَّمها، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآية.

روى أبو عبد الرحمن النسائي: عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرَّمها، فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية.

وكذا روي عن قتادة وغيره وعن الشعبي، وكذا قال غير واحد من السلف منهم الضحاك والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان. وروى العوفي عن ابن عباس القصة مطولة.

وروى الهيثم بن كليب في مسنده: عن ابن عمر عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام» فقالت: أتحرِّم ما أحلَّ الله لك؟ قال: «فوالله لا أقربها» قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج.

وروى ابن جرير: عن سعيد بن جبير: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يعني: أن رسول الله ﷺ حرَّم جاريته، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ فكفَّر يمينه، فصيَّر الحرام يميناً.

ورواه البخاري: عن ابن عباس: في الحرام يمين تكفر، وقال ابن عباس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ورواه مسلم.

وروى النسائي: عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتي علي حراماً، قال: كذبت ليست عليك بحرام، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ عليك أغلظ الكفارات، عتق رقبة، تفرد به النسائي.

والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، كما روى البخاري عند هذه الآية: عن عائشة قالت: كان النبيﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير! إني أجد منك ريح مغافير! قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً» ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ هكذا أورد هذا الحديث ههنا بهذا اللفظ.

ورواه في كتاب الأيمان والنذور: وفيه: فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً» وقال إبراهيم بن موسى عن هشام: «ولن أعود له، وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً» ثم قال: المغافير شبيه بالصمغ، يكون في الرمث فيه حلاوة، أغفر الرمث: إذا ظهر فيه، واحدها مغفور، ويقال: مغافير. وهكذا قال الجوهري، قال: وقد يكون المغفور أيضاً للعشر والثمام والسلم والطلح، قال: والرمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحمض، قال: والعرفط شجر من العضاه ينضح المغفور. وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب الطلاق.

ثم قال البخاري في كتاب الطلاق: عن عائشة قالت: كان رسول اللهﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبيﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلتَ مَغَافير، فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد، فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جَرست نحلهُ العُرْفُط، وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك قالت: - تقول سودة - فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «لا» قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل» قالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه» قالت: - تقول سودة - والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي، هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم وعنده: قالت وكان رسول اللهﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح - يعني الريح الخبيثة - ولهذا قلن له: أكلت مغافير، لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: «بل شربت عسلاً» قلن: جرست نحله العرفط، أي: رعَت نحله شجر العرفط، الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته. قال الجوهري: جرست النحل العرفط تجرس إذا أكلته، ومنه قيل للنحل: جوارس. وقال: الجورس والجِرس: الصوت الخفي، ويقال سمعت جرس الطير إذا سمعت صوت منا قيرها على شيء تأكله.

والغرض: أن هذا السياق فيه: أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خالته عن عائشة، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة: أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فالله أعلم.

وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُعد في ذلك، ألا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم.

ومما يدل علي أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان، الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبيﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق، عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرز، ثم أتاني فسكبت علي يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبيﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس - قال الزهري: كره والله ما سأله عنه، ولم يكتمه - قال: هي عائشة وحفصة، قال: ثم أخذ يسوق الحديث قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول اللهﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول اللهﷺ؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول اللهﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك إنْ كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول اللهﷺ منك - يريد عائشة، قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول اللهﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول اللهﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول اللهﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر فدخل الغلام، ثم خرج إليَّ فقال: ذكرتك له فصمت، فانطلقتُ حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس، يبكي بعضهم فجلست عنده قليلاً، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي، فقال: ذكرتك له فصمت، فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليَّ فقال: قد ذكرتك فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل، قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول اللهﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير، قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليَّ، وقال: «لا» فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبيﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، فتبسم رسول اللهﷺ، فقلت: يا رسول الله، قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرَّنك أن كانت جارتك هي أوسمُ أو أحبُّ إلى رسول اللهﷺ منك، فتبسم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله

ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر، إلا أَهَبَةٌ ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله، أن يوسِّع على أمتك. فقد وسع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «أفي شكٍ أنتَ يا ابن الخطَّاب؟ أولئك قومٌ عجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن، حتى عاتبه الله عز وجل. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وروى مسلم أيضاً: عن عبد الله بن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكثون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت لأعلمنَّ ذلك - فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما - إلى أن قال: فدخلت فإذا أنا برسول الله ﷺ على أسكفة المشربة، فناديت فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله ﷺ - فذكر نحو ما تقدم - إلي أن قال: فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، فنزلت هذه الآية آية التخيير ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ﴾ ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فقلت: أطلقتهنَّ؟ قال: «لا» فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومقاتل بن حيان والضحاك وغيرهم ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكر وعمر، زاد الحسن البصري: وعثمان.

وروى البخاري: عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ﴾ فنزلت هذه الآية.

وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن، منها في نزول الحجاب، ومنها في أساري بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيئ كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ، فاستقريتهن أقول: لتكفنَّ عن رسول الله ﷺ، أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين، فقالت: يا عمر، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن؟ فأمسكت، فأنزل الله عز وجل ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾.

وهذه المرأة التي ردَّته عما كان فيه من وعظ النساء، هي: أم سلمة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري[1]. ومعنى قوله: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ﴾ ظاهر. قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: صائمات. قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب

---

(١) لم أجد التصريح باسم أم سلمة رضي الله عنها في البخاري، انظر الحديث في (٤٠٢، ٤٨٨٣، ٤٧٩٠، ٤٩١٦)

القرظي وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو مالك وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي وغيرهم.

وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن ﴿السَّائِحُونَ﴾ أي: المهاجرون، والقول الأول أولى. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسط النفس، ولهذا قال: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾

٦- روى سفيان الثوري عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ يقول: أدبوهم وعلموهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار. وقال مجاهد ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ قال: اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله، وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به، وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قدعتهم عنها وزجرتهم عنها. وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق المسلم أن يعلم أهله، من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه.

وفي معنى هذه الآية: الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي: من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها» هذا لفظ أبي داود.

وروى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ مثل ذلك.

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم، ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة، ومجانبة المعاصي وترك المنكر، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وقودها أي: حطبها الذي يلقى فيه جثث بني آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بها الأصنام التي تعبد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقال ابن مسعود ومجاهد وأبو جعفر الباقر والسدي هي: حجارة من كبريت. زاد مجاهد: أنتن من الجيفة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ﴾ أي: طباعهم غليظة، قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿شِدَادٌ﴾ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة، والمنظر المزعج.

وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية - عياذا بالله منهم.

٧- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا، فإنه لا يقبل منكم، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

٨- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب، وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

روى ابن جرير: عن النعمان بن بشير قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه، وروى الثوري: عن عمر قال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، أو لا يريد أن يعود فيه. وعن عبد الله ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود.

ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح: هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي ردَّه إليه بطريقه.

روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مغفل قال: دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة»؟ قال: نعم، وقال مرة: نعم سمعته يقول: «الندم توبة» ورواه ابن ماجة.

وروى ابن أبي حاتم: عن الحسن قال: التوبة النصوح: أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته.

فأما إذا جزم بالتوبة، وصمم عليها، فإنها تجبُّ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها»(١).

وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات؟ كما تقدم في الأثر: «ثم لا يعود فيه أبداً» أو يكفى العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي؟ بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك، لا يكون ضاراً في تكفير ما تقدم، لعموم قوله ﷺ: «التوبة تجبُّ ما قبلها»؟.

وللأول: أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً: «مَن أحسنَ في الإسلام، لم يؤاخذْ بما عَمِل في الجاهلية، ومَن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر»(٢).

فإذا كان هذا في الإسلام، الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وعسى من الله موجبة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: ولا يخزيهم معه، يعني: يوم القيامة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون، حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفئ.

وروى الإمام أحمد: عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

«اللهم لا تخزني يوم القيامة».

وروى محمد بن نصر المروزي: عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول مَن يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من الأمم؟ قال: «غرٌّ محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحدٌ من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم».

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)﴾

٩- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: في الآخرة.

١٠- ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم. ثم ذكر المثل فقال: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أي: نبيين رسولين، عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما، ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئا، ولا دفع عنهما محذورا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي لكفرهما ﴿وَقِيلَ﴾ للمرأتين ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء كما قدمنا في سورة النور. روى سفيان الثوري: عن ابن عباس يقول في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه. وقال العوفي عن ابن عباس نحوه. وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بَغَت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين. وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء، على ضعف الحديث الذي يأثره كثير من الناس: «من أكل مع مغفور له غفر له»! وهذا الحديث لا أصل له، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين، أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله، أنت قلت: من أكل مع مغفور له غفر له؟ قال: لا، ولكني الآن أقوله!![1].

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ

(١) والحديث كذب موضوع لا أصل له! كما نقله الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (١٠٧٣) عن شيخه الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى. وقال: وليس معناه صحيحاً على الإطلاق، فقد يأكل مع المسلمين الكفار والمنافقون.

مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾

١١ - وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين، إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضرَّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حَكَمٌ عدلٌ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.

وروى ابن جرير: عن سليمان قال: كانت امرأة فرعون تُعذَّب في الشمس، فإذا انصرف عنها، أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

فقولها ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ قالت العلماء: اختارت الجار قبل الدار، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع. ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهذه المرأة هي: آسية بنت مزاحم رضي الله عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته وصانته، والإحصان: هو العفاف والحرية ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: بواسطة الملك - وهو جبريل - فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ أي: بقدره وشرعه.

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: خطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

وقد ثبت في الصحيحين: من حديث عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإنَّ فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها، والكلام عليها في قصة عيسى ابن مريم عليهما السلام في كتابنا «البداية والنهاية» ولله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة التحريم

****

ترتيبها ٦٧ — سُورَةُ المُلك - مكية — آياتها ٣٠

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ سورة في القرآن، ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غفر له ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» ورواه أهل السنن الأربعة.

وقد روى الطبراني والحافظ الضياء المقدسي: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾».

وروى الترمذي: عن جابر: أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الم تَنزِيلُ﴾ و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)﴾

١- يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمرٌ وجودي، لأنه مخلوق، ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم ﴿لِيَبْلُوَهُمْ﴾ أي: يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً، وسمى هذه النشأة حياة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال: إن الله أذلَّ بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خير عملاً - كما قال محمد بن عجلان - ولم يقل أكثر عملاً. ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي: هو العزيز، العظيم المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه، وأناب بعد ما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزاً، وهو مع ذلك يغفر ويرحم، ويصفح ويتجاوز.

٣- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات، بعضهن على بعض؟ أو متفاصلات بينهن خلاء؟ فيه قولان: أصحهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره، وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أي: بل هو مصطحب مستو

ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا مخالفة ولا نقص، ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والثوري وغيرهم في قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ أي: شقوق.

وقال ابن عباس في رواية ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: من وهاء، وقال قتادة ﴿هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى خللاً يا ابن آدم؟

٤- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ قال قتادة مرتين ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ قال ابن عباس: ذليلاً، وقال مجاهد وقتادة: صاغراً. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال ابن عباس يعني: وهوكليل، وقال مجاهد وقتادة والسدي: الحسير المنقطع من الإعياء، ومعنى الآية: أنك لو كررت البصر مها كررت، لانقلب إليك، أي: لرجع إليك البصر ﴿خَاسِئاً﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر، ولا يرى نقصاً.

٥- ولما نفى عنها في خلقها النقص، بيَّن كمالها وزينتها، فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب، التي وضعت فيها، من السيارات والثوابت.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾ عاد الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ على جنس المصابيح، لا على عينها، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى، كما قال تعالى في أول الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ❁ وَحِفْظاً مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ❁ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ❁ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ❁ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهْتَدَى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾

٦، ٧- يقول تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل والمنقلب ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً﴾ قال ابن جرير: يعني: الصياح ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ❁ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة

عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة.

١٠ - فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو نسمع ما أنزله الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله، والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقلٌ يرشدنا إلى اتباعهم.

١١ - قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. روى الإمام أحمد: عن أبي البحتري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناسُ حتى يُعْذِروا من أنفسهم».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾

١٢ - يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه، فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي، ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: تكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعةٌ يظلهم الله تعالى في ظلِّ عرشه، يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم رجلاً: دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

١٣ - ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يخطر في القلوب.

١٤ - ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: ألا يعلم الخالق؟ وقيل: معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

١٥ - ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارَّة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع، ومواضع الزروع والثمار، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها، في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً، إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ فالسَّعْيُ في السبب، لا ينافي التوكل، كما روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ولو أنكم تَتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدوا خماصاً، وتروح بطاناً» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة. فأثبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل، وهو المسخر المسير المسبب.

﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: مناكبها: أطرافها

وفجاجها ونواحيها. وقال ابن عباس وقتادة أيضاً: مناكبها الجبال.

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾

١٦- وهذا أيضاً من لطفه ورحمته، بخلقه، أنه قادرٌ على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به، وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ وقال ههنا: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تذهب وتجيء وتضطرب.

١٧- ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أي: ريحاً فيها حصباء تدمغكم، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ وهكذا توعدهم ههنا بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيف يكون إنذاري، وعاقبة من تخلف عنه وكذب به.

١٨- ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة والقرون الخالية ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟ أي: عظيماً شديداً أليماً.

١٩- ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: تارة يصففن أجنحتهنَّ في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي: في الجو ﴿إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ أي: بما سخر لهنَّ من الهواء، من رحمته ولطفه ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾

٢٠- يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً، منكراً عليهم فيما اعتقدوه، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾.

٢١- ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أي: من هذا الذي إذا قطع الله عنكم

رزقه، يرزقكم بعده؟ أي: لا أحد، يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق وينصر، إلا الله عز وجل وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا﴾ أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: في معاندة واستكبار ونفور، على إدبارهم عن الحق، لا يسمعون له ولا يتبعونه.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه، كمثل من يمشي منكباً على وجهه، أي: يمشي منحنياً لا مستوياً ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة؟

هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ الآيات، أزواجهم أشباههم.

روى الإمام أحمد رحمه الله: عن أنس بن مالك يقول: قيل يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم، قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم؟» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: العقول والإدراك ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قلما تستعملون هذه القوى، التي أنعم الله بها عليكم في طاعته، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

٢٤- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بثّكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرّقكم، ويعيدكم كما بدأكم.

٢٥- ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار، المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه، من الاجتماع بعد هذا التفرق.

٢٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين، إلا الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن، وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: وإنما عليّ البلاغ، وقد أديته إليكم.

٢٧- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لما قامت القيامة القيامة، أي: لما قامت القيامة، وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريباً، لأن كل ما هو آت آت، وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي: تستعجلون.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ

الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾

٢٨- يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذّبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

٢٩- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: آمنا برب العالمين، الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منا ومنكم ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

٣٠- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: ذاهباً في الأرض إلى أسفل، فلا ينال بالفؤوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: نابع سائح جار على وجه الأرض، أي: لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، فمن فضله وكرمه، أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة الملك

****

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ترتيبها ٦٨ — سورة ن – مكية — آياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

١ - قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، وأن قوله تعالى: ﴿ن﴾ كقوله: ﴿ص﴾ ﴿ق﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا[1].

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به، كقوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فهو قسمٌ منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم، من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة يعني: وما يكتبون. وقال السدي: وما يسطرون يعني: الملائكة وما تكتب من أعمال العباد.

وقال آخرون: بل المراد ههنا بالقلم، الذي أجراه الله بالقَدَر، حين كتب مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام، وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم، فروى ابن أبي حاتم: عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، وما هو كائن إلى الأبد» وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود في كتاب السنة من سننه.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: والقلم: يعني: الذي كتب به الذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: يكتبون، كما تقدم.

٢ - وقوله: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: ولست ولله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون.

٣ - ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: بل إن لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، كقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع عنهم، وقال مجاهد: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه.

---

(١) وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن (ن) هو الحوت الذي بسطت الأرض على ظهره! وهو مما تلقاه عن أهل الكتاب، ولم يثبت بشرعنا، ولذا أعرضنا عنه، والله تعالى أعلم.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: وإنك لعلي دين عظيم، وهو الإسلام، وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن أنس، وكذا قال الضحاك وابن زيد.

وقال عطية: لعلى أدب عظيم.

وروى عبد الرزاق: عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم، قالت: كان خلقه القرآن، هذا مختصر من حديث طويل، وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث قتادة بطوله، وسيأتي في سورة المزمل إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

ومعنى هذا: أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً، سجية له وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في الصحيحين: عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً، كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

وروى البخاري: عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل ولا بالقصير. والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشمائل.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: ما ضرَب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا ضرب امرأةً ولا ضرب بيده شيء قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه، إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق» تفرد به.

٥، ٦- وقوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك، مَن المفتون الضال منك ومنهم؟ وهذه كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم وتعلمون يوم القيامة. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: المجنون. وكذا قال مجاهد وغيره، وقال قتادة وغيره ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: أولى بالشيطان. ومعنى المفتون ظاهر، أي: الذي قد افتتن عن الحق، وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيِّكُم﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو فستخبر ويخبرون، بأيكم المفتون، والله أعلم.

٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم تعالى أيُّ الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى

﴿عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾

٨- يقول تعالى، كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

٩- ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون.

وقال مجاهد ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ تركن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق.

١٠- ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته، إنما يتقي بأيمانه الكاذبة، التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين: الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب، وقال الحسن: كل حلاف مكابر، مهين ضعيف.

١١- وقوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني: الاغتياب. ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحرش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي الحالقة. وقد ثبت في الصحيحين: من حديث ابن عباس قال: مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين، فقال: إنهما ليُعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» الحديث، وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم.

وقال الإمام أحمد: عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتَّات» رواه الجماعة إلا ابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبي ﷺ: «خيارُ عبادِ الله، الذين إذا رُؤوا ذُكر الله، وشرار عباد الله المشّاءون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت».

١٢- وقوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحدَّ المشروع ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: يتناول المحرمات.

١٣- وقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أما العتل: فهو الفظ الغليظ، الصحيح الجموع المنوع. وروى الإمام أحمد: عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة: كل ضَعيفٍ متضعَّف، لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أنبئكم بأهل النار: كل عتلٍّ جَوَّاظ مستكبر» وقال وكيع: «كل جواظ جعظري مستكبر» أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا أبا داود.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار: «كلُّ جعظريٍّ جوَّاظٍ مستكبر، جمَّاع منَّاع» تفرد به أحمد.

قال أهل اللغة: الجعظري: الفظ الغليظ، والجواظ: الجموع المنوع.

وقال غير واحد من السلف منهم مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم: أن العُتل: هو المصحَّح الخَلق، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك.

وأما الزنيم: فروى البخاري: عن مجاهد عن ابن عباس ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: رجل من قريش، له زنمة مثل زنمة الشاة.

ومعنى هذا: أنه كان مشهوراً بالسوء، كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها، وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدَّعي في القوم، قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة. قال: ومنه قول حسان بن ثابت - يعني: يذم بعض كفار قريش -:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال آخر:

زنيــم لـيس يعـرف من أبوه بــغـي الأم ذو حــســب لـئـيــم

ويقـال: هو الأخنس شريق الثقفي حليف بني زهرة، وزعم أناس من بني زهرة: أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري، وليس به، وروى مجاهد عن ابن عباس: أنه زعم أن الزنيم الملحق النسب.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن المسيب أنه قال في هذه الآية: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾: هو الملصق بالقوم ليس منهم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: هو المريب، الذي يُعرف بالشر، وقال مجاهد: الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة».

والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه، ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث: «لا يدخل الجنة ولد زنا» (١).

وفي الحديث الآخر: «ولدُ الزنا شرُّ الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه» (٢).

١٤، ١٥- وقوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ❁ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ❁ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ❁ وَبَنِينَ شُهُوداً ❁ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ❁ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ❁ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ❁ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ❁ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ❁ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ❁ ثُمَّ نَظَرَ ❁ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ❁ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ❁ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ❁ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ❁ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ❁ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ❁ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ❁ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

١٦- وقال تعالى ههنا: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ قال ابن جرير: سنبين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم، وهكذا قال قتادة ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه. وفي رواية عنه: سنسمه سيماً على أنفه، وكذا قال السدي. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال، وقال آخرون ﴿سَنَسِمُهُ﴾ سمة أهل النار، يعني: نسوِّد وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير، ومال إلى أنه: لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو متجه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) رواه عبد الرزاق (٢/ ٢٠٥) والدارمي (٢٠١٨) والنسائي (٥٢٤١) وغيرهم من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو داود (٣٩٦٣) وأحمد (٢/ ٣١١) والطحاوي في المشكل (١/ ٣٩١) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظره والذي قبله في الصحيحة (٦٧٢، ٦٧٣).

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

١٧- هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ أي: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وهي: البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليجذنَّ ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشيء.

١٨- ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: فيما حلفوا به، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم، فقال تعالى:

١٩- ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: أصابتها آفة سماوية.

٢٠- ٢٢- ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال ابن عباس: أي: كالليل الأسود. وقال الثوري والسدي: مثل الزرع إذا حُصد، أي: هشيماً يبساً. ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: لما كان وقت الصبح، نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ، أي: القطع ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي: تريدون الصرام، قال مجاهد: كان حرثهم عنباً ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم.

٢٣، ٢٤- ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى، ما كانوا يتخافتون به، فقال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۞ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قوة وشدة، وقال مجاهد: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: جد، وقال عكرمة: على غيظ، وقال الشعبي ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على المساكين، ﴿قَادِرِينَ﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويرومون.

٢٦- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: فلما وصلوا إليها، وأشرفوا عليها، وهي الحالة التي قال الله عز وجل، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة، وكثرة الثمار، إلى أن صارت سوداء مدلهمة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، قاله ابن عباس وغيره.

٢٧- ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: بل هي هذه، ولكن نحن لا حظَّ لنا ولا نصيب.

٢٨- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن كعب والربيع بن أنس والضحاك وقتادة: أي: أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال مجاهد والسدي وابن جريج ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تستثنون. قال السدي: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً، وقال ابن جرير: هو قول القائل إن شاء الله، وقيل معناه: قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تسبحون؟ أي: هلا تسبحون الله، وتشكرونه على ما أعطاكم، وأنعم به عليكم.

٢٩، ٣٠- ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه، من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض، إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب.

٣١- ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي: اعتدينا وبغينا، وطغينا وجاوزنا الحد، حتى أصابنا ما أصابنا.

٣٢- ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا، وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة، والله أعلم.

ثم قد ذكر بعض السلف: أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن، قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها: ضروان، على ستة أميال من صنعاء، وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم قد خلَّف لهم هذه الجنة، وقد كانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمق، إذْ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك، عُوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء.

٣٣- قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله، وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفراً ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق.

وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي: من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ نهى عن الجُداد بالليل، والحصاد بالليل[1].

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) ﴾

٣٤- لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل،

(١) الجُداد: هو قطع ثمار النخل، وإنما نهي عن ذلك لأجل المساكين، حتى يحضروا في النهار فيتصدق عليهم منه، قاله ابن الأثير في النهاية.

وخالفوا أمره، بيَّن أنَّ لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم، التي لا تبيد ولا تفرغ، ولا ينقضي نعيمها.

٣٥- ثم قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء.

٣٦- ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: كيف تظنون ذلك؟

٣٧، ٣٨- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۞ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ يقول تعالى: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه، بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾.

٣٩- ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: أمعكم عهودٌ منا، ومواثيق مؤكدة؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون.

٤٠- ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: قل لهم: مَن هو المتضمن المتكفل بهذا؟ قال ابن عباس: يقول أيهم بذلك كفيل.

٤١- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾

٤٢- لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بيَّن متى ذلك كائن وواقع، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني: يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل، والبلاء والامتحان، والأمور العظام، وقد روى البخاري ههنا: عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يَكشفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجُد له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنة، ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا رياءً وسُمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طَبقاً واحداً» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما، من طرق وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور.

وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: هو يوم القيامة، يوم كرب وشدة. رواه ابن جرير(١).

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال شدة الأمر، وقال ابن عباس: هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة. وكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير.

---

(١) وهذا لا ينافي الحديث السابق، فإن الكشف عن الساق يكون في ساعة شدة وكرب، وهو يوم القيامة، فليس فيه تأويل ولا ردٌّ لحديث أبي سعيد رضي الله عنه، بل هو موافق ومطابق، فتأمل.

٤٣- وقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة، بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه، مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحدٌ من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعودُ ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون.

٤٤- ثم قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وهذا تهديدٌ شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظره، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

٤٥- ولهذا قال ههنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي.

وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ تعالى ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

٤٦- ، ٤٧- وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ تقدم تفسيرهما في سورة الطور، والمعنى في ذلك: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾

٤٨- يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك، وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك، في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى عليه السلام، حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان، من ركوبه في البحر، والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقال ههنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي: وهو مغموم، وقال عطاء

الخراساني وأبو مالك: مكروب.

٤٩ ، ٥٠- فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقد روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى» ورواه البخاري، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

٥١- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ لينفذونك ﴿بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: يعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حقٌّ بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة:

(حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه): روى أبو عبد الله ابن ماجة: عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عينٍ أو حُمةٍ» وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

(حديث أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه): قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العينَ لَتُولعُ الرجلَ بإذن الله، فيتصاعد حَالقاً، ثم يتردَّى منه»[1]. إسناده غريب ولم يخرجوه.

(حديث حابس التميمي رضي الله عنه): روى الإمام أحمد: عن حية بن حابس التميمي أن أباه أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيءَ في الهام، والعينُ حقٌّ، وأصدق الطِّيرةِ الفأل» وقد رواه الترمذي.

طريق أخرى: روى مسلم في صحيحه: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابق القَدَر، سبقت العين، وإذا استُغسلتُم فاغسلوا» انفرد به البخاري.

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: «أُعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطانٍ وهامَّة، ومن كل عين لامةً» ويقول هكذا كان إبراهيم يُعوِّذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام. أخرجه البخاري وأهل السنن.

(حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه): روى ابن ماجة: عن أبي أمامة أسعد بن حنيف قال: مرَّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم، ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لُبط به، فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له: أدرك سهلاً صريعاً، قال: «مَن تتهمون به» قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علامَ يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ، فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه قال الزهري: وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه، وقد رواه النسائي ومالك بن أنس.

(حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه): روى ابن ماجة: عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من أعين الجان، وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان، أخذ بهما وترك ما سوى ذلك. ورواه الترمذي والنسائي.

(حديث آخر عنه): روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ قال: «نعم» قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شرِّ كلِّ نفسٍ وعين يشفيك، بسم الله

---

(١) فتولع: أي: تتعلق، بالرجل أو بالمرأة، فيتصاعد حالقاً أي: يصعد جبلاً عالياً، ثم يتردى أي: يسقط منه، وذلك بإذن الله تعالى.

أرقيك» ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبا داود.

(حديث أبي هريرة رضي الله عنه): روى الإمام أحمد: عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العينَ حقٌ» أخرجاه.

(حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها): روى الإمام أحمد: عن عبيد بن رفاعة الزرقي قال: قالت أسماء: يا رسول الله، إن بني جعفر تُصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القَدر، لسبقته العين» وكذا رواه الترمذي وابن ماجة.

(حديث عائشة رضي الله عنها): روى ابن ماجة: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين. ورواه البخاري ومسلم.

ثم روى ابن ماجة: عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن النفس حق» تفرد به.

(حديث جابر رضي الله عنه): روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُ من يموتُ من أمتي - بعد كتاب الله، وقضائه وقدره - بالأنفس» قال البزار: يعني: العين.

روى الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروي - المعروف بشكَّر - في كتاب العجائب، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تُدخل الرجل العينُ في القبر، وتدخل الجمل القدر». وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات، ولم يخرجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: يزدرونه بأعينهم، يؤذونه بألسنتهم، ويقولون: إنه لمجنون! أي: لمجيئه بالقرآن.

٥٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة القلم

****

ترتيبها ٦٩ — سورة الحاقة – مكية — آياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَاقَّةُ ⦗١⦘ مَا الْحَاقَّةُ ⦗٢⦘ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ⦗٣⦘ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ⦗٤⦘ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⦗٥⦘ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⦗٦⦘ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⦗٧⦘ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ⦗٨⦘ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ⦗٩⦘ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⦗١٠⦘ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ⦗١١⦘ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ⦗١٢⦘﴾

١ - ٣- الحاقة من أسماء يوم القيامة، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظم الله أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

٤، ٥- ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي: الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة: الطاغية: الصيحة. وهو اختيار ابن جرير، وقال مجاهد: الطاغية الذنوب، وكذا قال الربيع بن أنس وابن زيد إنها: الطغيان، وقرأ ابن زيد ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ وقال السدي: فأهلكوا بالطاغية، قال: يعني عاقر الناقة.

٦- ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: باردة. قال قتادة والسدي والربيع بن أنس والثوري ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: شديدة الهبوب. قال قتادة: عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحاك ﴿صَرْصَرٍ﴾: باردة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة. وقال علي وغيره: عتت الخزنة فخرجت بغير حساب.

٧- ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلطها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والثوري وغيرهم ﴿حُسُومًا﴾ متتابعات. وعن عكرمة والربيع بن خثيم: مشائيم عليهم، كقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ ويقال: إنها التي تسميها الناس الأعجاز، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وقيل: لأنها تكون في عجز الشتاء. قال ابن عباس ﴿خَاوِيَةٍ﴾ خربة. وقال غيره: بالية. أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثة هامدة، كأنها قائمة النخلة إذا خرجت بلا أغصان. وقد ثبت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصرتُ بالصَّبا، وأهلكت عادٌ بالدَّبُور»[(١)].

٨- ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ أي: هل تحس منهم من أحدٍ من بقاياهم؟ أو ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا

---

(١) الصبا: الريح الشرقية، والدبور هي الريح الغربية التي تقابلها. انظر الفتح (٣٢٠٥).

عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً.

٩- ثم قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾ قُرِئَ بكسر القاف، أي: ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه، من كفار القبط، وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له. وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ وهي: التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا.

١٠- ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا جنس، أي: كلٌّ كذب رسول الله إليهم، كما قال تعالى ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ومَن كذَّب برسول، فقد كذب بالجميع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ - كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ - كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال ههنا: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عظيمة شديدة أليمة، قال مجاهد ﴿رَابِيَةً﴾ شديدة، وقال السدي: مهلكة.

١١- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي: زاد على الحد بإذن الله، وارتفع على الوجود، وقال ابن عباس وغيره: طغا الماء: كثر. وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه، حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله، فاستجاب الله له، وعمَّ أهل الأرض بالطوفان، إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته.

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء.

١٢- ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عاد الضمير على الجنس، لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها، ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة.

والأول أظهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة سامعة، وقال قتادة: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ عقلت عن الله، فانتفعت بما سمعت من كتاب الله. وقال الضحاك ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ سمعتها أذن ووعت، أي: من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام في كل من فهم ووعى.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴾

١٣- يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق، حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة، وقد أكَّدها ههنا بأنها «واحدة» لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار ولا

تأكيد، وقال الربيع: هي النفخة الأخيرة. والظاهر ما قلناه.

١٤- ولهذا قال ههنا: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: فمدت مد الأديم العكاظي، وتبدل الأرض غير الأرض.

١٥- ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة.

١٦- ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ قال ابن جريج: هي كقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وقال ابن عباس: متخرقة، والعرش بحذائها.

١٧- ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ المَلك: اسم جنس، أي: الملائكة على أرجاء السماء، قال ابن عباس: على ما لم يهِ منها، أي: حافاتها. وكذا قال سعيد بن جبير والأوزاعي، وقال الضحاك: أطرافها. وقال الحسن البصري: أبوابها، وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يقول: على ما استدق من السماء، ينظرون إلى أهل الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا «العرش» العرش العظيم، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب.

وروى ابن أبي حاتم: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لِي أن أُحدِّثكم عن مَلَك من حملة العرش، بُعْد ما بين شحْمة أُذنه وعنقه بَخفق الطير، سبعمائة عام» وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، وقد رواه أبو داود في كتاب «السنة» من سننه.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ قال: ثمانية صفوف من الملائكة. قال، وروى عن الشعبي وعكرمة والضحاك وابن جريج مثل ذلك، وكذا روي عن ابن عباس.

١٨- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: تعرضون على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وقد روى ابن أبي الدنيا: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخفُّ عليكم في الحساب غداً، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وقد روى ابن جرير: عن أبي وائل عن عبد الله قال: يُعرض الناسُ يوم القيامة ثلاث عرضات: عرضتان: معاذيرٌ وخُصومات، والعَرضة الثالثة، تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه، وآخذ بشماله.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾

١٩- يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه، يقول لكل من لقيه: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي: خذوا اقرءوا كتابيه، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محصنة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات. قال عبد الرحمن بن زيد معنى: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي: ها اقرءوا كتابيه، و«ؤم» زائدة. كذا قال! والظاهر أنها: بمعنى هاكم.

وقد تقدم في الصحيح: حديث ابن عمر: حين سُئل عن النَّجوى فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدني الله العبدَ يوم القيامة، فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هَلك، قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافرُ والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين».

٢٠- وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾.

٢١- قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية.

٢٢- ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ قال البراء بن عازب: أي: قريبة، يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره. وكذا قال غير واحد.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: يقال لهم ذلك، تفضلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً، وإلا فقد ثبت في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنَّ أحداً كم لن يُدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضل».

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴾

٢٥ - ٢٧- وهذا إخبار عن حال الأشقياء، إذا أُعطي أحدُهم كتابه في العَرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ قال الضحاك: يعني: موتة ولا حياة بعدها. وكذا قال محمد بن كعب والربيع والسدي، وقال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه.

٢٨، ٢٩- ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي، عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليَّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير.

٣٠- فعندها يقول الله عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عُنفاً من المحشر، فتغله أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم توردُه إلى جهنم فتصليه إياها، أي: تغمره فيها.

٣١- ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: اغمروه فيها.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا. وقال العوفي عن ابن عباس وابن جريج: بذراع المَلَك.

وقال العوفي عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه.

٣٣، ٣٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يقوم بحق الله عليه، من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإنَّ لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان، والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبي ﷺ وهو يقول: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم».

٣٥- ٣٧- وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى، لا حميم: وهو القريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له ههنا إلا من غسلين. قال قتادة: هو شر طعام أهل النار. وقال الربيع والضحاك: هو شجرة في جهنم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الغسلين صديد أهل النار.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾

٣٨، ٣٩- يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته، الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم، أن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله، على عبده ورسوله الذي اصطفاه، لتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾.

٤٠- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: محمداً ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهذا جبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يعني: أن محمداً رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: بمتهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾.

٤١، ٤٢- وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري، لأن كلا منهما مبلغ عن الله، ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه.

٤٣- ولهذا قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم

مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

٤٤- يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أي: محمدﷺ، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة.

٤٥- ولهذا قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ قيل معناه: لانتقمنا منه باليمين، لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه.

٤٦- ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العرق الذي القلب معلق فيه، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحكم وقتادة والضحاك ومسلم البطين وأبوصخر حميد بن زياد، وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقه وما يليه.

٤٧- وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: فما يقدر أحدٌ منكم على أن يحجز بيننا وبينه، إذا أردنا به شيئاً من ذلك، والمعنى في هذا: بل هو صادقٌ بار راشد، لأن الله عز وجل مقررٌ له ما يبلغه عنه، ومؤيدٌ له بالمعجزات الباهرات، والدلالات القاطعات.

٤٨- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

٤٩- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن.

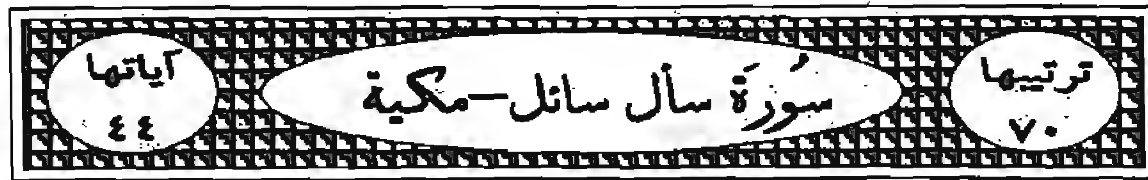
٥٠- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة. وحكاه عن قتادة بمثله، وروى ابن أبي حاتم: عن أبي مالك ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يقول: لندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به، لحسرةٌ في نفس الأمر على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

٥١- ولهذا قال ههنا: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الخبر الصدق الحق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب.

٥٢- ثم قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

آخر تفسير سورة الحاقة

****



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦﴾

١ - ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مقدر استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: وعذابه واقع لا محالة.

روى النسائي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قال: النضر ابن الحارث بن كلدة. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله، وهو واقع بهم، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: دعا داع بعذاب واقع، يقع في الآخرة. قال: وهو قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٢ - وقوله تعالى: ﴿وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مرصدٌ معد للكافرين، وقال ابن عباس: واقع جائي ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي: لا دافع له، إذا أراد الله كونه.

٣ - ولهذا قال: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ذي المعارج يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهد: ذي المعارج: معارج السماء، وقال قتادة: ذو الفواضل والنعم.

٤ - وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ روى عبد الرزاق عن قتادة: تعرج: تصعد. وأما الروح: فقال أبو صالح: هم خلقٌ من خلق الله، يشبهون الناس وليسوا أناساً! قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قُبضت يُصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة: عن البراء مرفوعاً: الحديث بطوله: في قبض الروح الطيبة قال فيه: «فلا يزال يُصعد بها من سماء إلى سماء، حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة».

وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة، وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة، وأنه من ياقوتة حمراء، كما ذكره ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش[1].

---

(١) وقد طبع عام (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م) بتحقيقنا.

القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا، منذ خلقَ الله هذا العالم إلى قيام الساعة. روى ابن أبي حاتم: عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: الدنيا عمرها خمسون ألف سنة، وذلك عمرها يوم سماها الله عز وجل يوم ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ قال: اليوم: الدنيا. وروى عبد الرزاق: عن عكرمة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة، لا يدري أحدٌ كم مضى، ولا كم بقي إلا الله عز وجل.

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو قول غريب جداً.

القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة، وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: يوم القيامة. وإسناده صحيح. وكذا قال الضحاك وابن زيد، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هو يوم القيامة، جعله الله تعالى على الكافرين، مقدار خمسين ألف سنة.

وقد وردت أحاديث في معنى ذلك: روى الإمام أحمد: عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «ما من صاحب كنزٍ لا يُؤدي حقَّه، إلاَّ جُعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم، ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً به دون البخاري، وموضع استقصاء طرقه وألفاظه في كتاب الزكاة، من كتاب الأحكام.

والغرض من إيراده ههنا قوله: «حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة».

وقد روى ابن جرير: عن ابن أبي مليكة قال: سأل رجلٌ ابن عباس عن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: فاتَّهمه، فقال: إنما سألتك لتحدثني، قال: هما يومان ذكرهما الله، الله أعلم بهما، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم.

٥- وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب، استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾.

٦- ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً﴾ أي: وقوع العذاب وقيام الساعة، يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى مستحيل الوقوع.

٧- ﴿وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ أي: المؤمنون يعتقدون كونه قريباً، وإن كان له أمدٌ لا يعلمه إلا الله عز وجل، لكن كل ما هو آتٍ فهو قريب، وواقع لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾

٨- يقول تعالى: العذاب واقع بالكافرين ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء

وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وغير واحد: أي: كدردي الزيت.

٩- ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف المنفوش. قاله مجاهد وقتادة والسدي وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ۞ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوإ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره، قال العوفي عن ابن عباس: يَعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

وهذه الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

١١ – ١٤- وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۞ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۞ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ۞ كَلَّا﴾ أي: لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يودُّ يوم القيامة إذا رأى الأهوال، أن يفتدي من عذاب الله، ولا يقبل منه، قال مجاهد والسدي ﴿فَصِيلَتِهِ﴾: قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذه الذي هو منهم. وقال أشهب عن مالك: فصيلته أمه.

١٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَى﴾ يصف النار، وشدة حرها.

١٦- ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ الجلود والهام. وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم. وقال سعيد بن جبير: العصب، وقال أبو صالح ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ يعني أطراف اليدين والرجلين، وقال أيضاً ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ لحم الساقين، وقال الحسن البصري وثابت البناني ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ أي: مكارم وجهه، وقال الحسن أيضاً: تحرق كل شيء فيه، ويبقى فؤاده يصيح وقال قتادة ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ أي: نزاعة لهامته، ومكارم وجهه، وخلقه وأطرافه. وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئاً.

١٧، ١٨- وقوله تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ أي: تدعو النار إليها أبناءها، الذين خلقهم الله لها، وقدَّر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم كما قال الله عز وجل كانوا ممن: أدبر وتولى، أي: كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات، ومن إخراج الزكاة.

وقد ورد في الحديث: «ولا توعى فيوعي الله عليك»[1].

وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، سمعت وعيدَ الله، ثم أوعيت الدنيا. وقال قتادة: كان جموعاً، نموماً للحديث.

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (٣/ ٣٠١) ومسلم في الزكاة أيضاً (٢/ ٧١٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

﴿إِنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)﴾

١٩- يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾.

٢٠- ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ أي: إذا أصابه الضر، فزع وجزع، وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير.

٢١- ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ أي: إذا حصلت له نعمة من الله، بخل بها على غيره، ومنع حق الله تعالى فيها. وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «شرُّ ما في رجلٍ شحٌّ هالع، وجبنٌ خالع» ورواه أبو داود.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلى الخير، ويسر له أسبابه وهم المصلون.

٢٣- ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ قيل: معناه: يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود ومسروق وإبراهيم النخعي. وقيل: المراد بالدوام ههنا: السكون والخشوع، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قاله عقبة بن عامر، ومنه: الماء الدائم، وهو الساكن الراكد، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة، فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده، ليس بدائم على صلاته، لأنه لم يسكن فيها ولم يدم، بل ينقرها نقر الغراب، فلا يفلح في صلاته.

وقيل: المراد بذلك: الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» وفي لفظ: «ما داوم عليه صاحبه» قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، وفي لفظ: أثبته.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ذُكر لنا: أن دانيال عليه السلام نعت أمة محمد ﷺ فقال: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة، فعليكم بالصلاة، فإنها خلقٌ للمؤمنين حسن.

٢٤، ٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: في أموالهم نصيبٌ مقرر لذوي الحاجات، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الذاريات.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عملَ من يرجو الثواب، ويخاف العقاب.

٢٧، ٢٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يأمنه أحدٌ ممن عقل عن الله أمره، إلا بأمان من الله تبارك وتعالى.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي: يكفونها عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه.

٣٠، ٣١- ولهذا قال تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: من الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بما أغنى عن إعادته ههنا.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». وفي رواية «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غادر، وإذا خاصم فجر».

٣٣- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: محافظون عليها، لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

٣٤- ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: على مواقيتها وأركانها، وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة، واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها، والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ سواء ولهذا قال هناك: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٥- وقال ههنا: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسارّ.

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾

٣٦- يقول تعالى منكراً على الكفار، الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى، وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارُّون منه، متفرقون عنه، شاردون يميناً وشمالاً، فرقاً فرقاً، وشيعاً شيعاً، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۞ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ الآية. وهذه مثلها فإنه قال تعالى: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفار

الذين عندك يا محمد، مهطعين أي: مسرعين نافرين منك كما قال الحسن البصري: مهطعين، أي: منطلقين.

٣٧- ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ واحدها عزة، أي: متفرقين، وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قال: العزين: العُصب من الناس، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به.

وروى ابن جرير: عن الحسن في قوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً، يقولون ما قال هذا الرجل. وقال قتادة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ عامدين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: فرقاً حول النبيﷺ، لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيهﷺ.

وعن جابر بن سمرة: أن رسول اللهﷺ خرج عليهم وهم حِلق، فقال: «مالي أراكم عزين؟» رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير.

ورواه ابن جرير: عن أبي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ◆ كَلَّا﴾ أي: أيطمع هؤلاء - والحالة هذه - من فرارهم عن الرسولﷺ ونفارهم عن الحق - أن يدخلوا جنات النعيم؟ كلا بل مأواهم جهنم.

٣٩- ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم، الذي أنكروا كونه، واستبعدوا وجوده، مستدلاً عليهم بالبداءة، التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ◆ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ◆ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ◆ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ◆ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ◆ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

٤٠- ثم قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ أي: الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب من مغاربها.

وتقدير الكلام: ليس الأمر كما يزعمون، أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداء القسم، ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى، ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيها من المخلوقات، من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ◆ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقال ههنا: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾.

٤١- ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإنَّ قدرته صالحة لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ◆ بَلَىٰ قَادِرِينَ

عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ وقال تعالى: **﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾** واختار ابن جرير **﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ﴾** أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا، وجعلها كقوله: **﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾** والمعنى الأول أظهر، لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٤٢- ثم قال تعالى: **﴿فَذَرْهُمْ﴾** أي: يا محمد **﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾** أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم **﴿حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾** أي: فسيعلمون غِب ذلك، ويذوقون وباله.

٤٣- **﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾** أي: يقومون من القبور، إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نُصب يوفضون، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إلى عَلَم يسعون، وقال أبو العالية ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها، وقد قرأ الجمهور: **﴿إِلَى نَصْبٍ﴾** بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصوب.

وقرأ الحسن البصري: **﴿نُصُبٍ﴾** بضم النون والصاد، وهو: الصنم، أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يوفضون: يبتدرون أيهم يستلمه أول. وهذا مروي عن مجاهد ويحيى بن أبي كثير ومسلم البطين وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وأبي صالح وعاصم بن أبي بهدلة وابن زيد وغيرهم.

٤٤- وقوله تعالى: **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾** أي: خاضعة **﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾** أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة **﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾**.

آخر تفسير سورة المعارج

****

ترتيبها ٧١ سورة نوح عليه السلام مكية آياتها ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾

١ - يقول تعالى مخبراً عن نوح ﷺ، أنه أرسله إلى قومه، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين النذارة، ظاهر الأمر واضحة.

٣ - ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: اتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

٤ - ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما آمركم به، وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم، و «من» ههنا قيل: إنها زائدة، ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل، ومنه قول بعض العرب: قد كان من مطر، وقيل: إنها بمعنى «عن» تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم، واختاره ابن جرير، وقيل: إنها للتبعيض، أي: يغفر لكم الذنوب العظام، التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه، أوقعه بكم. وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك، لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دان لعزته جميع المخلوقات.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ

---

(١) حديث صحيح بشواهده، رواه أحمد وغيره. انظر الصحيحة برقم: (١٩٠٨).

سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

٥ ، ٦ - يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة، التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بيَّن لقومه ووضَّح لهم، ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً﴾ أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق، فروا منه وحادوا عنه.

٧- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي: سدوا آذانهم، لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، كما أخبر تعالى عن كفار قريش ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ قال ابن جرير: عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول. ﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي: استمروا على ما هم فيه، من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ أي: واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له.

٨- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾ أي: جهرة بين الناس.

٩- ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ أي: فيما بيني وبينهم، فتنوَّع عليهم الدعوة، لتكون أنجع فيهم.

١٠- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ أي: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت، في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾.

١١- ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ أي: متواصلة الأمطار، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء، لأجل هذه الآية. وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار، وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ ثم قال: «لقد طلبتُ الغيث بمجادح السماء، التي يُستنزل بها المطر».

وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضاً.

١٢- وقوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه، وأطعتموه، كثَّر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها، هذا مقام الدعوة بالترغيب.

١٣- ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ أي: عظمة، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك، وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حقَّ عظمته. أي: لا تخافون من بأسه ونقمته.

١٤- ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ قيل: معناه: من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة ويحيى بن رافع والسدي وابن زيد.

١٥- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ أي: واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس، مما علم من التيسير والكسوفات، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضاً، فأدناها القمر في السماء الدنيا، وهو يكسف ما فوقه، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة، وأما بقية الكواكب وهي الثوابت، ففي فلك ثامن يسمونه: فلك الثوابت[1].

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾.

١٦- ﴿جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلا منهما أنموذجاً على حدة، ليُعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدَّر للقمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص، حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ هذا اسم مصدر، والإتيان به ههنا أحسن.

١٨- ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ أي: يوم القيامة، يعيدكم كما بدأكم أول مرة.

١٩- ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً﴾ أي: بَسَطها ومهدها، وقرَّرها وثبتها بالجبال الراسيات، الشم الشامخات.

٢٠- ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح ﷺ على قدرة الله وعظمته، في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد، ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له، ولا عديل له، ولا ند له، ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤)﴾

٢١- يقول تعالى مخبراً عن نوح ﷺ، أنه أنهى إليه وهو العليم، الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة، المشتملة على الترغيب تارة، والترهيب أخرى، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراجٌ وإنظار، لا إكرام،

---

(١) كلام الحافظ هنا حسب ما تقرر في علم الفلك عندهم في وقته، وقد تطور هذا العلم كثيراً في زماننا، فلم نشأ الاستطراد فيه فاختصرناه.

ولهذا قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ قرئ ﴿وَوُلْدُهُ﴾ بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ قال مجاهد: كبارا أي: عظيماً، وقال ابن زيد: كبارا، أي: كبيراً، والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَّاب، ورجل حُسَان وحُسَّان وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: باتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾.

ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

٢٣- ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهذه أسماء أصنامهم، التي كانوا يعبدونها من دون الله، روى البخاري: عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد: أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهُذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ﷺ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، ونُسخ العلم، عُبدت. وكذا روي عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحاق نحو هذا.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كانت هذه أصنام تعبد في زمن نوح.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا، في العرب والعجم، وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل ﷺ في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ دعاءٌ منه على قومه، لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه، في قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾

٢٥- يقول تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ وقرئ: ﴿خطاياهم﴾ ﴿أُغْرِقُوا﴾ أي: من كثرة ذنوبهم، وعتوهم وإصرارهم على كفرهم، ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار، إلى حرارة النار ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير، ينقذهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

٢٦- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا دياراً. وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحاك: دياراً واحداً. وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار، فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه، الذي اعتزل عن

أبيه ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ونجى الله أصحاب السفينة، الذي آمنوا مع نوح عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أي: إنَّك إن أبقيت منهم أحداً، أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ أي: فاجراً في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

٢٨- ثم قال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾ قال الضحاك: يعني: مسجدي.

ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن.

وقد روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تَصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي» ورواه أبو داود والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات. ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ قال السدي: إلا هلاكاً.

وقال مجاهد: إلا خساراً، أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة نوح

****

ترتيبها ٧٢ — سُورَةُ الجن - مكية — آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ
وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ
سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ
رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا (٧) ﴾

١ ، ٢- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ، أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن، فآمنوا به وصدقوه، وانقادوا له، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي: يهدي إلى السداد والنجاح ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك، بما أغنى عن إعادته ههنا.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: فعله وأمره وقدرته. وروي عن مجاهد وعكرمة: جلال ربنا. وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره. وقال السدي: تعالى أمر ربنا. وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره. وقال سعيد ابن جبير ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: تعالى ربنا.

وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي: تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله - حين أسلموا وآمنوا بالقرآن - عن اتخاذ الصاحبة والولد.

٤- ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي ﴿سَفِيهُنَا﴾ يعنون: إبليس ﴿شَطَطًا﴾ قال السدي عن أبي مالك ﴿شَطَطًا﴾ أي: جوراً. وقال ابن زيد: أي: ظلماً كبيراً. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم ﴿سَفِيهُنَا﴾ اسم جنس، لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً، ولهذا قالوا ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي: قبل إسلامه ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي: باطلاً وزوراً.

٥- ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ما حسبنا أن الإنس والجن، يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: كنا نرى أنَّ لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً، أو مكاناً موحشاً، من البراري وغيرها، كما

كانت عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوءهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته. فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة، وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثماً، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. وروى الثوري: عن إبراهيم: أي: ازدادت الجن عليهم جرأة. وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله، فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن، أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي.

وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة قال: كان الجن يَفْرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثماً.

وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفاً. وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً. قاله الكلبي وابن جرير.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) ﴾

٨- يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له، أن السماء مُلئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها، التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يدري من الصادق، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

٩- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم، يجد له شهابا مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه.

١٠- ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً، وهذا من أدبهم في العبارة، حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك».

وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير، بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث العباس: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ، إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون في هذا؟» فقلنا: كنا نقول يولد عظيم يموت عظيم، فقال: «ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء» وذكر تمام الحديث، وقد أوردناه في سورة سبأ بتمامه، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلُّب السبب في ذلك، فأخذوا

يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفظت من أجله السماء ، فآمن من آمن منهم ، وتمرد في طغيانه من بقي ، كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك عند قوله في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية .

ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها ، هال ذلك الإنس والجن ، وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم ، كما قال السدي : لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر ، فلما بعث الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً ، رجموا ليلة من الليالي ، ففزع لذلك أهل الطائف فقالوا هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار في السماء ، واختلاف الشهب ، فجعلوا يعتقون أرقاءهم ، ويسيبون مواشيهم ، فقال لهم عبد يا ليل بن عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف ، أمسكوا عن مالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة ، يعني : محمداً ﷺ ، وإن نظرتم فلم تروها ، فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها ، فكفوا عن أموالهم ، وفزعت الشياطين في تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم ، فقال ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم ، فقال صاحبكم بمكة ، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة ، فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن ، حتى كادت كلاكِلهم تصيبه ، ثم أسلموا ، فأنزل الله تعالى أمرهم على رسول الله ﷺ .

وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من «كتاب السيرة» المطول ، والله أعلم ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾

١١ - يقول تعالى مخبراً عن الجن ، أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي : غير ذلك ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ أي : طرائق متعددة مختلفة ، وآراء متفرقة . قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ أي : منا المؤمن ، ومنا الكافر .

وروى أحمد بن سليمان النجاد في أماليه : عن أبي معاوية قال : سمعت الأعمش يقول : تروَّح إلينا جني ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به ، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال : نعم ، فقلت : فما الرافضة فيكم؟ قال : شرنا . عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزني فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

١٢ - وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴾ أي : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الهرب ، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا .

١٣- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ يفتخرون بذلك، وهو مفخر لهم، وشرف رفيع، وصفة حسنة، وقولهم ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: فلا يخاف أن ينقص من حسناته، أي: يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

١٤- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق، الناكب عنه، بخلاف المقسط: فإنه العادل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة.

١٥- ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وقوداً تسعر بهم.

١٦، ١٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا • لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم. كما قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم من يستمر على الهداية، ممن يرتد إلى الغواية.

ذكر من قال بهذا القول: رواه العوفي عن ابن عباس ومجاهد، وكذا سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدي ومحمد بن كعب القرظي وقتادة. والقول الثاني: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ الضلالة ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ • نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حميد. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وحكاه البغوي عن الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان، وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذاباً مشقاً شديداً، موجعاً مؤلماً. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: مشقة لا راحة معها، وعن ابن عباس: جبل في جهنم. وعن سعيد بن جبير: بئر فيها.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)﴾

١٨- يقول تعالى آمراً عباده أن يوحدوه في محال عبادته، ولا يدعى معه أحدٌ، ولا يشرك به، كما قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده.

روى سفيان عن عكرمة: نزلت في المساجد كلها، وقال سعيد بن جبير: نزلت في أعضاء السجود، أي:

هي لله فلا تسجدوا بها لغيره ، وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح : من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرتُ أن أسجدَ على سبعةِ أعظم : على الجبهة - أشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين» .

١٩ - وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال العوفي عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن ، كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم ، حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ يستمعون القرآن ، هذا قول وهو مروي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه .

وروى ابن جرير : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال : لما رأوه يصلي ، وأصحابه يركعون بركوعه ، ويسجدون بسجوده ، قال : عجبوا من طواعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ وهذا قول ثان ، وهو مروي عن سعيد بن جبير أيضاً .

وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تلبد عليه جميعاً . وقال قتادة : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه . وهذا قول ثالث ، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ، لقوله بعده :

٢٠ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ أي : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه ، وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق ، واجتمعوا على عداوته ﴿إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ أي : إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به ، وأتوكل عليه ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ .

٢١ - وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً﴾ أي : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، وعبدٌ من عباد الله ، ليس إليَّ من الأمر شيئاً في هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل .

٢٢ - ثم أخبر عن نفسه أيضاً ، أنه لا يجيره من الله أحد ، أي : لو عصيته ، فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي : لا ملجأ . وقال قتادة أيضاً : أي : لا نصير ولا ملجأ ، وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

٢٣ - وقوله تعالى : ﴿إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً ۞ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ۞ إِلَّا بَلَاغاً﴾ . ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي : لا يجيرني منه ويخلصني ، إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليَّ ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي : أنا أبلغكم رسالة الله ، فمن يعص بعد ذلك ، فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، أي : لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .

٢٤ - وقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ أي : حتى إذا

رأى هؤلاء المشركون، من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عددا، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى؟ أي: بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)﴾

٢٥- يقول تعالى آمراً رسولهﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ أي: مدة طويلة. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة، من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض! كذب لا أصل له! ولم نره في شيء من الكتب، وقد كانﷺ يسئل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي، كان فيما سأله أن قال: يا محمد فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟» قال: أما إني لم أعدَّ لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحبُّ الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

وقد روى أبو داود في آخر كتاب الملاحم: عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول اللهﷺ: «لن يُعجز الله هذه الأمة من نصفِ يوم» انفرد به أبو داود.

ثم روى أبو داود: عن سعد بن أبي وقاص عن النبيﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لا تَعجزَ أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصفَ يوم» قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: «خمسمائة عام» انفرد به أبو داود(١).

٢٦، ٢٧- وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ هذه كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ وهكذا قال ههنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وأنه لا يُطلع أحداً من خلقه على شيء من علمه، إلا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ أي: يخصه بمزيد معقبات من الملائكة، يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله.

٢٨- ولهذا قال: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ وقد اختلف المفسرون، في الضمير الذي في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ إلى من يعود؟ فقيل: إنه عائد إلى النبيﷺ. روى عبد الرزاق عن قتادة: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾ قال: ليعلم نبي الله، أن الرسل قد بلَّغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها ورفعتها عن الله، وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، واختاره ابن جرير.

---

(١) أراد بأمته خصوص أغنيائها، وتأخيرهم: أن يؤخر لحاقهم الفقراء، الذين يسبقونهم إلى الجنة بنصف يوم من أيام الآخرة، وهو خمسمائة عام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧).

وقيل غير ذلك، كما رواه العوفي عن ابن عباس قال: هي معقبات من الملائكة، يحفظون النبي ﷺ من الشيطان، حتى يتبين الذين أرسل إليهم، وذلك حين يقول: ليعلم أهل الشرك، أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وفي هذا نظر.

وقال البغوي: قرأ يعقوب ﴿ليُعلم﴾ بالضم، أي: ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا.

ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير، ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته، ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ إلى أمثال ذلك، من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها، قطعاً لا محالة.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾.

آخر تفسير سورة الجن

****

ترتيبها ٧٣ سورة المزمل عليه السلام - مكية آياتها ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) ﴾

١ ، ٢- يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل، وهو: التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وكذلك كان ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ وههنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ قال ابن عباس والضحاك والسدي ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ يعني: يا أيها النائم. وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمل بقطيفة.

وعن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ قال: يا محمد، زُمِّلت القرآن.

٣ ، ٤- وقوله تعالى: ﴿نِصْفَهُ﴾ بدل من الليل ﴿أَوِانقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: أمرناك أن تقوم نصف اليل، بزيادة قليلة، أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها.

وفي صحيح البخاري: عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مداً ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.

وعن أبي مليكة عن أم سلمة رضي الله عنها: أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِم﴾ ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو: عن النبي ﷺ قال: «يُقَال لقارئ القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتِّل كما كنتَ تُرتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آيةٍ تقرأها» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم» (١). و«ليس منا من لم يتغن بالقرآن» و «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (١٤٦٨) والنسائي (٢/ ١٧٩ ، ١٨٠) وابن ماجة (١٣٤٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

داود» يعني أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي، لحبرته لك تحبيراً[(١)].

وروى البخاري: عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذاً كهذِّ الشِّعر! لقد عرفتُ النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين في كل ركعة.

٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ قال الحسن وقتادة: أي: العمل به. وقيل: ثقيل وقت نزوله، من عظمته، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أُنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي[(٢)].

وفي صحيح البخاري: عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صَلْصة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وُعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيَفصم عنه وجبينه ليتفصَّد عرقاً. هذا لفظه.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها. الجران هو باطن العُنق.

واختار ابن جرير: أنه ثقيل من الوجهين معاً، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما ثقل في الدنيا، ثقل يوم القيامة في الموازين.

٦- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ عن ابن عباس: نشأ: قام بالحبشية، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير: الليل كله ناشئة، وكذا قال مجاهد وغير واحد. يقال: نشأ، إذا قام من الليل. وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء. وكذا قال أبو مجلز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر.

والغرض: أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات، والمقصود: أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة.

ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها، من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش.

٧- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم: الفراغ والنوم، وقال أبو العالية ومجاهد وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري: فراغاً طويلاً، وقال قتادة: فراغاً وبغية ومتقلباً، وقال السدي ﴿سَبْحاً طَوِيلاً﴾ تطوعاً كثيراً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ قال: لحوائجك، فأفرغ لدينك الليل. قال: وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله تبارك وتعالى من على عباده فخففها ووضعها وقرأ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٢٥٩) بنحوه.

وَنِصفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وقال تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾** وهذا الذي قاله كما قاله.

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد: عن سعيد بن هشام: أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها، ويجعله في الكراع والسلاح، ثم يجاهد الروم حتى يموت، فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة، أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أليس لكم فيَّ أسوة حسنة؟» فنهاهم عن ذلك، فأشهدهم على رجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس، فسأله عن الوتر، فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: ائت عائشة فسلها، ثم ارجع إليَّ فأخبرني بردِّها عليك، فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقتُه إليها، فقال: ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً، فأبت فيهما إلا مُضياً، فأقسمتُ عليه فجاء معي، فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته قال: نعم، قالت: من هذا معك؟ قال سعيد بن هشام، قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر، قال: فترحمت عليه وقالت: نعم المرء كان عامراً، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خُلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم ثم بَدَا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾** قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة. فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سِواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو، ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله وحده، ثم يدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم، أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نومٌ أو وجع أو مرض، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان. فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها، فقال: صدقت، أما لو كنتُ أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة. هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه، وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس يقول: أول ما نزل: أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة. وهكذا رواه ابن جرير. وكذا قال الحسن البصري والسدي.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾** فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف الله تعالى عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا **﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى**

﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق.

٨- وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي: أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من مهماتك، فانصب في طاعته وعبادته، لتكون فارغ البال. قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه.

وقال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي: أخلص له العبادة، وقال الحسن: اجتهد وأبتل إليه نفسك. وقال ابن جرير: يقال للعابد متبتل، ومنه الحديث المروي «نهى عن التبتل»[1] يعني: الانقطاع إلى العبادة، وترك التزوج.

٩- وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب، لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة، فأفرده بالتوكل، فاتخذه وكيلاً، كما قال في الآية الأخرى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ ﴾

١٠- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر، على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه.

١١- ثم قال له متهدداً لكفار قومه ومتوعداً، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ أي: رويداً، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

١٢- ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً﴾ وهي: القيود، قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبد الله بن بريدة وأبو عمران الجوني وأبو مجلز والضحاك وحماد بن أبي سليمان وقتادة والسدي وابن المبارك والثوري وغير واحد ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي: السعير المضطرمة.

١٣- ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق، فلا يدخل ولا يخرج ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٤- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تزلزل ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ أي: تصير ككثبان

---

(١) روى البخاري في النكاح (٩/ ١١٧) ومسلم: عن سعد بن أبي وقاص قال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا.

الرمل، بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تُنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً، أي: وادياً ولا أمتاً، أي: رابية، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.

١٥، ١٦- ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش، والمراد سائر الناس ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بأعمالكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ❁ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري ﴿أَخْذاً وَبِيلاً﴾ أي: شديداً، أي: فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار، إن كذبتم رسولكم، لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران. ويروى عن ابن عباس ومجاهد.

١٧- وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ يحتمل أن يكون ﴿يَوْماً﴾ معمولاً لتتقون، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: فكيف تخافون أيها الناس، يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله، ولم تصدقوا به؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصل لكم أمان، من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم. وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى، إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه. وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ أي: من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار، فيقول: مِن كم؟ فيقول: من كل ألف، تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة.

١٨- وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ قال الحسن وقتادة: أي: بسببه من شدته وهوله، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى. وروي عن ابن عباس ومجاهد، وليس بقوي، لأنه لم يجر له ذكرٌ ههنا، وقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ أي: كان وعد هذا اليوم مفعولاً، أي: واقعاً لا محالة، وكائناً لا محيد عنه.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

١٩- يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي: فمن شاء الله تعالى هدايته، كما قيد في السورة الأخرى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

٢٠- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾

أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لأنه يشق عليكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبَّر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة سبحان ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية، وهي قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه، واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن».

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت. وهو في الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل صلاة لا يقرأها فيها بأم القرآن، فهي خِداجٌ فهي خداج فهي خداجٌ، غير تمام».

وفي صحيح ابن خزيمة: عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تُجزئ صلاةُ من لم يقرأ بأم القرآن».

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله.

وهذه الآية بل السورة كلها مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه.

روى ابن جرير: عن أبي رجاء محمد قال قلت للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة؟ قال: يتوسد القرآن، لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ - ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ قلت: يا أبا سعيد: قال الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ قال: نعم، ولو خمس آيات.

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري، أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن، أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ سُئِل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجلٌ بالَ الشَّيطانُ في أذنه» فقيل معناه: نام عن المكتوبة، وقيل: عن قيام الليل.

وفي السنن: «أوتروا يا أهل القرآن»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا بدل لمن قال: بأن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة، والله أعلم.

وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نَسخت الذي

---

(١) رواه أبو داود (١٤١٦) والترمذي (٤٥٣) والنسائي (٣/ ٢٢٨) وابن ماجة (١١٦٩) من حديث علي رضي الله عنه، وتمامه: «فإن الله وتر يحب الوتر».

كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل ، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : «خمسُ صلواتٍ في اليوم والليلة» قال : هل عليَّ غيرها؟ قال : «لا ، إلا أن تطوع» .

وقوله تعالى : ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني : من الصدقات ، فإن الله يجازي علي ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ أي : جميع ما تقدموه بين أيديكم ، فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي : عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه» قالوا : يا رسول الله ، ما منّا من أحدٍ إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : «اعلموا ما تقولون» قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ، قال : «إنما مال أحدكم ما قدم ، ومال وارثه ما أخر» ورواه البخاري والنسائي .

ثم قال تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : أكثروا من ذكره ، واستغفاره في أموركم كلها ، فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

آخر تفسير سورة المزمل

****

ترتيبها ٧٤ — سورة المدثر - مكية — آياتها ٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾

١ - ثبت في صحيح البخاري: من حديث جابر: أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. وخالفه الجمهور، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً: قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ كما سيأتي ذلك هنالك إن شاء الله تعالى.

وروى البخاري: عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن: عن أول ما نزل من القرآن؟ فقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال: «جاورتُ بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنُوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: «دثروني، وصبوا عليَّ ماء بارداً» قال: «فدثروني وصبوا عليَّ ماء بارداً» قال: «فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. هكذا ساقه من هذا الوجه.

وقد رواه مسلم: عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي، إذْ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بَصَري قِبَل السماء، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء، قاعدٌ على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: «زملوني زملوني فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال أبو سلمة: والرجز الأوثان. ثم حَمِي الوحي وتتابع» هذا لفظ البخاري.

وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه الجمع: أن أول شيء نزل بعد «فترة الوحي» هذه السورة، كما روى الإمام أحمد: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فترَ الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعتُ بَصري قِبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه فرَقاً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت لهم: زملوني زملوني، فزملوني،

فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ❁ قُمْ فَأَنذِرْ ❁ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ❁ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ❁ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع» أخرجاه.

٢- وقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: شمِّر عن ساق العزم، وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة.

٣- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظم.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن ابن عباس: أنه أتاه رجلٌ فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: لا تلبسها على معصية، ولا على غدرة. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن مسلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ ... لبستُ ولا من غَدْرةٍ أتقنَّع

وفي رواية قال: في كلام العرب: نقي الثياب، وفي رواية: فطهر من الذنوب، وكذا قال إبراهيم والشعبي وعطاء، وكذا قال إبراهيم النخعي وقال مجاهد ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: نفسك ليس ثيابه، وفي رواية عنه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: عملك فأصلح، وكذا قال أبو رزين، وقال قتادة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهرها من المعاصي، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث، ولم يف بعهد الله: إنه لدنس الثياب، وإذا وفَّى وأصلح: إنه لمطهر الثياب، وقال عكرمة والضحاك لا تلبسها على معصية. وقال الشاعر:

إذا المرء لم يُدنِّس من اللؤم عِرْضَه ... فكل رداءٍ يرتديه جميل

وقال محمد بن سيرين ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: اغسلها بالماء، وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه. وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك، مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه.

وقال سعيد بن جبير ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقلبك ونيتك فطهر، وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري: وخلقك فحسن.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: والرجز - وهو الأصنام - فاهجر. وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد: إنها الأوثان، وقال إبراهيم والضحاك ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي: اترك المعصية، وعلى كل تقدير، فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وطاوس وأبو الأحوص وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم.

وروي عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿وَلَا تَمْنُن أن تَسْتَكْثِرَ﴾ وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير، وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير. قال: تمنن في كلام العرب: تضعف، وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم[1].

---

(١) لعل ما اختاره ابن جرير هو الأقوى، والله أعلم.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل، قاله مجاهد، وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله عز وجل.

٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد ﴿النَّاقُورِ﴾ الصور. قال مجاهد: وهو كهيئة القرن.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فقال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْن قد التقم القرن، وحَنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» وهكذا رواه الإمام أحمد وابن جرير.

٩، ١٠- وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: غير سهل عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾. وقد روينا عن زرارة بن أوفى - قاضي البصرة - أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ شهق شهقة، ثم خر ميتاً رحمه الله تعالى.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾

١١- يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث، الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفراً وقابلها بالجحود بآيات الله، والافتراء عليها وجعلها من قول البشر، وقد عدَّد الله عليه نعمه حيث قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ أي: خرج من بطن أمه وحده، لا مال له ولا ولد.

١٢- ثم رزقه الله تعالى: ﴿مَالاً مَّمْدُوداً﴾ أي: واسعاً كثيراً، قيل: ألف دينار، وقيل: مائة ألف دينار، وقيل: أرضاً يستغلها، وقيل غير ذلك.

١٣- وجعل له ﴿بَنِينَ شُهُوداً﴾ قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم، وهم قعودٌ عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم، وكانوا فيما ذكره السدي وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة: ثلاثة عشر. وقال ابن عباس ومجاهد: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده.

١٤- ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

١٥، ١٦- ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ۝ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أي: معاند، وهو الكفر على نعمه بعد العلم.

١٧- قال الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ عن ابن عباس: صعوداً صخرة في جهنم، يُسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السدي: صعوداً صخرة ملساء في جهنم، يكلف أن يصعدها. وقال مجاهد ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي: مشقة من العذاب. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه، واختاره ابن جرير.

١٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: إنما أرهقناه صعوداً - أي: قربناه من العذاب الشاق - لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي: تروّى ماذا يقول في القرآن، حين سئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: تروى.

١٩، ٢٠- ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاءٌ عليه.

٢١- ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: أعاد النظرة والتروي.

٢٢- ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قبض بين عينيه وقطب ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كلح وكره.

٢٣- وقوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: صرف عن الحق، ورجع القهقرى، مستكبراً عن الانقياد للقرآن.

٢٤- ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره، عمن قبله ويحكيه عنهم.

٢٥- ولهذا قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي: ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد ابن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله، وكان من خبره في هذا: ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإنّ قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبأ الوليد، لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه! فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحرٌ يؤثر، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه وكلح، وقال ابن جرير نحوه.

٢٦- قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأغمره فيها من جميع جهاته.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم.

٢٨- ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: تأكل لحومهم، وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد: أي: للجلد. وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة، فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها. وقال قتادة ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي: حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: من مُقدّمي الزبانية، عظيمٌ خَلقهم، غليظ خُلُقهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾

٣١- يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خزانها ﴿إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ أي: زبانية غلاظاً شداداً، وذلك ردٌّ على مشركي قريش، حين ذكروا عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم، لواحد منهم، فتغلبونهم؟! فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر، اختباراً منا للناس ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية، المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي: إلى إيمانهم، بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمدﷺ ﴿وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: من المنافقين ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أي: يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: من مثل هذا وأشباهه، يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزلُ عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم، إلا هو تعالى، لئلا يتوهَّم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة، من الفلاسفة اليونانيين، ومن شايعهم من الملتين، الذين سمعوا هذه الآية، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة، والنفوس التسعة، التي اخترعوا دعواها، وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر هذه الآية، وقد كفروا بآخرها، وهو قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما: عن رسول اللهﷺ أنه قال في صفة «البيت المعمور» الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله في كلِّ يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: قال رسول اللهﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع إصبع إلا عليه مَلَكٌ ساجد، لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساء على الفُرشات، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعضد. ورواه الترمذي وابن ماجة.

وروى محمد بن نصر: عن عباد: عن عدي بن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبيﷺ عن رسول اللهﷺ قال: «إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك

تَقْطر منه دمعةٌ من عينه، إلا وقعت على ملك يُصلي، وإنَّ منهم ملائكة سجوداً، منذ خلق الله السموات والأرض، لم يرفعوا رؤوسهم، ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وإن منهم ملائكة ركوعاً، لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلقَ الله السموات والأرض، ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل، قالوا: سبحانك، ما عبدناك حقَّ عبادتك» وهذا إسناد لا بأس به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار التي وصفت ﴿إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾.

٣٢، ٣٣- ثم قال تعالى: ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ ◆ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: ولى.

٣٤- ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي: أشرق.

٣٥- ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي: العظائم يعني: النار. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك، وغير واحد من السلف.

٣٦، ٣٧- ﴿نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ◆ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: لمن شاء أن يقبل النذارة، ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها، ويولي ويردها.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: متعلقة بعملها يوم القيامة، قاله ابن عباس وغيره.

٣٩- ٤١- ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ◆ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يسألون المجرمين، وهم في الغُرفات، وأولئك في الدَّركات، قائلين لهم:

٤٢- ٤٤- ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ◆ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ◆ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنَّا إلى خلقه من جنسنا.

٤٥- ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي: نتكلم فيما لا نعلم، وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه.

٤٦، ٤٧- ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ◆ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني: الموت، كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقينُ من ربِّه»(١).

٤٨- قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي: من كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا

(١) رواه البخاري في الجنائز (٣/ ١١٤).

تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة، فإنه له النار لا محالة، خالداً فيها.

٤٩- ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قِبلك، مما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين.

٥٠، ٥١- ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حمرٌ من حمر الوحش، إذا فرَّت ممن يريد صيدها من «أسد» قاله أبو هريرة وابن عباس في رواية عنه وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن، أو «رام»، وهو رواية عن ابن عباس، وهو قول الجمهور.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً﴾ أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين، أن ينزل عليه كتاب، كما أنزل الله على النبيﷺ. قاله مجاهد وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل.

٥٣- فقوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ أي: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها، وتكذيبهم بوقوعها.

٥٤- ثم قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: حقاً أن القرآن تذكرة.

٥٥، ٥٦- ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۞ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ كقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنبَ من تاب إليه وأناب. قاله قتادة.

آخر تفسير سورة المدثر

****

ترتيبها ٧٥ — سورة القيامة - مكية — آياتها ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾

١ ، ٢- وقد تقدم غير مرة، أن المقسم عليه إذا كان منتفياً، جاز الإتيان بـ «لا» قبل القسم، لتأكيد النفي، والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد، من عدم بعث الأجساد، ولهذا قال تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال الحسن: أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعاً، هكذا حكاه ابن أبي حاتم، وقد حكى ابن جرير: عن الحسن والأعرج أنهما قرآ ﴿لأَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا يوجه قول الحسن، لأنه أثبت القسم بيوم القيامة، ونفى القسم بالنفس اللوامة، والصحيح: أنه أقسم بهما جميعاً معاً، كما قاله قتادة رحمه الله، وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير.

فأما يوم القيامة فمعروف، وأما النفس اللوامة: فعن الحسن البصري في هذه الآية: أن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي، ما أردت بأكلتي، ما أردت بحديث نفسي؟ وأن الفاجر يمضي قُدُماً ما يعاتب نفسه.

وروى ابن أبي حاتم: عن سماك أنه سأل عكرمة عن قوله: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال: يلوم على الخير والشر، لو فعلت كذا وكذا. ورواه ابن جرير. ورواه أيضاً: عن سعيد بن جبير.

ثم رواه من وجه آخر: عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك فقال: هي النفس اللؤم. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: تندم على ما فات وتلوم عليه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: اللوامة المذمومة، وقال قتادة ﴿اللَّوَّامَةِ﴾ الفاجرة، قال ابن جرير: وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى، والأشبه بظاهر التنزيل: أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات.

٣- وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي: يوم القيامة، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه، وجمعها من أماكنها المتفرقة.

٤- ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ قال سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس: أن نجعله خفاً، أو

حافراً، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وابن جرير، ووجهه ابن جرير: بأنه تعالى لو شاء، لجعل ذلك في الدنيا، والظاهر من الآية: أن قوله تعالى: ﴿قَادِرِينَ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿نَجْمَعَ﴾ أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها، قادرين على أن نسوي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وهذا معنى قول ابن قتيبة والزجاج.

٥- وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال سعيد عن ابن عباس: يعني يمضي قُدُماً، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة. ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة. وقال مجاهد ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليمضي أمامه راكباً رأسه، وقال الحسن: لا يُلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُماً قدماً، إلا من عصمه الله تعالى. وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وغير واحد من السلف: هو الذي يُعجل الذنوب، ويُسوِّف التوبة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد.

٦- ولهذا قال بعده ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يقول: متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

٧- وقال تعالى ههنا: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، أي: حال، وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء، من شدة الرعب. وقرأ آخرون ﴿بَرَقَ﴾ بالفتح وهو قريب في المعنى من الأول.

والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع وتحار وتذل، من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ قال مجاهد: كوراً، وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ وروي عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمرِ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي: إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر، ويقول: أين المفر؟ أي: هل من ملجإ أو موئل؟

١١، ١٢- قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وسعيد ابن جبير، وغير واحد من السلف: أي: لا نجاة. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم مكان تنكرون فيه، وكذا قال ههنا ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه. ولهذا قال: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: المرجع والمصير.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يخبر بجميع أعماله، قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ وهكذا قال ههنا: .

١٤، ١٥- ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما

فعله، ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يقول: سمعه وبصره، ويديه ورجليه وجوارحه، وقال قتادة: شاهد على نفسه، وفي رواية قال: إذا شئت والله رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم، غافلاً عن ذنوبه، وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم تُبصر القذاة في عين أخيك، وتترك الجذع في عينك لا تبصره[1].

وقال مجاهد ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ولو جادل عنها، فهو بصير عليها، وقال قتادة: ولو اعتذر يومئذ بباطل، لا يُقبل منه، وقال السدي ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ حجته، وكذا قال ابن زيد والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ يقول: لو ألقى ثيابه.

والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ هي: الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: ﴿لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقال ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ وقولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾

١٦- هذا تعليم من الله عز وجل لرسولهﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي، أن يستمع له، وتكفل الله أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له، ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى: جمعه في صدره. والثانية: تلاوته. والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه. ولهذا قال تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

١٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أي: في صدرك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي: أن تقرأه.

١٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك.

١٩- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: بعد حفظه وتلاوته، نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: كان رسول اللهﷺ يُعالج من التنزيل شدة، فكان يُحرّك شفتيه، قال: فقال لي ابن عباس: أنا أُحرّك شفتي، كما كان رسول اللهﷺ يحرك شفتيه. وقال لي سعيد: وأنا أحرّك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرّك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل، قرأه كما أقرأه. وقد رواه البخاري ومسلم.

---

(١) قد جاء مرفوعاً من كلام نبيناﷺ وهو صحيح، رواه ابن حبان (١٨٤٨ - موارد) وغيره، انظر الصحيحة (٣٣).

ولفظ البخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل.

وقال ابن عباس وعطية العوفي ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ تبيين حلاله وحرامه، وكذا قال قتادة.

٢٠، ٢١- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة، ومخالفة ما أنزل الله عز وجل عن رسولهﷺ من الوحي الحق، والقرآن العظيم، إنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ من النضارة، أي: حسنة بهية مشرقة مسرورة.

٢٣- ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً».

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي سعيد وأبي هريرة، وهما في الصحيحين: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك».

وفي الصحيحين: عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم، كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، ولا قبل غروبها، فافعلوا».

وفي الصحيحين: عن أبي موسى قال: قال رسول اللهﷺ: «جنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من فضةٍ آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وفي أفراد مسلم: عن صهيب عن النبيﷺ قال: «إذا دخلَ أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّضْ وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.

وفي أفراد مسلم: عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلَّى للمؤمنين يضحك» يعني: في عرصات القيامة.

ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات، وفي روضات الجنات.

ولولا خشية الإطالة، لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها، من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق، وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام.

ومن تأول ذلك المراد: بـ«إلى» مُفرد الآلاء، وهي: النعم، كما قال مجاهد ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها! رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد، وكذا قال أبو صالح أيضاً، فقد أبعد هذا الناظر النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال الشافعي رحمه الله تعالى: ما حجب الفجار، إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل.

ثم قد تواترت الأخبار عن رسول اللهﷺ بما دلَّ عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا

﴿نَاظِرَةٌ﴾ روى ابن جرير عن الحسن ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: حسنة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تتضرع وهي تنظر إلى الخالق.

٢٤، ٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ◆ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ هذه وجوه الفجار، تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة. وقال السدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة ﴿تَظُنُّ﴾ أي: تستيقن ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار.

وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ◆ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ◆ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ◆ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ◆ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾. وكقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ◆ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ◆ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ◆ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ◆ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ◆ لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ ◆ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ◆ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ◆ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠) ﴾

٢٦- يخبر تعالى عن حالة الاحتضار، وما عندها من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ إن جعلنا «كلا» رداعة، فمعناها: لست يا ابن آدم هناك تكذيب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلناها بمعنى: حقاً، فظاهر أي: حقاً إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك، وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ◆ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ◆ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ◆ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ◆ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ ويذكر ههنا حديث بشر ابن جحاش الذي تقدم في سورة يس.

٢٧، ٢٨- ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: أي: من راق يرقى. وكذا قال أبو قلابة ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: من طبيب شاف. وكذا قال قتادة والضحاك وابن زيد.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال: قيل من يرقى بروحه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة.

٢٩- وبهذا الإسناد عن ابن عباس في قوله ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال التفت عليه الدنيا والآخرة، وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ يقول: آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من

أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة، إلا من رحمه الله. وقال عكرمة ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ الأمر العظيم، بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء ببلاء. وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفتا. وفي رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليها جوالاً. وكذا قال السدي عن أبي مالك. وفي رواية عن الحسن: هو لفهما في الكفن، وقال الضحاك ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي: المرجع والمآب. وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل، ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

٣١، ٣٢- وقوله جل وعلا: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ۞ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ هذا إخبار عن الكافر، الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ۞ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

٣٣- ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: جذلاناً أشراً بطراً كسلاناً، لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: يرجع ﴿بَلَى إِنَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: يختال. وقال قتادة وزيد بن أسلم: يتبختر.

٣٤، ٣٥- قال الله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ وهذا تهديد، ووعيدٌ أكيد، من الله تعالى للكافر به، المتبختر في مشيه، أي: يحق لك أن تمشي هكذا، وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في المثل: هذا على سبيل التهكم والتهديد، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إلى غير ذلك. وروى أبو عبد الرحمن النسائي، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾؟ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل، ثم أنزله الله عز وجل.

روى ابن أبي حاتم: عن قتادة قوله: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ وعيدٌ على أثر وعيد، كما تسمعون.

٣٦- وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السدي: يعني: لا يبعث. وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لا يؤمر ولا ينهى.

والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا: إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداءة:

٣٧- ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة، من ماء مهين، ﴿يُمْنَى﴾: يراق

من الأصلاب في الأرحام.

٣٨- ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: فصار علقة ثم مضغة، ثم شكل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سويا سليم الأعضاء، ذكراً كان أو أنثى، بإذن الله وتقديره.

٣٩- ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

٤٠- ثم قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي، من هذه النطفة الضعيفة، بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناول القدرة للإعادة، إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية، على القولين في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والأول أشهر، كما تقدم في سورة الروم وبيانه وتقريره، والله أعلم.

روى أبو داود رحمه الله: عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك فبلى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. تفرد به أبو داود، ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك.

ثم روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: عن ابن عباس أنه مرَّ بهذه الآية ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك فبلى.

آخر تفسير سورة القيامة

****

ترتيبها ٧٦ سُورَةُ الإنسان - مكية آياتها ٣١

قد تقدم في صحيح مسلم: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾

١- يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر، لحقارته وضعفه، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾.

٢- ثم بين ذلك فقال جل جلاله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط، والمشج والمشيج: الشيء المختلط بعضه في بعض، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، وكون إلى كون.

وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس: الأمشاج هو: اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.

وقوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، كقوله جل جلاله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ أي: جعلنا له سمعاً وبصراً، يتمكن بهما من الطاعة والمعصية.

٣- وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بيناه ووضحناه وبصرناه به، كقوله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: بينًا له طريق الخير، وطريق الشر. وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد ومجاهد في المشهور عنه والجمهور.

وروي عن مجاهد وأبي صالح والضحاك والسدي، أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يعني: خروجه من الرحم. وهذا قول غريب! والصحيح المشهور الأول.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ منصوب على الحال، من الهاء في قوله ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فبائعٌ نفسه فموبقها أو معتقها».

وروى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجرة: «أعاذك الله من إمارة السُّفهاء» قال: وما إمارة السُّفهاء؟ قال: «أمراءُ يكونون من بعدي لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظُلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولستُ منهم، ولا يردون عليَّ حوضي، ومن لم يُصدِّقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردون علي حوضي، يا كعب بن عجرة: الصومُ جُنَّة، والصدقةُ تطفئ الخطيئة، والصلاة قربان - أوقال برهان - يا كعب بن عجرة: إنه لا يدخل

الجنة لحمٌ نَبتَ من سُحْتٍ، النارُ أولى به، يا كعب بن عجرة: الناس غاديان، فمبتاعٌ نفسه فمعتقها، وبائعٌ نفسه فموبقها».

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من خارج يخرجُ إلا ببابه رايتان: رايةٌ بيد مَلَك، وراية بيد شيطان، فإنْ خرج لما يحب الله اتَّبعه المَلك برايته، فلم يزلْ تحت راية الملك، حتى يرجع إلى بيته، وإنْ خرج لما يُسخط الله اتَّبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان، حتى يرجعَ إلى بيته».

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

٤ ـ يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به، من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب والحريق في نار جهنم، كما قال تعالى: **﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾**.

٥ ـ ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير، قال بعده: **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾** وقد علم ما في الكافور من التبريد، والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة.

قال الحسن: برد الكافور، في طيب الزنجبيل.

٦ ـ ولهذا قال: **﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾** أي: هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور، هو عينٌ يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج، ويروون بها، ولهذا ضمَّن يشرب معنى يروى، حتى عداه بالباء ونصب عيناً عن التمييز، قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور، وقال بعضهم: هو من عين كافور، وقال بعضهم: يجوز أن يكون منصوباً بيشرب، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير.

وقوله تعالى: **﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾** أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم، ومجالسهم ومحالهم، والتفجير: هو الإنباع، كما قال تعالى: **﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾** وقال: **﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾**. قال مجاهد **﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾** يقودونها حيث شاؤوا. وكذا قال عكرمة وقتادة. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا.

٧ ـ وقوله تعالى: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾** أي: يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات، الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر.

روى الإمام مالك: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نَذر أن يُطيع الله فليطعه، ومَن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» رواه البخاري من حديث مالك.

ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير،

أي: منتشر، عامّ على الناس إلا من رحم الله. قال ابن عباس: فاشياً، وقال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم، حتى ملأ السموات والأرض، قال ابن جرير: ومنه قولهم استطار الصدع في الزجاجة واستطال.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ**﴾ قيل: على حب الله تعالى، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل، لدلالة السياق عليه، والأظهر: أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ**﴾ وكقوله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾.

وروى البيهقي: عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفية - يعني امرأته - فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسولَ سائلٌ، فلما دخل به قال السائل: السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً، فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال السائل: السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت صفية إلى السائل، فقالت: والله إن عُدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به.

وفي الصحيح: «أفضلُ الصدقة: أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر» أي: في حال محبتك للمال، وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً**﴾ أما المسكين واليتيم، فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير: فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك: الأسير من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويَشهد لهذا: أن رسول الله ﷺ أمرَ أصحابه يوم بدر، أن يُكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال عكرمة: هم العبيد. واختاره ابن جرير، لعموم الآية للمسلم والمشرك. وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة.

وقد وصّى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم»(١).

وقال مجاهد: هو المحبوس، أي: يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ**﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه ﴿**لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أن تشكروننا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

١٠- ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً**﴾ أي: إنما نفعل هذا، لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: عبوساً: ضيقاً، قمطريراً: طويلاً.

وقال مجاهد ﴿**عَبُوساً**﴾ العابس الشفتين ﴿**قَمْطَرِيراً**﴾ قال: تقبض الوجه بالبسور، وقال سعيد بن جبير وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، قمطريراً: تقليص الجبين، وما بين العينين من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر، والقمطرير: الشديد.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٧٨) وأبو داود (٥١٥٦) وابن ماجة (٢٦٩٨) من حديث علي رضي الله عنه.

وأوضح العبارات وأجلاها، وأحلاها وأعلاها وأولاها، قول ابن عباس رضي الله عنه. قال ابن جرير: والقمطرير: هو الشديد، يقال: هو يوم قمطرير، ويوم قماطر، ويوم عصيب وعَصبصب، وقد اقمطرَّ اليوم يقمطر اقمطراراً، وذلك أشد الأيام، وأطولها في البلاء والشدة.

١١ - قال الله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: آمنهم بما خافوا منه ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوههم ﴿وَسُرُوراً﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري وقتادة وأبو العالية والربيع بن أنس، وهذه كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه فلقة قمر[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ مسروراً، تَبرق أسارير وجهه» الحديث[2].

١٢ - وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب صبرهم، أعطاهم ونوّلهم وبوّأهم جنة وحريراً، أي: منزلاً رحباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً.

وروى الحافظ ابن عساكر قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ فلما بلغ القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ قال: بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا.

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴿٢٢﴾ ﴾

١٣ - يخبر تعالى عن أهل الجنة، وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم، فقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات، وذكر الخلاف في الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرفق، أو التربع، أو التمكن في الجلوس؟ وأن الأرائك هي: السُّرر تحت الحجال. وقوله تعالى: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ أي: ليس عندهم حرٌّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد، دائم سرمدي، لا يبغون عنها حولاً.

١٤ - ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا﴾ أي: قريبة إليهم أغصانها ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ أي: متى تعاطاه دنا القطف إليه، وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ

(١) حديث توبة كعب: رواه البخاري في المغازي (٨/ ١١٣ - ١١٦) ومسلم في التوبة (٤/ ٢١٢٠ - ٢١٢٨).
(٢) رواه البخاري في المناقب (٦/ ٥٦٥) ومسلم في الرضاع (٢/ ١٠٨١ - ١٠٨٢).

دَانٍ﴾ وقال جل وعلا: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ وقال مجاهد ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعدَ تذللت له حتى ينالها، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها، فذلك قوله تعالى: ﴿تَذْلِيلاً﴾.

وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد.

١٥- وقوله جلت عظمته: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي: الكيزان التي لا عُرى لها ولا خراطيم.

١٦- وقوله: ﴿قَوَارِيرَا۠ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فالأول منصوب بخبر كان، أي: كانت قوارير، والثاني: منصوب إما على البداية، أو تمييز لأنه بينه بقوله جل وعلا: ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد: بياض الفضة، في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يُرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ أي: على قدر ريهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدة لذلك مقدرة بحسب رِي صاحبها، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح وقتادة وابن أبزى وعبد الله بن عبيد الله بن عمير وقتادة والشعبي وابن زيد، وقاله ابن جرير وغير واحد، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة.

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ قُدِّرت للكف. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقال الضحاك: على قدر كف الخادم. وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القدر والري.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ أي: ويسقون - يعني الأبرار - أيضاً في هذه الأكواب ﴿كَأْساً﴾ أي: خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة، ومن هذا تارة، ، وأما المقربون: فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً، كما قاله قتادة وغير واحد.

١٨- وقد تقدم قوله جل وعلا: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ وقال ههنا: ﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلا. قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها، وحدّة جريها، وقال قتادة: عين سلسة مستعذب ماؤها. وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق، واختار هو: أنها تعم ذلك كله، وهو كما قال.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾ أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة، ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسَّرهم بأنهم مُخرَّصون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحُليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور، على المكان الحسن. وعن عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحدٍ إلا يسعى عليه ألفُ خادمٍ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه.

٢٠- وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناك، يعني: في الجنة، ونعيمها وسعتها وارتفاعها، وما فيها من الحبرة والسرور ﴿رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ أي: مملكة لله هناك عظيمة، وسلطاناً باهراً. وثبت في الصحيح: أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: «إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها».

٢١- وقوله جل جلاله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون، فكما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي، قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ أي: طهّر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى. فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر، وجمالهم الباطن.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ أي: يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ أي: جزاكم الله تعالى على القليل، بالكثير.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)﴾

٢٣، ٢٤- يقول تعالى ممتناً على رسولهﷺ، بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: كما أكرمك بما أنزل عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين، إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس، فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه.

٢٥- ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره.

٢٦- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾.

٢٧- ثم قال تعالى منكراً على الكفار، ومن أشبههم في حب الدنيا، والإقبال عليها، والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ يعني: يوم القيامة.

٢٨- ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني خلقهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ وكقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ◆ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾.

٢٩- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يعني: هذه السورة تذكرة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي: طريقاً ومسلكاً، أي: من شاء اهتدى بالقرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية.

٣٠- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

٣١- ثم قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فمن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

آخر تفسير سورة الإنسان

****

ترتيبها ٧٧ — سُورَة المرسلات – مكية — آياتها ٥٠

روى البخاري عن عبد الله - هو ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإنَّ فاه لرطب بها، إذْ وَثبتْ علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم كما وقيتم شرها» وأخرجه مسلم أيضاً.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن أمه: أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً.

وفي رواية عن عبيد الله عن ابن عباس: أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فقالت: يا بني، أَذْكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. أخرجاه في الصحيحين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُرْسَلات عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَات عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَات نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَات فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَات ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ﴾

١، ٢- روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ قال: الملائكة. قال: وروي عن مسروق وأبي الضحى ومجاهد في إحدى الروايات والسدي والربيع بن أنس مثل ذلك.

وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل. وفي رواية عنه: أنها الملائكة، وهكذا قال أبو صالح: في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، أنها: الملائكة.

وروى الثوري: عن أبي العبيدين قال: سألت ابن مسعود عن ﴿الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ قال: الريح، وكذا قال في ﴿الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ إنها الريح، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية عنه.

وتوقف ابن جرير في ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هل هي الملائكة؟ إذا أرسلت بالعرف أو كعُرف الفرس، يتبع بعضهم بعضاً؟ أو هي الرياح إذا هبت شيئاً فشيئاً، وقطع بأن العاصفات عصفاً: الرياح، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه، وممن قال ذلك في العاصفات عصفاً أيضاً، علي بن أبي طالب والسدي، وتوقف في الناشرات نشراً، هل هي الملائكة، أو الريح كما تقدم، وعن أبي صالح: أن الناشرات نشراً، هي المطر.

والأظهر أن المرسلات هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهكذا العاصفات: هي الرياح، كما يقال: عصفت الرياح إذا هبت بتصويت.

٣- وكذا الناشرات: هي الرياح، التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل.

٤ - ٦- وقوله تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ۞ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ۞ عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ يعني: الملائكة. قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري، ولا خلاف هنا، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تُفرِّق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً، فيه إعذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره.

٧- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وُعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إنَّ هذا كله لواقع، أي: لكائن لا محالة.

٨- ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: ذهب ضوءها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾.

٩- ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي: انفطرت وانشقت، وتدلت أرجاؤها، ووهت أطرافها.

١٠- ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي: ذُهب بها، فلا يبقى لها عينٌ ولا أثر، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: جُمعت. وقال ابن زيد: وهذه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ وقال مجاهد ﴿أُقِّتَتْ﴾ أجِّلت.

وروى الثوري عن إبراهيم ﴿أُقِّتَتْ﴾ أوعدت. وكأنه يجعلها كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١٢، ١٣- ثم قال تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۞ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل، وأرجئ أمرها، حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۞ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وهو يوم الفصل، كما قال تعالى: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾.

١٤، ١٥- ثم قال تعالى معظماً لشأنه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل لهم من عذاب الله غداً. وقد قدمنا في الحديث أن «ويل واد في جهنم» ولا يصح.

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ﴾

١٦- يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني من المكذبين للرسل، المخالفين لما جاءوهم به.

١٧- ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أي: ممن أشبههم.

١٨ ، ١٩- ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ قاله ابن جرير.

٢٠- ثم قال تعالى ممتناً على خلقه، ومحتجاً على الإعادة بالبداءة ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف حقير، بالنسبة إلى قدرة البارئ عز وجل، كما تقدم في سورة يس في حديث بُسر بن جِحاش: «ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟».

٢١- ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني: جمعناه في الرحم، وهو قرارُ الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني: إلى مدة معينة، من ستة أشهر أو تسعة أشهر.

٢٣ ، ٢٤- ولذا قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۞ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢٥ ، ٢٦- ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۞ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ قال ابن عباس ﴿كِفَاتًا﴾ كناً، وقال مجاهد: يُكفت الميت فلا يُرى منه شيء. وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم. وكذا قال مجاهد وقتادة.

٢٧- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ يعني: الجبال رسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي: عذباً زلالاً، من السحاب أو مما أنبعه من عيون الأرض.

٢٨- ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) ﴾

٢٩- يقول تعالى مخبراً عن الكفار، المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

٣٠- ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يعني: لهب النار إذا ارتفع، وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب.

٣١- ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: ظل الدخان المقابل للهب، لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حرَّ اللهب.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر. قال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وغيرهم: يعني: أصول الشجر.

٣٣- ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: كالإبل السود. قاله مجاهد والحسن وقتادة والضحاك، واختاره ابن جرير، وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ يعني: جبال السفن، وعنه - أعني ابن عباس - ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ قطع نحاس. وروى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾

قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثةَ أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ جبال السفن، تُجمع حتى تكون كأوساط الرجال.

٣٤- ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٣٥- ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يتكلمون.

٣٦- ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحال تارة، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ.

٣٧- ولهذا يقول بعد كل فصلٍ من هذا الكلام ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۞ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده، يقول لهم ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أنهم جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

٣٩، ٤٠- وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ وفي الحديث: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني».

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾

٤١- يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين، الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه، من ظل اليحموم، وهو: الدخان الأسود المنتن.

٤٢- وقوله تعالى: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: ومن سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا.

٤٣- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم.

٤٤، ٤٥- ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٤٦، ٤٧- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد، فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ أي: مدة قليلة قريبة قصيرة ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ

إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ۞ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

٤٨ ، ٤٩- وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾ أي : إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار ، أن يكونوا من المصلين مع الجماعة ، امتنعوا من ذلك ، واستكبروا عنه .

ولهذا قال تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

٥٠- ثم قال تعالى : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأي كلام يؤمنون به ؟! كقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟

آخر تفسير سورة المرسلات

****

ترتيبها ٧٨ | سُورَةُ النبأ – مكية | آياتها ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾

١ ، ٢- يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة ، إنكاراً لوقوعها **﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾** أي : عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني : الخبر الهائل ، المفظع الباهر. قال قتادة وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت .

وقال مجاهد : هو القرآن ، والأظهر الأول ، لقوله :

٣- **﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾** يعني : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر .

٤ ، ٥- ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة : **﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾** وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة ، والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء ، من أمر المعاد وغيره فقال :

٦- **﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً﴾** أي : ممهدة للخلائق ، ذلولاً لهم ، قارة ساكنة ثابتة .

٧- **﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾** أي : جعلها لها أوتاداً ، أرساها بها ، وثبتها وقررها حتى سكنت ، ولم تضطرب بمن عليها .

٨- ثم قال تعالى : **﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾** يعني : ذكراً وأنثى ، يتمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** .

٩- وقوله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾** أي : قطعاً للحركة ، لتحصل الراحة من كثرة الترداد ، والسعي في المعايش في عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الفرقان .

١٠- **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾** أي : يغشى الناس ظلامه وسواده كما قال : **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾** . وقال قتادة في قوله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً﴾** أي : سكناً .

١١- وقوله تعالى : **﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾** أي : جعلناه مشرقاً نيِّراً مُضيئاً ، ليتمكَّن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجيء للمعاش ، والتكسب والتجارات ، وغير ذلك .

١٢- وقوله تعالى : **﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً﴾** يعني : السموات السبع في اتساعها وارتفاعها ،

وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات.

١٣- ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم، التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم.

١٤- وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ قال العوفي عن ابن عباس: المعصرات: الريح. وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ قال: الرياح. وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: أنها الرياح.

ومعنى هذا القول: أنها تستدرُّ المطر من السحاب.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: من السحاب. وكذا قال عكرمة أيضاً وأبو العالية والضحاك والحسن والربيع بن أنس والثوري، واختاره ابن جرير، وقال الفراء: هي السحاب التي تتحلب بالمطر، ولم تمطر بعد، كما يقال: امرأة معصر، إذا دنا حيضها ولم تحض.

وعن الحسن وقتادة ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ يعني: السموات. وهذا قول غريب، والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من بينه.

وقوله جل وعلا: ﴿مَاءً ثَجَّاجاً﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس: ثجاجا: مُنْصَبّاً، وقال الثوري: متتابعاً. وقال ابن زيد: كثيراً، قال ابن جرير: ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج، وإنما الثج الصَّب المتتابع. ومنه قول النبي ﷺ: «أفضلُ الحج العجُّ الثج»[1] يعني: صب دماء البدن، هكذا قال.

قلت: وفي حديث المستحاضة: حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنعت لك الكُرسف» يعني: أن تحتشي بالقطن، فقالت: يا رسول الله هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجاً[2].

وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، والله أعلم.

١٥، ١٦- وقوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حَبّاً﴾ يدخر للأناسي ﴿وَنَبَاتاً﴾ أي: خضراً يؤكل رطباً ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق، من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً. ولهذا قال: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ قال ابن عباس وغيره: ألفافاً مجتمعة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ
أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢)
لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا

(١) رواه الترمذي (٨٣٤) وابن ماجة (٢٩٢٤) وغيرهما من طرق.

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٣٩) وأبو داود (٢٨٧) والترمذي (١٢٨) من حديث حمنة بنت جحش رضي الله عنها.

﴿(٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا (٣٠)﴾

١٧- يخبر تعالى عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة، أنه مؤقتٌ بأجل معدود، لا يُزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

١٨- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ قال مجاهد: زمراً زمراً. قال ابن جرير: يعني تأتي كلُّ أمةٍ مع رسولها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾. وقال البخاري ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ ثم روى: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النَّفختين أربعون» قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيتُ» قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت» قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت» قال: «ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عَظْماً واحداً، وهو عَجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

١٩- ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ أي: طُرقا ومسالك لنزول الملائكة.

٢٠- ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ وقال ههنا: ﴿فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ۞ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ۞ لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

٢١، ٢٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ أي: مَرصدة معدَّة ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ وهم: المردة العصاة، المخالفون للرسل ﴿مَآباً﴾ أي: مرجعاً ومنقلباً، ومصيراً ونزلاً.

وقال الحسن وقتادة: يعني: أنه لا يدخل أحدٌ الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ أي: ماكثين فيها أحقابا، وهي جمع: حقب، وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره. فروى ابن جرير: عن سالم بن أبي الجعد قال: قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون «الحقب» في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وهكذا روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وابن عباس، وسعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والحسن وقتادة والربيع بن أنس والضحاك، وعن الحسن والسدي أيضاً: سبعون سنة كذلك، وعن عبد الله بن عمرو: الحق: أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. رواهما ابن أبي حاتم.

وقال مقاتل بن حيان أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾. وقال خالد ابن معدان: هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في أهل التوحيد. رواهما ابن جرير.

ثم قال: ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ متعلقاً، بقوله تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً﴾ ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً، من شكل آخر ونوع آخر. ثم قال: الصحيح أنها لا انقضاء

لها، كما قال قتادة والربيع ابن أنس. وقد روى قبل ذلك: عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ قال: أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. وعن قتادة: قال الله تعالى: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ هو ما لا انقطاع له، وكلما مضى حقب جاء حقب بعده. وقال الربيع بن أنس ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله عز وجل، ورواهما أيضاً ابن جرير.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به.

٢٥- ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ قال أبو العالية: استثنى من البرد: الحميم، ومن الشراب: الغساق. وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه، والغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار، وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه، وقد قدمنا الكلام على الغساق في سورة (ص) بما أغنى عن إعادته. أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

وروى ابن جرير: وقيل: المراد بقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يعني: النوم. يعني: بالبرد: النعاس والنوم. هكذا ذكره ولم يعزه إلى أحد، وقد رواه ابن أبي حاتم عن مرة الطيب، ونقله عن مجاهد أيضاً، وحكاه البغوي عن أبي عبيدة والكسائي أيضاً.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة، التي كانوا يعملونها في الدنيا. قاله مجاهد وقتادة وغير واحد.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثمَّ داراً يجازون فيها، ويحاسبون.

٢٨- ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: وكانوا يكذبون بحجج الله، ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله صلى الله عليهم وسلم، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله: ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي: وقد علمنا أعمال العباد كلهم، وكتبنا عليهم، وسنجزيهم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، وآخر من شكله أزواج.

وعن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية، أشد من هذه الآية ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾

٣١- يقول تعالى مخبراً عن السعداء، وما أعدَّ لهم تعالى من الكرامة، ، والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابن عباس والضحاك: متنزهاً. وقال مجاهد وقتادة: فازوا فنجوا من النار. والأظهر

ههنا قول ابن عباس، لأنه قال بعده:

٣٢- ﴿حَدَائِقَ﴾ والحدائق البساتين، من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَاباً﴾.

٣٣- ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾ أي: وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد غير واحد ﴿كَوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون: أن ثُديهن نواهد، لم يتدلين لأنهن أبكار، عرب أتراب، ، أي: في سن واحد، كما تقدم بيانه في سورة الواقعة.

٣٤- وقوله تعالى: ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة صافية، وقال مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد ﴿دِهَاقاً﴾: الملأى المترعة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هي المتتابعة.

٣٥- وقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً﴾ كقوله: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ أي: ليس فيها كلام لاغ، عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص.

٣٦- وقوله: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ أي: هذا الذي ذكرناه، جازاهم الله به، وأعطاهموه بفضله ومنه وإحسانه ورحمته، عطاء حساباً: أي: كافياً وافياً، سالماً كثيراً، تقول العرب: أعطاني فأحسبني، أي: كفاني، ومنه: حسبي الله، أي: الله كافيَّ.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠)﴾

٣٧- يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه ربُّ السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله تعالى: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ أي: لا يقدر أحدٌ على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَ يَتَكَلَّمُونَ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو؟ على أقوال: أحدها: ما رواه العوفي عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم.

الثاني: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه.

الثالث: أنهم خَلْقٌ من خلق الله على صور بني آدم، وليسوا بملائكة ولا بشر! وهم يأكلون ويشربون. قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش.

الرابع: هو جبريل، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك، ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقال مقاتل بن حيان: الروح هو أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب عز وجل، وصاحب الوحي.

الخامس: القرآن، قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية.

والسادس: أنه مَلَك من الملائكة، بقدر جميع المخلوقات. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ قال: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خَلْقاً. وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه عندي - والله أعلم - أنهم بنو آدم.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾ أي: حقاً، ومن الحق لا إله إلا الله، كما قاله أبو صالح وعكرمة.

٣٩- وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن لا محالة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً﴾ أي: مرجعاً وطريقاً يهتدى إليه، ومنهجاً يمر به عليه.

٤٠- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ يعني: يو القيامة، لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آتٍ آت ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يُعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ وكقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ أي: يودُّ الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة، السفرة الكرام البررة.

وقيل: إنما يوجد ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات، التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها، قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً، فعند ذلكْ يقول الكافر ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ أي: كنت حيواناً فأرجع إلى التراب، وقد ورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما.

آخر تفسير سورة النبأ

****

ترتيبها ٧٩ — سورة النازعات – مكية — آياتها ٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨)
أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ
إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾

١ ، ٢- قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وأبو صالح وأبو الضحى والسدي ﴿النَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ : الملائكة، يعنون: حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم مَن تأخذ رُوحه بعُسر، فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة، وكأنما حلَّته من نشاط. وهو قوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قاله ابن عباس. وعن ابن عباس ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ : هي أنفس الكفار، تُنزع ثم تُنشط، ثم تغرق في النار. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ : الموت، وقال الحسن وقتادة ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ هي النجوم، وقال عطاء بن أبي رباح في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ هي: القِسيُّ في القتال. والصحيح: الأول، وعليه الأكثرون.

٣- وأما قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ : فقال ابن مسعود: هي الملائكة، وروي عن علي ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح مثل ذلك.

وعن مجاهد ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ : الموت، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء بن أبي رباح: هي السفن.

٤- وقوله تعالى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ روي عن علي ومسروق ومجاهد وأبي صالح والحسن البصري: يعني: الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان، والتصديق به. وعن مجاهد: الموت. وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله.

٥- وقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ قال علي ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي: هي الملائكة. زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني بأمر ربها عز وجل.

ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك، إلا أنه حكى في المدبرات أمراً: أنها الملائكة، ولا أثبت ولا نفى.

٦ ، ٧- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قال ابن عباس: هما النفختان، الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغير واحد، وعن مجاهد: أما الأولى، وهي قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فكقوله جلَّت عظمته: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ والثانية، وهي:

الرادفة، فهي كقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءت الرّاجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموتُ بما فيه» فقال رجل: يا رسول الله، أرأيتَ إن جعلتُ صلاتي كلها عليك؟ قال: إذاً يكفيكَ اللهُ ما أهمَّك، من دنياك وآخرتك» وقد روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم مثله.

ولفظ الترمذي وابن أبي حاتم: كان رسول الله ﷺ إذا ذهبَ ثلُثا الليل قام، فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه».

٨- وقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: خائفة. وكذا قال مجاهد وقتادة.

٩- ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي: أبصار أصحابها، وإنما أضيف إليها للملابسة، أي: ذليلة حقيرة، مما عاينت من الأهوال.

١٠- وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ يعني: مشركي قريش، ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة، وهي: القبور. قاله مجاهد: وبعد تمزق أجسادهم، وتفتت عظامهم ونخورها.

١١- ولهذا قالوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ وقُرِئَ ﴿نَاخِرة﴾ وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي: بالية. قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي، ودخلت الريح فيه ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

وعن ابن عباس ومحمد بن كعب وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك والسدي وقتادة: الحافرة الحياة بعد الموت. وقال ابن زيد: الحافرة النار، وما أكثر أسمائها، هي: النار، والجحيم، وسقر، وجهنم، والهاوية، والحافرة، ولظى، والحطمة.

١٢- وأما قولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فقال محمد بن كعب: قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن.

١٣، ١٤- قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي: فإنما هو أمر من الله، لا مثنوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر الله تعالى إسرافيل، فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عز وجل ينظرون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ قال مجاهد ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: صيحة واحدة.

وقال إبراهيم التيمي: أشد ما يكون الرب عز وجل غضباً على خلقه، يوم يبعثهم. وقال الحسن البصري: زجرة من الغضب. وقال أبو مالك والربيع بن أنس: زجرة واحدة، هي: النفخة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها. وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وأبو صالح. وقال عكرمة والحسن والضحاك وابن زيد: الساهرة وجه الأرض، وقال مجاهد: كانوا بأسفلها، فأخرجوا إلى أعلاها. قال: والساهرة المكان المستوي، وقال الثوري: الساهرة أرض الشام، وقال عثمان بن أبي العالية: الساهرة أرض بيت المقدس.

وهذه الأقوال كلها غريبة، والصحيح: أنها الأرض وجهها الأعلى.

روى ابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال: أرض بيضاء عفراء خالية، كالخبزة النقي[1].

قال الربيع بن أنس ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾: يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ويقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ۞ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ۞ لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وبرزت الأرض التي عليها الجبال، وهي لا تعد من هذه الأرض، وهي أرض لم يُعمل عليها خطيئة، ولم يُهرق عليها دم.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾

١٥- يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ، عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك، وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ أي: هل سمعت بخبره؟

١٦- ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: كلمه نداء ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي: المطهر ﴿طُوًى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدم في سورة طه.

١٧- فقال له: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: تجبَّر وتمرَّد وعتى.

١٨- ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قل له: هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به، وتسلم وتطيع.

١٩- ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أدلك على عبادة ربك ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: فيصير قلبك خاضعاً له، مطيعاً خاشعاً، بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير.

٢٠- ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق، حجة قوية، ودليلاً واضحاً، على صدق ما جاءه به من عند الله.

٢١- ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي: فكذب بالحق، وخالف ما أمره به من الطاعة، وحاصله أنه كفر قلبه، فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمه بأن ما جاء به حق، لا يلزم منه أنه مؤمن به، لأن المعرفة علم القلب، والإيمان عمله، وهو الانقياد للحق والخضوع له.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جمعه السحرة، ليقابلوا ما جاء

---

(١) الحديث قد جاء مرفوعاً من طريقه! عند البخاري في كتاب الرقاق (١١/ ٣٧٢) بلفظ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء، كقُرصة النقي، ليس فيها مَعلمٌ لأحد» شبه ﷺ أرض المحشر بالخبزة، في الاستواء والبياض.

به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات.

٢٣، ٢٤- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أي: في قومه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون، بعد قوله: ما علمت لكم من إله غيري بأربعين سنة.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ أي: انتقم الله منه انتقاماً، ، جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله، من المتمردين في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ﴾ وهذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتيه الأولى والثانية، وقيل: كفره وعصيانه، والصحيح الذي لا شك فيه الأول.

٢٦- وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ أي: لمن يتعظ وينزجر.

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾

٢٧- يقول تعالى محتجاً على منكري البعث، في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أَأَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ يعني: بل السماء أشد خلقاً منكم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿بَنَاهَا﴾:

٢٨- فسره بقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: جعل ليلها مظلماً، أسود حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً، نيراً واضحاً، قال ابن عباس: ﴿أَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أظلمه، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وجماعة كثيرون. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أنار نهارها.

٣٠، ٣١- وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فسره بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وقد تقدم في سورة (حم السجدة) أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿دَحَاهَا﴾: ودحيها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام، فذلك قوله ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وقد تقدم تقرير ذلك هنالك.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: قررها وأثبتها، وأكدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم.

٣٣- وقوله تعالى: ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبَّت جبالها لتستقر بأهلها، ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه، ولما يحتاجون إليه من الأنعام، التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾

٣٤- يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾: وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس.

سميت بذلك: لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾.

٣٥- ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله، خيره وشره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.

٣٦- ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ أي: أظهرت للناظرين، فرآها الناس عياناً.

٣٧- ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ أي: تمرد وعتى.

٣٨- ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: قدمها على أمر دينه وأخراه.

٣٩- ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: فإن مصيره إلى الجحيم، وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم.

٤٠- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها.

٤١- ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

٤٢- ٤٤- ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أي: ليس علمها إليك، ولا إلى أحد من الخلق، بل مردُّها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ﴾.

وقال ههنا: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

٤٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ أي: إنما بعثتك لتنذر الناس، وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله، وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذَّبك

وخالفك.

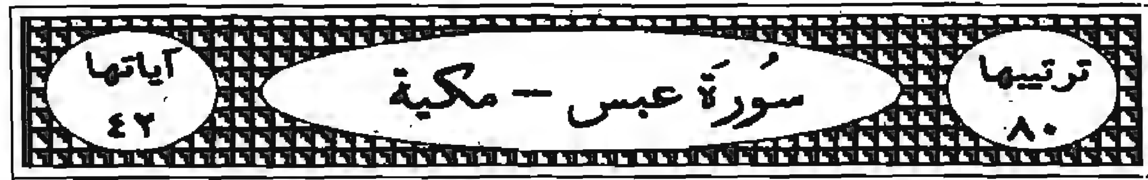
٤٦- وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم، أو ضحى من يوم.

(روي) عن ابن عباس ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾: فما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم، حين عاينوا الآخرة.

آخر تفسير سورة النازعات

****



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ
(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨)
وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ
(١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾

١ - ٣- ذكر غير واحد من المفسرين: أن رسول اللهﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه، إذ أقبل ابنُ أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول اللهﷺ من شيء، ويلح عليه، وود النبيﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾** أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه.

٤ - **﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾** أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم.

٥، ٦ - **﴿وَأَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾** أي: أما الغني، فأنت تتعرَّضُ له، لعله يهتدي.

٧- **﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾** أي: ما أنت بمطالب منه، إذا لم يحصل له زكاة.

٨، ٩- **﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾** أي: يقصدك ويؤمك، ليهتدي بما تقول له.

١٠ - **﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾** أي: تتشاغل، ومن ههنا أمر الله تعالى رسولهﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

روى الحافظ أبو يعلى في مسنده: عن قتادة عن أنسرضي الله عنه في قوله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾** جاء ابن أم مكتوم إلى النبيﷺ وهو يكلم أبي بن خلف فأعرض عنه فأنزل الله عز وجل: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾** فكان النبيﷺ بعد ذلك يكرمه. قال قتادة: وأخبرني أنس بن مالك قال: رأيته يوم القادسية وعليه درع، ومعه راية سوداء، يعني: ابن أم مكتوم.

وروى أبو يعلى وابن جرير: عن عائشة قالت: أنزلت: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾** في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول اللهﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعد رسول اللهﷺ رجل من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبيﷺ يُعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟» فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾**. وقد روى الترمذي هذا الحديث.

وروى ابن أبي حاتم: عن سالم بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إن بلالاً يؤذن

بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم» وهو الأعمى الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ❁ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ وكان يؤذن مع بلال، قال سالم: وكان رجلاً ضرير البصر، فلم يك يؤذِّن، حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر: أذِّن.

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة والضحاك وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم، والمشهور أن اسمه: عبد الله، ويقال: عمرو، والله أعلم.

١١- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس، في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم. وقال قتادة والسدي ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ يعني: القرآن.

١٢- ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره.

ويحتمل عود الضمير إلى الوحي، لدلالة الكلام عليه.

١٣، ١٤- وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ❁ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن في صحف مكرمة، أي: معظمة موقرة ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: عالية القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي: من الدنس والزيادة والنقص.

١٥- وقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد: هي: الملائكة، وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمدﷺ. وقال قتادة: هم القرّاء.

وقال ابن جرير: والصحيح أن السفرة: الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه. ومنه يقال: السفير، الذي يَسعى بين الناس في الصلح والخير.

وقال البخاري: سفرة الملائكة: سفرت: أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته، كالسفير الذي يصلح بين القوم.

١٦- وقوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي: خلقهم كريمٌ حسنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن يكون في أفعاله وأقواله، على السداد والرشاد.

روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللهﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به، مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاقٌّ له أجران» أخرجه الجماعة.

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

١٧- يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور، من بني آدم ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾: لعن الإنسان، وكذا قال أبو مالك، وهذا لجنس الإنسان المكذب، لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد، وعدم العلم، قال ابن جريج ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي: ما أشد كفره، وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافراً، أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقد حكاه البغوي عن

مقاتل والكلبي، وقال قتادة ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾: ما ألعنه.

١٨، ١٩- ثم بين تعالى له: كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادرٌ على إعادته كما بدأه، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أي: قدر أجله ورزقه، وعمله وشقي أو سعيد.

٢٠- ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه، وكذا قال عكرمة والضحاك وأبو صالح وقتادة والسدي، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ أي: بيناه له وأوضحناه، وسهلنا عليه عمله، وكذا قال الحسن وابن زيد، وهذا هو الأرجح، والله أعلم.

٢١- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي: أنه بعد خلقه له، أماته فأقبره، أي: جعله ذا قبر، والعرب تقول: قبرت الرجل، إذا ولى ذلك منه، وأقبره الله، وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله، وبترت ذنب البعير، وأبتره الله، وطردت عني فلاناً، وأطرده الله، أي: جعله طريداً.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾.

وروى ابن أبي حاتم: أن دراجاً أبا السمح أخبره عن أبي الهيثم عن أبي سعيد: عن النبيﷺ قال: «يأكلُ الترابُ كل شيء من الإنسان، إلا عَجب ذنبه» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنشأون»[1].

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين: من رواية أبي هريرة بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كلُّ ابن آدم يَبلى، إلا عَجب الذَّنَب، منه خُلق وفيه يركَّب».

٢٣- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه: كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر، من أنه قد أدّى حقَّ الله عليه في نفسه وماله ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه عز وجل، من الفرائض لربه عز وجل.

ثم روى هو وابن أبي حاتم: من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ قال: لا يقضي أحداً أبداً كل ما افترض عليه. وحكاه البغوي عن الحسن البصري بنحو من هذا، ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي: بعثه ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي: لا يفعله الآن، حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم، ممن كتب الله أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عند الله، أنشر الله الخلائق، وأعادهم كما بدأهم.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام، بعد ما كانت عظاماً بالية، وتراباً متمزقاً.

٢٥- ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾ أي: أنزلناه من السماء على الأرض.

---

(١) وفي سنده: دراج أبو السمح، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

٢٦- ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: أسكناه فيها، فيدخل في تخومها، وتخلَّل في أجزاء الحبِّ المودع فيها، فنبت وارتفع، وظهر على وجه الأرض.

٢٧، ٢٨- ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب: هو الفِصفِصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القَتُّ أيضاً، قال ذلك ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي، وقال الحسن البصري: القضب: العلف.

٢٩- ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويُستصبح به، ويدهن به ﴿وَنَخْلًا﴾ يؤكل بلحاً وبسراً ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، يعتصر منه ربٌّ وخل.

٣٠- ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي: بساتين. قال الحسن وقتادة: غُلباً: نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل ما التف واجتمع. وقال أيضاً: غلباً: الشجر الذي يستظل به، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي: طوال، وقال عكرمة: غلباً: أي: غلاظ الأوساط، وفي رواية: غلاظ الرقاب، ألم ترإلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة، قيل: والله إنه لأغلب. رواه ابن أبي حاتم.

٣١- وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ أما الفاكهة: فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة كلُّ ما أُكل رطباً، والأبُّ: ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب، ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك: الأب: الكلأ. وعن مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: الأب للبهائم، كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض، فهو أبٌّ، وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة، فهو الأبّ.

وعن ابن عباس: الأب نبت الأرض مما تأكله الدواب، ولا تأكله الناس، رواه ابن جرير.

وعن سعيد بن جبير قال: غدا ابن عباس وقال: الأبُّ ما أنبتت الأرضُ للأنعام.

وقال العوفي عن ابن عباس: الأبُّ: الكلأ والمرعى، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد وغير واحد.

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام: عن إبراهيم التيمي قال: سُئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماءٍ تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلم[1].

وروى ابن جرير: عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: قد عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال لعمرك يا ابن الخطاب، إنَّ هذا لهو التكلف. إسناد صحيح.

وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكلُّ من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

---

(١) والأثر قد أعله الحافظ ههنا بالانقطاع، لكن له طرق أخرى يصح بها، انظر تحقيقنا لكتاب «إبطال التأويلات» (١/ ٦٧) للقاضي أبي يعلى الفراء.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾

٣٣- قال ابن عباس: الصاخة: اسم من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره. قال ابن جرير: لعله اسمٌ للنفخة في الصور. وقال البغوي: الصاخة: يعني: صيحة يوم القيامة، سُميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها، حتى تكاد تصمها.

٣٤- ٣٦- ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ أي: يراهم ويفر منهم، ويتبعد منهم، لأن الهول عظيم، والخطب جليل.

وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة: أنه إذا طلب إلى كلٍّ من أولى العزم أن يشفع عند الله في الخلائق: يقول: نفسي لا أسألك إلا نفسي نفسي، حتى أن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني.

ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم.

٣٧- وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: هو في شغل شاغل عن غيره.

روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُحشرون حُفاة عُراة مُشاة غُرلاً» قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، ننظر أويرى بعضُنا عورةَ بعض؟ قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾» أو قال: «ما أشغله عن النظر». وقد رواه النسائي والترمذي.

وروى النسائي: عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُبعث الناسُ يومَ القيامة، حُفاة عُراةً غُرلاً» فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ فقال ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾» انفرد به النسائي من هذا الوجه.

٣٨، ٣٩- وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: يكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة، أي: مستنيرة ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: مسرورةٌ فرحة، من السرور في قلوبهم، قد ظهر البِشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة.

٤٠، ٤١- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: يعلوها وتغشاها قَترة، أي: سواد.

وقال ابن عباس ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: يغشاها سواد الوجوه.

٤٢- وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

آخر تفسير سورة عبس

****

ترتيبها ٨١ — سورة التكوير - مكية — آياتها ٢٩

روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وهكذا رواه الترمذي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤)﴾

١- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني: أظلمت. وقال العوفي عنه: ذهبت. وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت. وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: ذهب ضوؤها. وقال سعيد بن جبير: كورت غورت. وقال الربيع بن خثيم: كورت يعني: رمي بها. وقال أبو صالح: كورت ألقيت. وعنه أيضاً: نكست. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض.

قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك، أن التكوير: جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفَّت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك، ذَهبَ ضوؤها.

روى البخاري: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة» انفرد به البخاري وهذا لفظه، وإنما أخرجه في كتاب بدء الخلق، وكان جديراً أن يذكره ههنا، أو يكرره كما هي عادته في أمثاله.

وقد رواه البزار فجود إيراده: عن عبد الله الداناج قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد - مسجد الكوفة - وجاء الحسن فجلس إليه، فحدث قال: حدثنا أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشمس والقمر ثوران في النار عقيران يوم القيامة» فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتقول أحسبه قال: وما ذنبهما؟[١].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي: انتثرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ وأصل الانكدار: الانصباب. عن أبي بن كعب قال: ستُّ آياتٍ قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت

(١) وسنده صحيح، وانظر الصحيحة (١٢٤).

فائدة: قال الإسماعيلي: ولا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما، فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها، لتكون لأهل النار عذاباً، وآلة من آلات العذاب، وما شاء الله من ذلك، فلا تكون هي معذبة اهـ.

والثاني: أنهما يلقيان في النار، تبكيتاً لعبادهما. انظر المصدر السابق.

واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلُها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نارٌ تتأجج، قال: فبينما هم كذلك، إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. رواه ابن جرير وهذا لفظه، وابن أبي حاتم ببعضه.

وهكذا قال مجاهد والربيع بن خثيم والحسن البصري وأبو صالح وحماد بن أبي سليمان والضحاك في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي: تناثرت، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي: تغيرت.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: زالت عن أماكنها ونُسفت، فتركت الأرض قاعاً صفصفاً.

٤- وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال عكرمة ومجاهد: عشار الإبل، قال مجاهد: عطلت: تركت وسيبت، وقال أبي بن كعب والضحاك: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خثيم: لم تُحلب ولم تُصرّ، تخلى منها أربابها وقال الضحاك: تُركت لا راعي لها. والمعنى في هذا كله متقارب.

والمقصود: أن العشار من الإبل، وهي خيارها والحوامل منها، التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدتها عشراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، قد أشغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما دهمهم من الأمر العظيم، المفظع الهائل، وهو أمر يوم القيامة، وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها، وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك، لا سبيل لهم إليها.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب. رواه ابن أبي حاتم، وكذا قال الربيع بن خثيم والسدي وغير واحد، وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق موافية، فيقضي الله فيها ما يشاء، وقال عكرمة: حشرها موتها.

وروى ابن جرير: عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: حَشر البهائم موتها، وحشر كل شيء الموت، غير الجن والإنس فإنهما يُوقفان يوم القيامة.

وقد تقدم عن أبي بن كعب أنه قال ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: اختلطت.

قال ابن جرير: والأولى قول من قال: حشرت: جمعت، قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: مجموعة.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ روى ابن جرير: عن سعيد بن المسيب قال: قال علي رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الرياح الدبور، فتسعرها وتصير ناراً تأجج. وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾. وقال مجاهد والحسن بن مسلم: سجرت: أوقدت. وقال الحسن: يبست. وقال الضحاك وقتادة: غاض ماؤها، فذهب فلم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضاً:

سجرت: فجرت، وقال السدي: فتحت وسيرت، وقال الربيع بن خثيم: سجرت: فاضت.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: جُمع كل شكلٍ إلى نظيره، كقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾. روى ابن أبي حاتم: عن النعمان بن بشير: أن عمر بن الخطاب خطب الناس، فقرأ ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ فقال: تزوجها: أن تؤلَّف كل شيعةٍ إلى شيعتهم.

وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل، فيدخلان به الجنة أو النار.

وفي رواية عن النعمان قال: سُئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الأمثال من الناس، جمع بينهم. وكذا قال الربيع بن خثيم والحسن وقتادة، واختاره ابن جرير، وهو الصحيح.

قول آخر: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾: (روي عن ابن عباس) وكذا قال أبو العالية وعكرمة وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: زوجت الأرواح بالأبدان. وقيل: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في التذكرة.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ هكذا قراءة الجمهور ﴿سُئِلَتْ﴾. والموؤودة: هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب، كراهية البنات، فيوم القيامة تسئل الموؤودة، على أي ذنب قتلت؟ ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم، فما ظن الظالم إذاً؟

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ أي: سَألت. وكذا قال أبو الضحى «سألت» أي: طالبت بدمها. وعن السدي وقتادة مثله.

وقد وردت أحاديث تتعلق بالموؤودة: فروى الإمام أحمد: عن عائشة عن جُذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس، وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً» ثم سألوه عن العزل، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي، وهو الموؤودة سئلت» ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد: عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، إن أمَّنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل، هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا» قلنا: فإنها كانت وأدت أختاً لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الواءدة والموؤودة في النار، إلا أن تُدرك الوائدة الإسلام، فيعفو الله عنها» ورواه النسائي[1].

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الواءدة والموؤودة في النار».

---

(١) الوائدة: هي التي تدفن مولودها خوف الفقر أو العار. والموؤودة: قيل: أراد بها هنا المفعول لها ذلك برضاها، وهي أم الطفل. ولا يراد به البنت المدفونة، لأنه مشكل، إذ لا ذنب لها، والله أعلم. وانظر الفيض (٦/ ٣٧١).

وروى أحمد أيضاً: عن خنساء بنة معاوية الصريمية عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموؤودة في الجنة».

وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار، فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ قال ابن عباس: هي المدفونة.

وروى عبد الرزاق: عن النعمان بن بشير: عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني وأدتُ بناتٍ لي في الجاهلية، قال: «أعتق عن كلٍّ واحدة منهن رقبة، قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل، قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة».

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الضحاك: أُعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله. وقال قتادة: يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كسفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب.

١٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قال السدي: أحميت. وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يُسعِّرها غضب الله، وخطايا بني آدم.

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قال الضحاك وأبو مالك وقتادة والربيع بن خثيم: أي: قُرِّبت إلى أهلها.

١٤- وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور، حينئذ تعلم كل نفس ما عملت، وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال عمر لما بلغ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ قال: لهذا أجري الحديث.

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ
رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا
تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴾

١٥، ١٦- روى مسلم في صحيحه والنسائي في تفسيره عند هذه الآية: عن عمرو بن حريث قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

وروى ابن جرير: عن خالد بن عرعرة: سمعت علياً وسئل عن ﴿لاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾

فقال: هي النجوم، تخنس بالنهار، وتكنس بالليل. هذا إسناد صحيح[١].

وكذا روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وعبادة والسدي وغيرهم أنها النجوم. وروى ابن جرير: عن بكر بن عبد الله قال: هي النجوم الدراري، التي تجري تستقبل المشرق. وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم «الخنس» أي: في حال طلوعها، ثم هي جوارٍ في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها: كنس، من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسه: إذا تغيب فيه.

وقال عبد الله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ قال: بقر الوحش. وروى أبو داود الطيالسي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ قال: البقر تكنس إلى الظل. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال العوفي عن ابن عباس: هي الظباء. وكذا قال سعيد أيضاً، ومجاهد والضحاك. وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الظباء والبقر.

وتوقف ابن جرير في المراد بقوله: ﴿ٱلۡخُنَّسِ ۞ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ هل هو النجوم، أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ، وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس، وكذا قال عطية العوفي، وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إذا أدبر، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك، وكذا قال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: إذا ذهب فتولى.

وروى أبو داود الطيالسي: عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: خرج علينا علي رضي الله عنه، حين ثوّب المثوب بصلاة الصبح، فقال: أين السائلون عن الوتر ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ هذا حين أدبر. حسن.

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إذا أدبر، قال: لقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: إذا أضاء.

وعندي أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ وغير ذلك من الآيات، وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة «عسعس» تستعمل في الإقبال والإدبار، على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم.

١٨- وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وهو المروي عن علي رضي الله عنه، وقال ابن جرير: يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين.

١٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: إن هذا القرآن، لتبليغ رسول كريم، أي: مَلَك شريف، حَسَنُ الخَلق، بهي المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس والشعبي وميمون بن مهران والحسن وقتادة والربيع بن أنس والضحاك وغيرهم.

---

(١) إنما هو صحيح لطرقه، عند ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما.

٢٠- ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: شديد الخلق، شديد البطش والفعل ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله عز وجل، ومنزلة رفيعة.

٢١- ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: له وجاهة، وهو مسموع القول، مطاع في الملإ الأعلى. قال قتادة ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات، يعني: ليس من أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة.

وقوله تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً، أن الرب عز وجل يزكِّي عبده ورسوله الملكي جبريل.

٢٢- كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ، بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ قال الشعبي وميمون بن مهران وأبو صالح ومن تقدم ذكرهم المراد بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني: محمداً ﷺ.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يعني: ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل، على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ كما تقدم تفسير ذلك وتقريره.

والدليل عليه أن المراد بذلك جبريل عليه السلام، والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية، وهي الأولى، وأما الثانية: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم. ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين: المتهم، والضنين: البخيل.

وقال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضنَّ به على الناس، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده. وكذا قال عكرمة وابن زيد وغير واحد. واختار ابن جرير قراءة الضاد. قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح كما تقدم.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده ولا ينبغي له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۞ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل، كما قال الصديق رضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب، الذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكم أين تذهب عقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل. أي: من إله.

وقال قتادة ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: عن كتاب الله وعن طاعته.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون.

٢٨- ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه.

٢٩- ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين.

آخر تفسير سورة التكوير

****

ترتيبها ٨٢ — سورة الانفطار مكية — آياتها ١٩

روى النسائي: عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟» وأصل الحديث مخرج في الصحيحين ولكن ذكر ﴿إذا السماء انفطرت﴾ في أفراد النسائي.

وقد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين، فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾ و ﴿إذا السماء انفطرت﴾ و ﴿إذا السماء انشقت﴾»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ ﴾

١- يقول تعالى ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي انشقت، كما قال تعالى ﴿السماء منفطر به﴾.

٢- ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ أي: تساقطت.

٣- ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فجَّر الله بعضهم في بعض.
وقال الحسن فجر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها. وقال الكلبي: ملئت.

٤- ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال ابن عباس: بحثت، وقال السدي: تبعثر تحرك، فيخرج من فيها.

٥- ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي: إذا كان هذا حصل هذا.

٦- وقوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس، من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال: الكريم، حتى يقول قائلهم: غرَّه كرمه! بل المعني في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم، أي العظيم، حتي أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق كما جاء في الحديث: «يقول الله تعالي يوم القيامة: يابن آدم ما غرك بي؟ يابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟».

روي عن ابن عمر وقرأ هذه الآية ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ قال ابن عمر: غره والله جهله.
وروي عن ابن عباس والربيع ابن خثيم والحسن مثل ذلك. وقال قتادة: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ شيءٌ، ما غر

(١) سبق في أول سورة التكوير.

ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .

وقال الفضيل ابن عياض : لو قال لي ما غرك بي ، لقلت ستورك المرخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لي ما غرك بربك الكريم ؟ لقلت : غرني كرم الكريم .

وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة . وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل ، لأنه إنما أتى باسمه «الكريم» ليبينه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم ، بالأفعال القبيحة ، وأعمال الفجور .

٧- وقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي : ما غرك بالرب الكريم ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي : جعلك سوياً مستقيماً ، معتدل القامة منتصبها ، في أحسن الهيئات والأشكال ؟

روى الإمام أحمد : عن بُسر بن جحاش القرشي : أن رسول الله ﷺ بَصَق يوماً في كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال : قال الله عز وجل : «يا ابن آدم ، أنَّى تُعجزني ، وقد خلقتك مِن مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت بين بُردين ، وللأرض منك وئيدٌ ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي ، قلت : أتصدق ! وأنى أوان الصدقة ؟» وكذا رواه ابن ماجة .

٨- وقوله تعالى : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قال مجاهد : في أي شَبَه ، أب أو أم أو خال أو عم .

وفي الصحيحين : عن أبي هريرة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنَّ امرأتي ولدت غلاماً أسود ، قال : «هل لك من إبل ؟» قال : نعم ، قال : «فما ألوانها ؟» قال : حمر ، ، قال : «فهل فيها من أورق» قال : نعم ، قال : «فأنى أتاها ذلك ؟» قال : عسى أن يكون نَزَعه عِرق ، قال : «وهذا عسى أن يكون نزعه عرق» .

وقد قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ إن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح ، وقال قتادة ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قال : قادر والله ربنا على ذلك .

ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله عز وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح ، من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه ، يخلقه على شكل حسن مستقيم ، معتدل تام ، حسن المنظر والهيئة .

٩- وقوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي : إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

١٠ - ١٢- وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعني : وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً ، فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾

١٣- يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي .

١٤ ، ١٥ - ثم ذكر ما يصير إليه الفجار ، من الجحيم ، والعذاب المقيم ، ولهذا قالوا ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي : يوم الحساب والجزاء والقيامة .

١٦ - ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي : لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوماً واحداً .

١٧ - وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة .

١٨ - ثم أكده بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ .

١٩ - ثم فسره بقوله : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي : لا يقدر أحدٌ على نفع أحد ، ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، ونذكر ههنا حديث : «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً» . وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء .

ولهذا قال : ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ كقوله : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وكقوله : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ وكقوله : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

قال قتادة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ والأمر والله اليوم لله ، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

ولله الحمد والمنة ، وبه التوفيق والعصمة .

آخر تفسير سورة الانفطار

****

ترتيبها ٨٣ | سُورَةُ المطففين مكية | آياتها ٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾

١- روى النسائي وابن ماجة: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك.

والمراد بالتطفيف ههنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم.

٢- ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك، وهو الويل، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد.

٣- ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون، والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعدياً، ويكون هم في محل نصب، ومنهم: من يجعلها ضميراً مؤكداً، للمستتر في قوله «كالوا» و«وزنوا»، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما متقارب.

وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وأهلك الله قوم شعيب ودمَّرهم، على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال.

٤، ٥- ثم قال تعالى متوعدا لهم ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۞ لِيَومٍ عَظِيمٍ﴾ أي: أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية.

٦- وقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يقومون حفاة عُراة غُرلا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه.

روى الإمام مالك: عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتَى يَغيبَ أحدُهم في رشحه ألى أنصاف أذنيه». رواه البخاري ومسلم.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن المقداد ابن الأسود الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة، أُدنيت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العَرَقِ كقَدر أعمالهم، ومنهم من يَأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنه من يأخذه إلى

حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً» رواه مسلم .

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن أبي أُمامة : أن رسول الله ﷺ قال : «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حَرِّها كذا وكذا، تغلي منها الهامُ كما تغلي القدور، يَعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يُلْجمه العرق» انفرد به أحمد .

وفي صحيح مسلم : عن أبي هريرة مرفوعا : «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» .

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجة : من حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل يكبّر عشرا، ويحمد عشرا، ويسبح عشرا، ويستغفر عشرا، ويقول « اللهم اغفرلي، واهدني، وارزقني، وعافني، ويتعوَّذ من ضيق المقام يوم القيامة» .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾

٧- يقول تعالى : حقا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ أي : أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، فعيل من السجن، وهو الضيق، كما يقال : : فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك .

٨- ولهذا عظَّم أمره فقال تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي هو أمر عظيم، وسجن مقيم، وعذاب أليم، ثم قد قال قائلون هي تحت الأرض السابعة، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل : يقول الله عز وجل في روح الكافر : اكتبوكتابه في سجين وسجين هي تحت الأرض السابعة . وقيل : صخرة تحت السابعة خضراء، وقيل بئر في جهنم .

والصحيح أن سجين مأخوذ من : السجن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كلَّ ما تسافل منها ضاق، وكلَّ ما تعالي منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة، كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون، كل واحدة أوسع من التي دونها، حتي منتهى السفول المطلق والمحل الأضيق، أي : المركز في وسط الأرض السابعة، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم، وهي أسفل السافلين، كما قال تعالي ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ◆ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقال هھنا ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ◆ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول، كما قال تعالى ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ .

٩- وقوله تعالى ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ ليس تفسيرا لقوله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي : مرقوم مكتوب، مفروغ منه، لا يزاد فيه أحد، ولا ينقص منه أحد، قاله محمد بن كعب القرظي .

١٠- ثم قال تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي : إذا صاروا يوم القيامة، إلى ما أوعدهم الله من السجن، والعذاب المهين، وقد تقدم الكلام على قوله «ويل» بما أغنى عن إعادته .

وأن المراد من ذلك : الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان .

١١- ثم قال تعالى ، مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره عن الله تعالى .

١٢- ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي : معتد في أفعاله ، من تعاطي الحرام ، والمجاوزة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله ، إن حدَّثَ كذب ، وإنْ وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

١٣- وقوله تعالى : ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول ، يُكَذِّب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل ، مجموعٌ من كتب الأوائل ، كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم ماذا أَنْزَلَ رَبُّكم قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ .

١٤- قال الله تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا : إنَّ هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسولهﷺ ، وإنما حَجَب قلوبهم عن الإيمان به ، ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ والرين يعتلي قلوب الكافرين ، والغيم : للأبرار ، والغين للمقربين .

وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجة : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إنَّ العبد إذا أذنب ذنباً ، كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها ، صُقل قلبه ، وإنْ زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ .

ولفظ النسائي : « إنَّ العَبْدَ إذا أخطأ خطيئة ، نُكت في قلبه نُكتة سوداء ، فإن هو نَزَع واستغفر وتاب ، صُقل قلبه ، فإن عاد زِيدَ فيها حتي تعلوا قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾» . رواه احمد .

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب فيموت .

وكذا قال مجاهد بن جبير وقتادة وابن زيد وغيرهم .

١٥- وقوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي : لهم يوم القيامة منزلٌ ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم ، قال الإمام أبو عبدالله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ .

وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة ، في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار ، في عَرَصات القيامة ، وفي روضات الجنان الفاخرة .

وقد روي ابن جرير : عن عمرو بن عبيد عن الحسن في قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال : يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون ، ثم يحجب عنه الكافرون ، وينظر إليه المؤمنون كل يوم ، غدوة وعشية ، أو كلاما هذا معناه .

١٦- وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي : ثمَّ هُمْ مع هذا الحرمان ، عن رؤية الرحمن ، من أهل

النيران.

١٧- ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾

١٨- يقول تعالى: حقا إن كتاب الأبرارِ - وهم بخلاف الفجارِ - لفي عليين، أي: مصيرُهم إلي عليين، وهو بخلاف سجين.

عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين، قال: هي الأرض السابعة، وفيها أرواح الكفار، وسأله عن عليين، فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين. وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني الجنة.

وفي رواية العوفي عنه: أعمالهم في السماء عند الله، وكذا قال الضحاك.

والظاهر أن «عليين» مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع، عظم واتسع.

١٩- ولهذا قال تعالى معظما أمره، ومفخما شأنه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾.

٢٠، ٢١- ثم قال تعالى مؤكدا لما كتب لهم ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم الملائكة، قاله قتادة، وقال العوفي عن ابن عباس يشهده من كل سماء مقربوها.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم.

٢٣- ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وهي السُّرر تحت الحِجَال ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل: معناه ينظرون في ملكهم، وما أعطاهم الله من الخير والفضل، الذي لا ينقضي ولا يبيد.

وقيل معناه ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلي الله عز وجل، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلي الله عز وجل، وهم على سررهم وفرشهم.

٢٤- وقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدَّعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم.

٢٥- وقوله تعالى ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي: يسقون من خمر من الجنة.

والرحيق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وابن زيد.

وقال ابن مسعود في قوله ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي: خلطه مسك، وقال العوفي عن ابن عباس: طيَّب الله

لهم الخمر ، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ، ختم بمسك .

وكذا قال قتادة والضحاك ، وقال إبراهيم والحسن : ختامه مسك ، أي عاقبته مسك .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ختامه مسك﴾ قال طيبه مسك .

٢٦- وقوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون ، كقوله تعالى ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ .

٢٧ ، ٢٨- وقوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي : ومزاج هذا الرحيق الموصوف ، ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه ، قال أبو صالح والضحاك : ولهذا قال ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي : يشرب بها المقربون صرفا ، وتُمزج لأصحاب اليمين مزجا . قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾

٢٩ ، ٣٠- يخبر تعالى عن المجرمين ، أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أي : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أي : محتقرين لهم .

٣١- ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي : وإذا انقلب ، أي : رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ، أي : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم .

٣٢- ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ أي : لكونهم على غير دينهم .

٣٣- قال الله تعالى ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون ، حافظين على هؤلاء المؤمنين ، ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم ، وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ .

٣٤- ولهذا قال ههنا ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي : في مقابلة ما ضحك بهم أولئك .

٣٥- ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي : إلى الله عز وجل في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، وليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته .

٣٦- وقوله تعالى ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ؟﴾ أي : هل جُوزي الكفار ، على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص ، أم لا؟ يعني : قد جُوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

آخر تفسير سورة المطففين

****

ترتيبها ٨٤ | سورة الانشقاق مكية | آياتها ٢٥

روى مالك: أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد فيها فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. رواه مسلم والنسائي.

وروى البخاري: عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه. وأخرجه مسلم وأهل السنن.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦)
فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ
مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴾

١ - يقول تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وذلك يوم القيامة.

٢ - ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي استمعت لربها، وأطاعت أمره فيما أمرها به، من الإنشقاق وذلك يوم القيامة. ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لايمانع ولايغالب، بل قد قهر كل شيء، وذلَّ له كل شيء.

٣ - ثم قال ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت.

٤ - وقوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: ألقت ما في بطنها من الأموات، وتخلت منهم. قاله مجاهد وسعيد وقتادة.

٥ - ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كما تقدم.

٦ - وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: أنك ساع إلى ربك سعيا، وعامل عملا. ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أوشر، ويشهد لذلك: ما رواه أبو داود الطيالسي: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «قال جبريل: يامحمد، عشْ ما شئتَ فإنك ميتٌ، واحببْ من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».

ومن الناس من يعيد الضمير على قوله «رَبِّكَ» أي: فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك، ويكافئك على سعيك، وعلى هذا، فكلا القولين متلازم، قال العوفي عن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ يقول تعمل عملا تلقى الله به، خيرا كان أو شرا، وقال قتادة ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله.

٧، ٨- ثم قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ❁ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ أي سهلا بلا تعسير، أي: لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله، فإنَّ من حُوسِبَ كذلك هلك لا محالة.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «من نوقش الحساب عُذِّب» قالت فقلت: أفليس قال الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ قال: ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العَرْض من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب» وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير.

وروى أحمد: عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته «اللهم حاسبني حسابا يسيرا» فلما انصرف، قلت يارسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أنْ يَنظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحسابَ يا عائشةِ يومئذ هلك» صحيح على شرط مسلم.

٩- وقوله تعالى: ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ أي: ويرجع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة والضحاك: ﴿مَسْرُوراً﴾ أي فرحا مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل.

١٠- وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله، من وراء ظهره، تثنى يده إلى ورائه، يعطى كتابه بها كذلك.

١١- ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ أي: خسارا وهلاكا.

١٢، ١٣- ﴿وَيَصْلَى سَعِيراً ❁ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ أي: فرحا، لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير، الحزن الطويل.

١٤- ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد موته. قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما والحَوْر: هو الرجوع.

١٥- قال الله ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ يعني: بلى سيعيده الله كم بدأه، ويجازيه على أعماله، خيرها وشرها، فإنه كان به بصيرا، أي عليما خبيرا.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾

١٦- روي عن علي وابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر ومحمد بن علي بن الحسين ومكحول وبكر بن عبدالله المزني وبكير بن الأشج ومالك وابن أبي ذئب وعبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون، أنهم قالوا: الشفق: الحمرة. فالشفق: هو حمرة الأفق، إما قبل طلوع الشمس -كما قاله مجاهد- وإما بعد غروبها، كما هو معروف عند أهل اللغة.

قال الخليل بن أحمد: الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق. وبنحوه قال الجوهري وعكرمة.

وفي صحيح مسلم: عن عبدالله بن عمرو: عن رسول الله ﷺ أنه قال: « وقت المغربِ مالم يَغبِ

الشفق» ففي هذا كله دليل على أن الشفق ، ، هو كما قال الجوهري والخليل .

ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ هو النهار كله .

وفي رواية عنه أيضا : أنه قال : الشفق الشمس ، رواهما ابن أبي حاتم .

١٧ - وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي : جمع كأنه أقسم بالضياء والظلام ، وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبرا ، وبالليل مقبلا . وقال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق : اسم للحمرة والبياض ، وقالوا : هو من الأضداد . قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة : ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ وما جمع . قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة .

وقد قال عكرمة ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه .

١٨ - وقوله تعالى ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ومسروق وأبوصالح والضحاك وابن زيد ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار .

ومعنى كلامهم : إنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلا لليل وما وسق .

١٩ - وقوله تعالى ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ روى البخاري عن مجاهد قال : قال ابن عباس ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال ، قال : هذا نبيكم ﷺ ، هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ ، كأنه قال : سمعت هذا من نبيكم ﷺ . فيكون قوله نبيكم مرفوعا على الفاعلية من قال ، وهو الأظهر - والله أعلم - كما قال أنس : لا يأتي عام ألا والذي بعده شر منه ، سمعته من نبيكم ﷺ .

وروى ابن جرير : عن مجاهد أن ابن عباس كان يقول ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال : يعني نبيكم ﷺ يقول : حالا بعد حال . هذا لفظه ، وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ : حالا بعد حال . وكذا قال عكرمة ومرة الطَّيب ومجاهد والحسن والضحاك ومسروق وأبوصالح .

ويحتمل أن يكون المراد ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال ، قال : هذا يعني المراد بهذا نبيكم ﷺ فيكون مرفوعا ، على أن «هذا» و«نبيكم» يكونان مبتدأ وخبرا ، والله أعلم .

ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ، كما روى أبوداود الطيالسي وغندر : عن ابن عباس ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال : محمد ﷺ . ويؤيد هذا المعني قراءة عمر وابن مسعود وابن عباس وعامة أهل مكة والكوفة ﴿لَتَرۡكَبَنَّ﴾ بفتح التاء والباء .

روى ابن أبي حاتم : عن الشعبي قال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . وهكذا روي عن ابن سعود ومسروق وأبي العالية ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ سماء بعد سماء . قلت يعنون ليلة الإسراء .

وقال السدي ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل . قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : «لتركبن سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه» قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال «فمن؟» وهذا محتمل .

وعن ابن مسعود ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق.

وقال عكرمة ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال، فطيما بعد ما كان رضيعا، وشيخا بعد ما كان شاباً.

وقال الحسن البصري ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يقول: حالا بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى وصحة بعد سقم، وسقما بعد صحة.

ثم قال ابن جرير بعدما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين: والصواب من التأويل: قول من قال: لتركبن أنت يامحمد حالا بعد حال، وأمرا بعد أمر، من الشدائد. والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجها إلى رسول الله ﷺ - جميع الناس، وأنهم يلقون من الشدائد يوم القيامة وأحواله أهوالا.

٢٠، ٢١- وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قُرئت عليهم آيات الله وكلامه - وهو هذا القرآن - لا يسجدون، إعظاما وإكراما واحتراما؟.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي: من سجيتهم التكذيب والعناد، والمخالفة للحق.

٢٣- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم.

٢٤- ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبرهم يا محمد، بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذابا أليما.

٢٥- وقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا استثناء منقطع، لكن الذين آمنوا، أي بقلوبهم، وعملوا الصالحات، أي: بجوارحهم، لهم أجر، أي: في الدار الآخرة غير ممنون. قال ابن عباس: غير منقوص، وقال مجاهد والضحاك: غير محسوب، وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وقال السدي: قال بعضهم: غير ممنون: غير منقوص، وقال بعضهم: غير ممنون عليهم، وهذا القول الأخير عن بعضهم، قد أنكره غير واحد، فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته، لا بأعمالهم فله عليهم المنة دائما سرمدا، والحمد لله وحده أبدا، ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده، كما يلهمون النفس، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

آخر تفسير سورة الانشقاق

****

ترتيبها ٨٥ — سُورَة البروج مكية — آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ
(٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا
نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ
الْحَرِيقِ (١٠) ﴾

١ - يقسم تعالى بالسماء وبروجها، وهي: النجوم العظام، كما تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة والسدي: البروج النجوم.

وعن مجاهد أيضا: البروج التي فيها الحرس. وقال يحي بن رافع: البروج قصور في السماء، وقال المنهال بن عمرو ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الخلق الحسن.

واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر، وهي: اثنا عشر برجا تسير الشمس في كل واحد منها شهرا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمانية وعشرون منزلة، ويستتر ليلتين.

٢، ٣- وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اختلف المفسرون في ذلك، وقد روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة، ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها خيراً، إلا أعطاه إياه، ولا يستعيذ فيها من شرٍ إلا أعاذه ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة» وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أنه قال في هذه الآية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: يعني الشاهد يوم الجمعة، ويوم مشهود: يوم القيامة. وروى أحمد أيضاً: عن أبي هريرة: أنه قال في هذه الآية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، والموعود: يوم القيامة، وقد روي عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة. وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد، ولم أرهم يختلفون في ذلك، ولله الحمد.

وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: الشاهد: ابن آدم، والمشهود يوم القيامة. وعن عكرمة أيضاً: الشاهد محمدﷺ، والمشهود يوم الجمعة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة.

قال ابن جرير: وقال آخرون: المشهود: يوم الجمعة. وعن سعيد بن جبير: الشاهد الله، وتلا: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ والمشهود: نحن، حكاه البغوي. وقال الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة.

٤- وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ أي: لُعن أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي: الحفر في الأرض، وهذا خبرٌ عن قوم من الكفار، عَمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً، وأجَّجوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها.

٥- ٧- ولهذا قال تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين.

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: وما كان لهم عندهم من ذنب، إلا إيمانهم بالله العزيز، الذي لا يُضام مَن لاذ بجنابه المنيع، الحميد في جميع أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وإن كان قدَّر على عباده هؤلاء، هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس.

٩- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة: من هم؟ فعن علي: أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم، فامتنع عليهم علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعنه: أنهم كانوا قوماً باليمن، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخدوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها. وعنه: أنهم كانوا من أهل الحبشة واحدهم حبشي. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ قال: ناس من بني إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقيل غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد: عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم مَلِكٌ، وكان له ساحر، فلما كَبُر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلاماً لأعلِّمه السحر، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك، فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر.

قال: فبينما هو ذات يوم، إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحبُّ إلى الله، أم أمر الساحر؟ قال: فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها ومضى الناس،

فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بُني، أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عليَّ.

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنتَ به دعوتُ الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحوما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من ردَّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟! قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله عز وجل، قال: أنا؟ قال: لا، قال: أولك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دلَّ على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض.

وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجفت بهم الجبل فدُهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به مع نفر في قُرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى.

ثم قال للملك: إنك لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإنْ أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد - والله - نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: مَن رجع عن دينه فدعوه، وإلا فاقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابنٍ لها تُرضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه، فإنك على الحق».

وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح، ورواه النسائي.

وقد جوده الإمام أبو عيسى الترمذي: فرواه في تفسير هذه السورة: عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر هَمس - والهمس في بعض قولهم: تحريك شفتيه كأنه يتكلم - فقيل له: إنك يا رسول الله، إذا صليت العصر همست، قال: «إن نبياً من الأنبياء، كان أُعجب بأمته، فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فأوحى الله إليه: أن خَيِّرهم بين أن أنتقم منهم، وبين أن أسلط عليهم عدوهم، فاختاروا النقمة، فسلط الله عليهم الموت، فمات منهم في يوم سبعون ألفاً» قال: وكان إذا حدَّث بهذا الحديث، حدث بهذا الحديث الآخر قال: كان ملكٌ من الملوك، وكان لذلك الملك كاهن يتكهن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال: فطناً لقناً، فأعلمه

علمي هذا» فذكر القصة بتمامها، وقال في آخره: يقول الله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ قال: فأما الغلام فإنه دُفن، فيذكر أنه أخرج في زمان عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه، كما وضعها حين قتل [1].

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً، كما روى ابن أبي حاتم: عن عبد الرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل بختنصر، الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه فجعلها الله تعالى عليهما برداً وسلاماً، وأنقذهما منها وألقى فيها الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار.

وعن السدي في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ قال: كانت الأخدود ثلاثة: خدّ بالعراق وخدّ بالشام، وخدّ باليمن. رواه ابن أبي حاتم.

١٠- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن أبزى ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي: لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾

١١- يخبر تعالى عن عباده المؤمنين، أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بخلاف ما أعدّ لأعدائه، من الحريق والجحيم، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

١٢- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه - الذين كذّبوا رسله وخالفوا أمره - لشديد عظيمٌ قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان كما يشاء، في مثل لمح البصر أو هو أقرب.

١٣- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: من قوته وقدرته التامة، يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع.

١٤- ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ أي: يغفر ذنب من تاب إليه، وخضع لديه، ولو كان الذنب من أي شيء

---

(١) أشار الحافظ ابن كثير إلى أن السياق الأخير، لعله من كلام صهيب الرومي رضي الله عنه، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى.

كان، والودود: قال ابن عباس وغيره: هو الحبيب.

١٥ - ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، العالي على جميع الخلائق، و «المجيد» فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عز وجل، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح.

١٦ - ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق: أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك، قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

١٧، ١٨ - وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۞ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي: هل بلغك ما أحلَّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة، التي لم يردها عنهم أحد؟

وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إذا أخذ الظالم، أخذه أخذاً أليماً شديداً، أخذ عزيز مقتدر.

١٩ - وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: هم في شك وريب، وكفر وعناد.

٢٠ - ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ أي: هو قادر عليهم قاهر، لا يفوتونه ولا يعجزونه.

٢١ - ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: عظيم كريم.

٢٢ - ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي: هو في الملإ الأعلى، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل. وقال الحسن البصري: إنَّ هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء، على من يشاء من خلقه.

آخر تفسير سورة البروج

****

ترتيبها ٨٦ — سُورَةُ الطارق - مكية — آياتها ١٧

روى النسائي: عن جابر قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتانٌ أنت يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحوها؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾

١- يقسم تبارك وتعالى بالسماء، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

٢- ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾.

٣- ثم فسر بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ قال قتادة وغيره: وإنما سمي النجم طارقاً، لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يَطْرُقَ الرجل أهله طروقاً. أي: يأتيهم فجأة بالليل. وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

وقوله تعالى: ﴿الثَّاقِبُ﴾ قال ابن عباس: المضيء. وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها. وقال عكرمة: هو مضيء، ومحرق للشيطان.

٤- وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي: كل نفس عليها من الله حافظ، يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

٥- وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تنبيه للإنسان على ضَعف أصله الذي خُلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن مَن قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ يعني: المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عز وجل.

٧- ولهذا قال: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يعني: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو صدرها. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: صلب الرجل، وترائب المرأة، أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم. وقال الضحاك وعطية عن ابن عباس: تريبة المرأة موضع القلادة، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الترائب بين ثدييها، وعن

مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر. وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي، وقال سفيان الثوري: فوق الثديين، وعن سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل، وعن قتادة: من بين صلبه ونحره.

٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه، لقادر على ذلك. قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما.

القول الثاني: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر، لأن مَن قدر على البداءة، قدر على الإعادة، وقد ذكر الله عز وجل هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير.

٩- ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية، والمكنون مشهوراً؛ وقد ثبت في الصحيحين: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يُرفع لكل غادرٍ لواءٌ عند استه، يقال هذه غدرة فلان بن فلان».

١٠- وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: الإنسان يوم القيامة ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي: في نفسه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحدٌ ذلك.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)﴾

١١- قال ابن عباس: الرجع المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم.

وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من ههنا.

١٢- ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغير واحد.

١٣- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ قال ابن عباس: حق. وكذا قال قتادة. وقال آخر: حكم عدل.

١٤- ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: هو جد حق.

١٥، ١٦- ثم أخبر عن الكافرين، بأنهم يكذبون ويصدون عن سبيله، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً﴾ أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن.

١٧- ثم قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ أي: قليلاً، أي: وسترى ماذا أُحلُّ بهم، من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، ، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

آخر تفسير سورة الطارق

****

ترتيبها ٨٧ — سُورَةُ الأعلى ـ مكية — آياتها ١٩

والدليل على ذلك ما رواه البخاري: عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبيﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبيﷺ، فما رأيتُ أهلَ المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان، يقولون: هذا رسول اللهﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها.

وثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ قال لمعاذ: «هلا صليتَ بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى».

وروى الإمام أحمد: عن النعمان بن بشير: أن رسول اللهﷺ قرأ في العيدين بـ «سبح اسم ربك الأعلى» و«هل أتاك حديث الغاشية» وإنْ وافق يوم الجمعة، قرأهما جميعاً. وقد رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي والنسائي. ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ في العيدين يوم الجمعة بـ «سبح اسم ربك الأعلى» و«هل أتاك حديث الغاشية»، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده: من حديث أبي بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبزى وعائشة أم المؤمنين: أن رسول اللهﷺ كان يقرأ في الوتر بـ «سبح اسم ربك الأعلى» و«قل يا أيها الكافرون» و«قل هو الله أحد». زادت عائشة: والمعوذتين.

وهكذا روي هذا الحديث من طريق جابر، وأبي أمامة صدى بن عجلان، وعبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ولولا خشية الإطالة، لأوردنا ما تيسر لنا من أسانيد ذلك ومتونه، ولكن في الإرشاد بهذا الاختصار كفاية، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ وَالَّذِي أَخْرَجَ
الْمَرْعَىٰ ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ⑤ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ⑥ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا
يَخْفَىٰ ⑦ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ⑧ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ⑨ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⑩ وَيَتَجَنَّبُهَا
الْأَشْقَى ⑪ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ⑬﴾

١ ـ روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر الجهني: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول اللهﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» ورواه أبو داود وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أن رسول اللهﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال:

«سبحان ربي الأعلى» وهكذا رواه أبو داود.

وعن عبد خير قال: سمعت علياً قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى.

٢- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي: خلق الخليقة، وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى، أنه قال لفرعون ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي: قدَّر قدراً، وهدى الخلائق إليه. كما ثبت في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قدَّر مقاديرَ الخلائق، قبل أنْ يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

٤- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي: من جميع صنوف النباتات والزروع.

٥- ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ قال ابن عباس: هشيماً متغيراً. وعن مجاهد وقتادة وابن زيد نحوه.

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب، يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، ، فجعله غثاء بعد ذلك. ثم قال ابن جرير: وهذا وإن كان محتملاً، إلا أنه غير صواب لمخالفته أقوال أهل التأويل.

٦- وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: يا محمد ﴿فَلاَ تَنسَى﴾ وهذا إخبار من الله تعالى، ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها.

٧- ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ وهذا اختيار ابن جرير. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً، إلا ما شاء الله. وقيل: المراد بقوله ﴿فَلاَ تَنسَى﴾ طلب، وجعل معنى الاستثناء على هذا، ما يقع من النسخ، أي: لا تنسى ما نقرئك، إلا ما يشاء الله رفعه، فلا عليك أن تتركه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي: يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

٨- وقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه، ولا حرج ولا عسر.

٩- وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم: فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدِّث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟

١٠- وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ أي: سيتعظ بما تبلغه يا محمد مَن قلبُه يَخشى الله، ويعلم أنه ملاقيه.

١١- ١٣- ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يَشْعر ما يُعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النكال.

روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، لا يموتون

ولا يحيون، وأما أناسٌ يُريد الله بهم الرحمة، فيُميتهم في النار، فيدخل عليهم الشفعاء، فيأخذ الرجل الضِّبارة فينبتهم - أو قال: ينبتون في نهر الحيا - أو قال: الحياة - أو قال: الحيوان - أو قال: نهر الجنة - فينبتون نبات الحِبَّة في حميل السيل» قال: وقال النبيﷺ: «أما ترون الشجرة تكون خضراء، ثم تكون صفراء أو قال: تكون صفراء، ثم تكون خضراء؟ قال: فقال بعضهم: كأن النبيﷺ كان بالبادية.

وروى أحمد أيضاً: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللهﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس - أو كما قال - تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً، أُذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» قال: فقال رجل من القوم حينئذ: كأن رسول اللهﷺ كان بالبادية، رواه مسلم.

وقد قال الله تعالى إخباراً عن أهل النار ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾

١٤- يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

١٥- ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله، وطاعة لأمر الله، وامتثالاً لشرع الله. وكذا قال ابن عباس أن المراد بذلك الصلوات الخمس، واختاره ابن جرير.

وروى ابن جرير: عن أبي خلدة قال: دخلت على أبي العالية، فقال لي: إذا غدوت غداً إلى العيد فمُرَّ بي، قال: فمررت به، فقال: هل طعمت شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أفضت على نفسك من الماء؟ قلت: نعم، قال: فأخبرني ما فعلت بزكاتك؟ قلت: قد وجهتها، قال: إنما أردتك لهذه، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾. وقال: إنَّ أهل المدينة لا يرون صدقةً أفضل منها، ومن سقاية الماء.

قلت: وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾.

وقال أبو الأحوص: إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة، فليقدم بين يدي صلاته زكاته، فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾. وقال قتادة: زكَّى ماله، وأرضى خالقه.

١٦- ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم، في معاشكم ومعادكم.

١٧- ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دانية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد.

وروى ابن جرير: عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه، وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا، لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل.

وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم.

١٨، ١٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى• صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ روى النسائي: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى، ولما نزلت ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال: وفَّى إبراهيم ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني: أن هذه الآية كقوله تعالى في سورة النجم ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى• وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى• أَن لاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى• وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى• وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى• ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى• وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ الآيات إلى آخرهن، وهكذا قال عكرمة فيما رواه ابن جرير عنه.

وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى.

واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى• وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى• بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا• وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى• صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأعلى

****

ترتيبها ٨٨ — سُورَةُ الغاشية – مكية — آياتها ٢٦

قد تقدم عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى، والغاشية، في صلاة العيد، ويوم الجمعة.

وروى الإمام مالك: أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: هل أتاك حديث الغاشية. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾

١- الغاشية من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، لأنها تغشى الناس وتعمهم.

٢- وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها.

٣- وقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي: قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية. روى الحافظ أبوبكر البرقاني: عن أبي عمران الجوني يقول: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدار راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف، قال فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ فذاك الذي أبكاني[1].

وقال البخاري: قال ابن عباس ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾: النصارى، وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك.

٤- قال ابن عباس والحسن وقتادة ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: حارة شديدة الحر.

٥- ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: قد انتهى حرُّها وغليانها، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي.

٦- وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: شجرٌ من النار. وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة، وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو الجوزاء وقتادة: هو الشِّبرق، قال قتادة: قريش تسميه في الربيع: الشبرق، وفي الصيف: الضريع، قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض. وقال البخاري: قال مجاهد: الضريع نبت يقال له: الشبرق، يسميه أهل الحجاز: الضريع إذا يبس، وهو سم. وقال سعيد عن قتادة ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ من شر الطعام، وأبشعه وأخبثه.

٧- وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ يعني: لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا

(١) أبو عمران الجوني، من ثقات التابعين، لكن في سماعه من عمر رضي الله عنه نظر، وإنما أبقيته لشواهده من أقوال السلف، والله أعلم.

عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

٨- لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿نَاعِمَةٌ﴾ أي: يعرف النعيم فيها.

٩- وإنما حصل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ قد رضيت عليها.

١٠- وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة بهية، في الغرفات آمنون.

١١- ﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾ أي: لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ۞ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾.

١٢- ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: سارحة، وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها: عيناً واحدة، وإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهارُ الجنة تفجَّر من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك».

١٣- ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: عالية ناعمة، كثيرة الفرش، مرتفعة السمك، عليها الحور العين.

قالوا: فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية، تواضعت له.

١٤- ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ يعني: أواني الشرب، مُعدَّة مرصدة لمن أرادوها من أربابها.

١٥- ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ قال ابن عباس: النمارق الوسائد. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدي والثوري وغيرهم.

١٦- وقوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ قال ابن عباس: الزرابي: البسط. وكذا قال الضحاك وغير واحد. ومعنى مبثوثة: أي: ههنا وههنا، لمن أراد الجلوس عليها.

﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾

١٧- يقول تعالى آمراً عباده، بالنظر في مخلوقاته، الدالة على قدرته وعظمته ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك، لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل. وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت؟

١٨- ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي: كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

١٩- ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي: جعلت منصوبة، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن.

٢٠- ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: كيف بسطت ومدت ومهدت؟ فنبه البدوي على الإستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه.

وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ، كما رواه الإمام أحمد: عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجلٌ من أهل البادية، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صدق» قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله» قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض، ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «نعم» قال: «وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، قال: «صدق» قال: ثم ولّى فقال: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن شيئاً، ولا أنقص منهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «إن صدق ليدخلنّ الجنة» وقد رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي.

٢١، ٢٢- وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ أي: فذكر يا محمد الناس، بما أرسلت به إليهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار، أي: لست تخلق الإيمان في قلوبهم. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان.

روى الإمام أحمد: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله عز وجل» ثم قرأ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾. وهكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما بهذه الزيادة، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من رواية أبي هريرة، بدون ذكر هذه الآية.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي: تولى عن العمل بأركانه، وكَفَر بالحق بجنانه ولسانه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

٢٤- ولهذا قال: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ روى الإمام أحمد: أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمةٍ سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا مَن شرَد على الله شراد البعير على أهله» تفرد بإخراجه الإمام أحمد.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم.

٢٦- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم، ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر.

آخر تفسير سورة الغاشية

****

ترتيبها ٨٩ — سُورَةُ الفجر – مكية — آياتها ٣٠

روى النسائي: عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه، فطوّل فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئتُ أصلي معه فطوّل عليَّ، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناقتي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتّاناً يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ⑧ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ⑭﴾

١- أما الفجر فمعروف، وهو الصبح، قاله علي وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي. وعن مسروق ومحمد بن كعب المراد به: فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر، وقيل المراد بذلك: الصلاة التي تفعل عنده، كما قاله عكرمة.

٢- والليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة، كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف، وقد ثبت في صحيح البخاري: عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خَرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر ابن جرير ولم يعزه إلى أحد. وقد روي عن ابن عباس ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان. والصحيح القول الأول.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن «الوتر يوم عرفة» لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر، لكونه العاشر، وقاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضاً.

قول ثان: عن ابن الزبير: الشفع: أوسط أيام التشريق، والوتر: آخر أيام التشريق.

وفي الصحيحين: من رواية أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يُحب الوتر».

قول ثالث: قال الحسن البصري وزيد بن أسلم: الخلق كلهم شفع ووتر، أقسم تعالى بخلقه، وهو رواية عن مجاهد، والمشهور عنه الأول، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الله وتر واحد، وأنتم

شفع. ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب.

قول رابع: وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ كل شيء خلقه الله شفع، السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد.

قول خامس: قال قتادة عن الحسن ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هو العدد، منه شفع ومنه وتر.

قول سادس: قال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما: هي الصلاة، منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث، وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. (وروي عن عمران بن حصين مرفوعاً) وعندي أن وقفه أشبه، والله أعلم.

ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أي: إذا ذهب. وقال عبد الله بن الزبير ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ حتى يذهب بعضه بعضاً، وقال مجاهد وأبو العالية وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إذا سار. وهذا يمكن حمله على ما قال ابن عباس: أي ذهب.

ويحتمل أن يكون المراد إذا سار، أي: أقبل. وقد يقال: إن هذا أنسب، لأنه في مقابلة قوله ﴿وَالْفَجْرِ﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار، وإدبار الليل، فإذا حمل قوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ على إقباله، كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وكذا قال الضحاك ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي: يجري، وقال عكرمة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ يعني: ليلة جمع ليلة المزدلفة. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

٥- وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي: لذي عقل ولب ودين وحجى، وإنما سمي العقل «حجراً» لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به، من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت، لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي، ومنه حجر اليمامة، وحَجر الحاكم على فلان: إذا منعه التصرف ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة، من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب، التي يتقرب بها إليه عباده المتقون، المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم.

٦- ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم، قال بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة، جبارين خارجين عن طاعته، مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

٧- ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وهؤلاء عاد الأولى، وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قاله ابن إسحاق، وهم الذين بعث الله فيهم رسولاً هوداً عليه السلام، فكذبوه وخالفوه فأنجاه الله من بين أظهرهم، ، ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ عطف بيان، زيادة تعريف بهم. وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لأنهم

كانوا يسكنون بيوت الشعر، التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة، وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

٨- وقال ههنا: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم، وعظم تركيبهم، قال مجاهد: إرم أمة قديمة، يعني: عاداً الأولى. قال قتادة بن دعامة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد وقتادة والكلبي: كانوا أهل عمد لا يقيمون. وقال العوفي عن ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، ورد الثاني فأصاب.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها، وقال: بنوا عمداً بالأحقاف، لم يخلق مثلها في البلاد، وأما قتادة وابن جرير فأعادا الضميرَ على القبيلة، أي: لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم، وهذا القول هو الصواب، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف، لأنه لو كان المراد ذلك، لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

قلت: فعلى كل قول، سواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحاً يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم.

ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ مدينة إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة، أو اسكندرية كما روي عن القرطبي أو غيرهما، ففيه نظر! فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحلَّ الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أنَّ المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم. وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: «إرم ذات العماد» مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها، وإن حصباءها لآلئ وجواهر، وترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها داع ولا مجيب، وإنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

وذكر الثعلبي وغيره: أن رجلاً من الأعراب - وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية - ذهب في طلب أباعر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ اطَّلع على مدينة عظيمة، لها سورٌ وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً!

فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي، فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه

نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته.

وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة، وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ، والأكسير الكبير! لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيانات، ويطنزون بهم، والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية، وكنوزاً كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها، فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون، إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب.

وقول ابن جرير يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ قبيلة، أو بلدة كانت عاد تسكنها، فلذلك لم تصرف. فيه نظر، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة.

٩- ولهذا قال بعده: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ يعني: يقطعون الصخر بالوادي. قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد، ومنه يقال: مجتابي النمار، إذا خرقوها، واجتاب الثوب إذا فتحه، ومنه: الجيب أيضاً، وقال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾. وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القرى.

وقد ذكرنا قصة عاد مستقصاة في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد الجنود، الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد، يعلقهم بها. وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسدي، قال السدي: كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد، ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه. وعن أبي رافع: قيل لفرعون: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

١١، ١٢- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۞ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي: تمردوا وعتوا، وعاثوا في الأرض بالإفساد، والأذية للناس.

١٣- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحلَّ بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين.

١٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قال ابن عباس: يَسمع ويرى. يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويُجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلاً بما يستحقه، وهو المنزه عن الظلم والجور.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

١٥- يقول تعالى منكراً على الإنسان، في اعتقاده إذا وسَّع الله تعالى عليه في الرزق، ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له! وليس كذلك، بل هو ابتلاءٌ وامتحان، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

١٦- وكذلك في الجانب الآخر، إذا ابتلاه وامتحنه، وضيق عليه في الرزق، يعتقد أنَّ ذلك من الله إهانة له.

١٧- قال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإنَّ الله تعالى يُعطي المال مَن يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: عن سهل يعني ابن سعد: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقَرن بين أصابعه الوسطى والتي تلي الإبهام.

١٨- ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعضٍ في ذلك.

١٩- ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ يعني: الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: من أي جهةٍ حصل لهم، من حلال أو حرام.

٢٠- ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً زاد بعضهم فاحشاً.

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

٢١- يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: وطئت ومهدت وسويت الجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم.

٢٢- ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق: محمد صلوات الله وسلامه عليه، بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل، واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النَّوبة إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها» فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفِّعه الله تعالى في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود، كما تقدم في بيانه في سورة سبحان، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ روى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمامٍ سبعون ألف ملَك

يَجرونها» وهكذا رواه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ أي: عمله، وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: وكيف تنفعه الذكرى؟

٢٤- ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يعني: يندم على كل ما سلف منه من المعاصي، إن كان عاصياً، ويود لو كان ازداد من الطاعات، إن كان طائعاً. كما روى الإمام أحمد بن حنبل: عن محمد بن أبي عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: لو أنَّ عبداً خرَّ على وجهه من يوم وُلد إلى أن يموت هرَماً في طاعة الله، لحقره يوم القيامة، ولود أنه رُدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي: ليس أحد أشد عذاباً، من تعذيب الله من عصاه.

٢٦- ﴿وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أي: وليس أحدٌ أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية، لمن كفر بربهم عز وجل. وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين.

٢٧، ٢٨- فأما النفس الزكية المطمئنة، وهي الساكنة الثابتة، الدائرة مع الحق، فيقال لها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ♦ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ أي: إلى جواره وثوابه، وما أعده لعباده في جنته ﴿رَاضِيَةً﴾ أي: في نفسها ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ أي: قد رضيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها.

٢٩- ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في جملتهم.

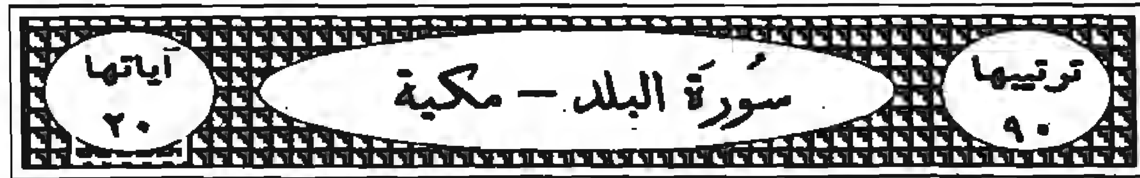
٣٠- ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره، وعند قيامه من قبره، فكذلك ههنا.

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية: فروى العوفي عن ابن عباس قال: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ♦ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ يعني: صاحبك، وهو بدنها الذي كانت تعمره في الدنيا، راضية مرضية. وروي عنه: أنه كان يقرؤها ﴿فَادْخُلِي فِي عَبْدِي ♦ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وكذا قال عكرمة والكلبي، واختاره ابن جرير، وهو غريب! والظاهر الأول، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ﴾ أي: إلى حكمه والوقوف بين يديه.

ثم روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم ير على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ♦ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ♦ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ♦ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ورواه الطبراني.

آخر تفسير سورة الفجر

****



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾

١ ، ٢- هذا قسمٌ من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى ، في حال كون الساكن فيها حالاً ، لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها . وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني : مكة ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال : أنت يا محمد ، يحل لك أن تقاتل به .

وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وعطية والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد ، وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلالٌ لك ، وقال قتادة ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال : أنت به من غير حرج ولا إثم .

وقال الحسن البصري : أحلَّها الله له ساعة من نهار .

وهذا المعنى الذي قالوه ، قد ورد به الحديث المتفق على صحته : «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضَد شَجره ، ولا يختلى خلاه ، وإنما أُحلَّت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهدُ الغائب» .

وفي لفظ آخر : «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم» .

٣- وقوله تعالى : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ روى ابن جرير : عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ الوالد الذي يلد ، وما ولد : العاقر الذي لا يولد له ، ورواه ابن أبي حاتم .

وقال عكرمة : الوالد العاقر ، وما ولد الذي يلد . رواه ابن أبي حاتم .

وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والضحاك وسفيان الثوري وسعيد بن جبير والسدي والحسن البصري وخصيف وشرحبيل بن سعد وغيرهم يعني : بالوالد آدم وما ولد ولده . وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي ، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى ، وهي أم المساكن ، أقسم بعده بالساكن ، وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال أبو عمران الجوني : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

واختار ابن جرير : أنه عام في كل والد وولده . وهو محتمل أيضاً .

٤- وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد والنخعي وخيثمة والضحاك وغيرهم ، يعني : منتصباً . زاد ابن عباس في رواية عنه : منتصباً في بطن أمه ، والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول : لقد خلقناه سوياً مستقيماً ، كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ◆ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ◆ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وكقوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

﴿الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وقال ابن أبي نجيح وجريج وعطاء عن ابن عباس ﴿فِي كَبَدٍ﴾ قال: في شدة خَلْق، ألم تر إليه، وذكر مولده ونبات أسنانه. وقال مجاهد ﴿فِي كَبَدٍ﴾: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، يتكبد في الخلق. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ وأرضعته كرها، ومعيشته كره، فهو يكابد ذلك. وقال سعيد ابن جبير ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ في شدة وطلب معيشة. وقال عكرمة: في شدة وطول. وقال قتادة: في مشقة.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الحميد بن جعفر: سمعت محمد بن علي أبا جعفر الباقر سأل رجلاً من الأنصار عن قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قال: في قيامه واعتداله، فلم ينكر عليه أبو جعفر، وروي عن الحسن قرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قال: يكابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة. وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا، وشدائد الآخرة.

واختار ابن جرير: أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها.

٥- وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال الحسن البصري: يعني ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾: يأخذ ماله. وقال قتادة: ابن آدم يظن أن لن يسئل عن هذا المال، من أين اكتسبه وأين أنفقه؟ وقال السدي ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال: الله عز وجل.

٦- وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً﴾ أي: يقول ابن آدم: أنفقت مالاً لُبداً، أي: كثيراً. قاله مجاهد والحسن وقتادة والسدي وغيرهم.

٧- ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ قال مجاهد: أي: أيحسب أن لم يره الله عز وجل. وكذا قال غيره من السلف.

٨- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ أي: يبصر بهما.

٩- ﴿وَلِسَاناً﴾ أي: ينطق به، فيعبِّر عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه.

١٠- ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ الطريقين. روى سفيان الثوري عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال: الخير والشر. وكذا روي عن علي وابن عباس، ومجاهد وعكرمة وأبي وائل وأبي صالح ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخراساني في آخرين. ونظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾.

﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾

١١ – قال الحسن البصري ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ قال: عقبة في جهنم. وقال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله تعالى.

١٢ –وقال قتادة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله) (١).

١٣ – ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ﴾ وقال ابن زيد: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النَّجاة والخير.

ثمَّ بيَّنها، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ﴾ قرئ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بالإضافة. وقُرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل، والرقبة مفعولة، وكلتا القراءتين معناهما متقارب.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أعتقَ رقبةً مؤمنة، أعتق الله بكل إرْبٍ – أو عضو – منها إربا من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج» فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي بن الحسين لغلام له – أفْرَه غلمانه – ادع مَطرفاً، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنتَ حرٌّ لوجه الله. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. وعند مسلم: أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين، كان قد أُعطي فيه عشرة آلاف درهم.

روى الإمام أحمد: عن عمرو بن عبسة أنه حدثهم أن النبي ﷺ قال: «مَن بنى مسجداً ليُذكرَ اللهُ فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة، ومن أعتق نفساً مسلمة، كانت فديته من جهنم، ومَن شابَ شيبةً في الإسلام، كانت له نوراً يوم القيامة».

طريق أخرى: روى أحمد: عن شرحبيل بن السميط قال لعمرو بن عبسة: حدثنا حديثاً ليس فيه تزيُّدٌ ولا نسيان، قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أعتق رقبةً مسلمةً، كانت فكاكه من النار عضواً بعضو، ومن شاب شيبةً في سبيل الله، كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رَمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ، كان كعتق رقبة».

حديث آخر: روى أحمد: عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أعتق رقبةً مسلمة، فهو فداؤه من النار».

روى الإمام أحمد: عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علِّمني عملاً يُدخلني الجنة، فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسئلة، أعتق النَّسَمة، وفكَّ الرَّقبة» فقال: يا رسول الله، أوليستا بواحدة؟ قال: «لا، إنَّ عِتق النَّسمة أن تنفرد بعتقها، وفكّ الرقبة أن تُعين في عتقها، والمِنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطق ذلك فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأْمُر بالمعروف وانهَ عن المنكر، فإن لم تُطق ذلك، فكف لسانك إلا من الخير».

١٤ – وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد. والسغب: هو الجوع، وقال إبراهيم النخعي: في يوم الطعام فيه عزيز، وقال قتادة في يوم يشتهى فيه الطعام.

---

(١) ساقطة في الأصل، واستدركناها من تفسير ابن جرير

١٥- وقوله تعالى: ﴿يَتِيماً﴾ أي: أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: ذا قرابة منه، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك والسدي، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصَّدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصِلة» وقد رواه الترمذي والنسائي، وهذا إسناد صحيح.

١٦- وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: فقيراً مُدقعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً. قال ابن عباس ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب، وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة، ليس له شيء، وفي رواية عنه: هو البعيد التربة، قال ابن أبي حاتم: يعني الغريب عن وطنه، وقال عكرمة: هو الفقير المديون المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له.

وقال ابن عباس وسعيد وقتادة ومقاتل بن حيان: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى.

١٧- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة، مؤمنٌ بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم، كما جاء في الحديث الشريف: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»(١).

وفي الحديث الآخر: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»(٢).

وروى أبو داود: عن عبد الله بن عمرو يرويه قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حقَّ كبيرنا، فليس منا».

١٨- وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين.

١٩، ٢٠- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقةٌ عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها.

قال أبو هريرة وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب القرظي وعطية العوفي والحسن وقتادة والسدي ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة، قال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب بلغة قريش، أي: أغلقه. وسيأتي في ذلك حديث في سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

وقال الضحاك ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ حيط لا باب له وقال قتادة: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة، لا ضوء فيها ولا فُرج، ولا خروج منها آخر الأبد.

آخر تفسير سورة البلد

****

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٦٠) والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وتمامه: «والرحم شُجنة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».

(٢) رواه مسلم (٢٣١٩) وغيره من حديث جرير رضي الله عنه.

ترتيبها ٩١ — سُورَةُ الشمس — مكية — آياتها ١٥

تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلاَّ صليت بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾

١- قال مجاهد ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي: وضوئها، وقال قتادة ﴿وَضُحَاهَا﴾ النهار كله، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهرة هو النهار.

٢- ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ قال مجاهد: تبعها، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ قال: يتلو النهار، وقال قتادة: إذا تلاها، ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رُؤي الهلال. وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه، وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: إذا تلاها ليلة القدر.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: إذا غشيها النهار، وقال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، لدلالة الكلام عليها، قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ أي: البسيطة، لكان أولى ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم.

ولهذا قال مجاهد ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ أنه كقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾. وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على «الشمس» لجريان ذكرها.

٤-وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يعني: إذا يغشى الشمس، حين تغيب فتظلم الآفاق.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن تكون «ما» ههنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها، وهو قول قتادة. ويحتمل أن تكون بمعنى: من، يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم. والبناء هو الرفع، كقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

٦- وهكذا قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ قال مجاهد: طحاها دحاها، قال العوفي عن ابن عباس ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ أي: خلق فيها. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: طحاها قسمها. وقال **مجاهد** وقتادة والضحاك والسدي والثوري وأبو صالح وابن زيد ﴿طَحَاهَا﴾ بسطها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه **الأكثر**

من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة. قال الجوهري: طحوته مثل دحوته مثل دجوته، أي: بسطته.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي: خلقها سويَّة مستقيمة، على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ علَى الفِطرة، فأبواه يُهوِّدَانِه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، كما تُولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟» أخرجاه من رواية أبي هريرة.

وفي صحيح مسلم: من رواية عياض بن حماد المجاشعي عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقتُ عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

٨- وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي: بيَّن ذلك لها، وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بيَّن لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك والثوري.

وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها.

وروى ابن جرير: عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه، أشيءٌ قُضي عليهم ومضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضى عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، قال: سددك الله إنما سألتك لأخبر عقلك، إن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيءٌ قُضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيءٌ مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيءٌ قد قُضي عليهم» قال: ففيم نعمل؟ قال: «مَن كان الله خلقه لأحد المنزلتين، يهيئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾» رواه أحمد ومسلم.

٩- وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكَّى نفسه، أي: بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهَّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وكقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۞ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.

١٠- ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي: دسسها، أي: أخملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله عز وجل. وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح مَن زكَّى الله نفسه، وقد خاب من دسَّى الله نفسه، كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وروى الطبراني: عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخيرُ مَن زكَّاها».

حديث آخر: روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليها ومولاها» لم يخرجوه من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة: أنها فقدت النبيﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «ربِّ أعطِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها» تفرد به.

حديث آخر: وروى الإمام أحمد: عن زيد بن أرقم قال: كان رسول اللهﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العَجْز والكسَل، والهرم والجُبن والبُخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خيرُ من زكاها، أنتَ وليُّها ومولاها، اللهم إني أعوذُ بك مِن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، وعلمٍ لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها» قال زيد: كان رسول اللهﷺ يعلمناهن، ونحن نعلمكموهنَّ، رواه مسلم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾

١١- يخبر تعالى عن ثمود، أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي. وقال محمد ابن كعب ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ أي: بأجمعها. والأول أولى، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام، من الهدى واليقين.

١٢- ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي: أشقى القبيلة، وهو قدار بن سالف، عاقر الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ الآية. وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً. كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول اللهﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث لها رجلٌ عارمٌ عزيز منيعٌ في رهطه، مثل أبي زمعة» ورواه البخاري في التفسير ومسلم في صفة النار، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما، وكذا ابن جرير وابن أبي حاتم.

وروى ابن أبي حاتم: عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللهﷺ لعلي: «ألا أُحدِّثك بأشقى الناس؟» قال: بلى، قال: «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتلَّ منه هذه» يعني: لحيته.

١٣- وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني: صالحاً عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي: احذروا ناقة الله، أن تمسوها بسوء ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شربُ يوم ولكم شرب يوم معلوم.

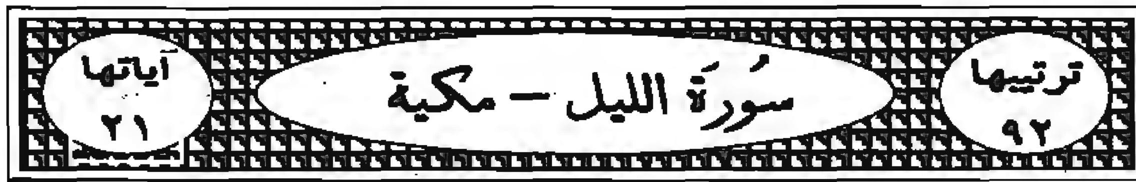
١٤- قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: كذبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة، التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم، وحجة عليهم ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أي: غضب عليهم فدمَّر عليهم ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء.

قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود، لم يعقر الناقة حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها، دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها.

١٥- وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ وقرئ فلا يخاف ﴿عُقْبَاهَا﴾ قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة. وكذا قال مجاهد والحسن وبكر بن عبد الله المزني وغيرهم. وقال الضحاك والسدي ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: أي: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع. والقول الأول أولى، لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الشمس

****



تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فهلا صليت بـ«سبح اسم ربك الأعلى» «والشمس وضحاها» «والليل إذا يغشى»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ⑴ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ⑵ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ⑶ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ⑷ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑸ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑹ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑺ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑻ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑼ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑽ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑾ ﴾

روى الإمام أحمد: عن علقمة: أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق فصلى فيه ركعتين، وقال: اللهم ارزقني جليساً صالحاً. قال فجلس إلى أبي الدرداء، فقال له أبو الدرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ قال علقمة ﴿وَالذَّكَرِ وَالْأُنثَىٰ﴾ فقال أبو الدرداء: لقد سمعتها من رسول الله ﷺ، فما زال هؤلاء حتى شككوني، ثم قال: ألم يكن فيكم صاحب الوساد، وصاحب السِّر الذي لا يعلمه أحدٌ غيره، والذي أجيرَ من الشيطان على لسان محمد ﷺ. وقد رواه البخاري ههنا ومسلم.

هكذا قرأ ذلك ابن مسعود وأبو الدرداء، ورفعه أبو الدرداء، وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو المثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

١ ـ فأقسم تعالى بالليل إذا يغشى، أي: إذا غشيَ الخليقة بظلامه.

٢ ـ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: بضيائه وإشراقته.

٣ ـ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وكقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة، كان المقسم عليه أيضاً متضاداً.

٤ ـ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة، فمن فاعلٍ خيراً، ومن فاعلٍ شراً.

٥ ـ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره.

٦ ـ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالمجازاة على ذلك، قاله قتادة، وقال خصيف: بالثواب. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو صالح وزيد بن أسلم ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالخُلف. وقال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بـ«لا إله إلا الله». وفي رواية عن عكرمة: أي: بما أنعم الله عليه، وفي رواية عن زيد بن أسلم قال: الصلاة والزكاة والصوم، وقال مرة: وصدقة الفطر.

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قال ابن عباس: يعني للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني: الجنة،

وقال بعض السلف: من ثواب الحسنةِ الحسنةُ بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ أي: بما عنده ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: أي: بخل بماله، واستغنى عن ربه عز وجل. رواه ابن أبي حاتم.

٩- ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالجزاء في الدار الآخرة.

١٠- ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة، دالة على أن الله عز وجل يُجازي من قَصَد الخير بالتوفيق له، ومن قَصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدَرٍ مقدَّر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

رواية علي ﷺ: روى البخاري: عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغَرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتب مقعدُه من الجنة، ومقعده من النار» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتَّكل؟ فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَى﴾. وقد أخرجه بقية الجماعة من طرق.

رواية عبد الله بن عمر: روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال عمر: يا رسول الله، أرأيت ما نعملُ فيه، أفي أمرٍ قد فُرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: «فيما قد فُرغ منه، فاعْمل يا ابن الخطاب، فإنَّ كلاً ميسَّرٌ، أما من كان من أهل السعادة، فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فإنه يعمل للشقاء» ورواه الترمذي.

حديث آخر من رواية جابر: روى ابن جرير: عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمرٍ قد فُرغ منه، أو لأمرٍ نستأنفه؟ فقال: «لأمرٍ قد فُرغ منه» فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «كلّ عامل ميسر لعمله» ورواه مسلم.

رواية أبي الدرداء: رواها الإمام أحمد بنحوه.

حديث آخر: روى ابن جرير: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلَفاً، وأعطِ مُمسكاً تلَفاً» وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ ورواه ابن أبي حاتم.

قال ابن جرير: وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ، ثم روى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر ﷺ يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تُعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك، ويمنعونك ويدفعون عنك، فقال: أي أبت، أنما أريد - أظنه قال - ما عند الله، قال: فحدثني بعض أهل بيتي: أن هذه الآية أنزلت فيه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ قال مجاهد: أي: إذا مات.

وقال أبو صالح ومالك عن زيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا

﴿الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾

١٢- قال قتادة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: نبين الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ حكاه ابن جرير.

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ﴾ أي: الجميع ملكنا، وأنا المتصرف فيهما.

١٤- وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ﴾ قال مجاهد: أي: توهّج. روى الإمام أحمد: عن سماك ابن حرب سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذرتكم النار» حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه.

وروى الإمام أحمد: عن أبي إسحاق: سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان، يَغلي منهما دماغه» رواه البخاري.

وروى مسلم: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يَغلي منهما دماغه كما يغلي المِرجل، ما يرى أنَّ أحداً أشدُّ منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً».

١٥- وقوله تعالى: ﴿لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى﴾ أي: لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه، إلا الأشقى.

١٦- ثم فسره فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: عن العمل بجوارحه وأركانه.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي تدخل الجنة يوم القيامة، إلا من أبى» قالوا: من يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» ورواه البخاري.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ أي: وسيزحزح عن النار، التقي النقي الأتقى.

١٨- ثم فسره بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يصرف ماله في طاعة ربه، ليزكي نفسه وماله، وما وهبه الله من دين ودنيا.

١٩، ٢٠- ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: ليس بذله ماله في مكافأة مَن أسدى إليه معروفاً، فهو يعطي في مقابلة ذلك، وإنما دفعه ذلك ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾ أي: طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة، في روضات الجنات.

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إنَّ بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخلٌ فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ ولكنه مقدم الأمة، وسابقهم في جميع هذه الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً، كريماً جواداً، بذّالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن

لأحدٍ من الناس عنده مِنَّة يحتاج إلى أن يُكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل.

ولهذا قال عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - يوم صلح الحديبية: أما والله، لولا يدٌ لك عندي لم أجزكَ بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظَ له في المقالة. فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفقَ زَوجين في سبيل الله، دعته خَزَنَةُ الجنة: يا عبد الله، هذا خيرٌ» فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على مَن يُدعى منها ضرورة، فهل يُدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

آخر تفسير سورة الليل

****

ترتيبها ٩٣ — سورة الضحى – مكية(١) — آياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

١- روى الإمام أحمد: عن جندب يقول: اشتكى النبيﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى ۞ واللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير.

قيل: إن هذه المرأة هي: أم جميل امرأة أبي لهب.

وقد ذكر بعض السلف – منهم ابن إسحاق – أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول اللهﷺ حين تبدَّى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه، وهو بالأبطح ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: قال له هذه ﴿وَالضُّحَى ۞ واللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: لما نزل على رسول اللهﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقال المشركون: ودَّعه ربه وقلاه، فأنزل الله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

هذا قسم منه تعالى بالضحى، وما جعل فيه من الضياء.

٢- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي: سكن فأظلم وادلهم. قاله مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم: وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركك ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي: وما أبغضك.

٤- ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ وللدار الآخرة، خيرٌ لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول اللهﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خُيِّر عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها، ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: اضطجع رسول اللهﷺ على حصير فأثَّر في جنبه، فلما

---

(١) وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا: حديث أبي بن كعب في التكبير بعد الضحى حتى خاتمة القرآن، من رواية أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، وقد ضعفه في الحديث أبو حاتم الرازي. وقال العقيلي: هو منكر الحديث. وذكر الذهبي الحديث في ميزان الاعتدال (١/ ١٤٥) ثم قال: «هذا حديث غريب، وهو مما أنكر على البزي، قال أبو حاتم: هذا منكر».

استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا، كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها» ورواه الترمذي وابن ماجة.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر، الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه مسك أذفر كما سيأتي. وروى الإمام أبو عمر الأوزاعي: عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوحٌ على أمته من بعده، كنزاً كنزاً فسرَّ بذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف.

وقال السدي عن ابن عباس: من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة. وهكذا قال أبو جعفر الباقر.

٦- ثم قال تعالى يعدد نِعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾ وذلك أن أباه تُوفي وهو حمل في بطن أمه. وقيل: بعد أن وُلد ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويرفع من قدره ويوقره، ويكف عنه أذى قومه، بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقَدَر الله، وحسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم، إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه، وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ﴾ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية. ومنهم من قال: إن المراد بهذا: أن النبي ﷺ ضلَّ في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع. وقيل: إنه ضلَّ وهو مع عمه في طريق الشام، حكاهما البغوي.

٨- وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ أي: كنت فقيراً ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس».

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أَسلم، ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه».

٩- ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾ أي: كما كنت يتيماً فآواك الله، فلا تقهر اليتيم، أي: لا تُذلّه وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم.

١٠- ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ أي: وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد.

قال ابن إسحاق ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾ أي: فلا تكن جباراً ولا متكبراً، ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله. وقال قتادة: يعني رد المشركين برحمة ولين.

١١- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدِّث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُثنين بها عليك قابليها، وأتمها علينا»[1].

وروى ابن جرير: عن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم: أن يحدث بها.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «مَن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدُّث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمةٌ، والفُرقة عذاب».

وفي الصحيحين: عن أنس: أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: «لا ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم».

وروى أبو داود: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ورواه الترمذي.

وروى أبو داود: عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مَن أُبلي بلاءً فذكره فقد شكره، ومَن كتمه فقد كفره» تفرد به أبو داود.

وروى أبو داود: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أُعطي عطاء فوَجدَ فليجز به، فإن لم يجد فليُثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومَن كتمه فقد كفره».

وقال مجاهد: يعني: النبوة التي أعطاك ربك. وفي رواية عنه: القرآن.

وعن الحسن بن علي ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: ما عملت من خير فحدِّث إخوانك.

وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمةٍ وكرامة من النبوة، فحدِّث فيها واذكرها، وادع إليها، قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سراً، إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة فصلى.

آخر تفسير سورة الضحى

****

(١) سبق تخريجه.

ترتيبها ٩٤ — سورة ألم نشرح – مكية — آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ⑧﴾

١- يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني: أما شرحنا لك صدرك، أي: نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً، كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ وكما شرح الله صدره، كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً، سهلاً لا حرج فيه، ولا إصر ولا ضيق.

وقيل: المراد بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء، كما رواه مالك بن صعصعة. وقد أورده الترمذي ههنا، وهذا وإن كان واقعاً ليلة الإسراء، كما رواه مالك بن صعصعة، ولكن لا منافاة، فإنَّ من جملة شرح صدره الذي فُعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً، فالله أعلم.

روى عبد الله بن الإمام أحمد: عن محمد عن أبي بن كعب: أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أولُ ما رأيتَ من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة، إني في الصحراء ابنُ عشرِ سنين وأشهر، وإذا بكلامٍ فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحدٍ قط، فأقبلا إليَّ يمشيان حتى أخذَ كل واحدٍ منها بعضُدي، لا أجد لأخذهما مسّاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصرٍ ولا هصْرٍ، فقال أحدهما لصاحبه: افلُق صدره، فهوى أحدُهما إلى صدري فَفَلَقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغِلَّ والحَسد، فأخرج شيئاً كهيئة العَلَقَة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثلُ الذي أخرج يُشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال اغدُ واسلم، فرجعت بها أغدو، رقة على الصغير، ورحمةً للكبير».

٢- وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ بمعنى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

٣- ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الإنقاض: الصوت، وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقلك حمله.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال مجاهد: لا أُذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيبٌ ولا متشهِّدٌ ولا صاحبُ صلاةٍ، إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألتُ ربي مسئلةً وددتُ أني لم أسأله، قلت: كان قبلي أنبياء، منهم من سخَّرتَ له الريح، ومنهم من يُحيي الموتى، قال: يا محمد، ألم أجدكَ يتيماً

فآويتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب».

وحكى البغوي: عن ابن عباس ومجاهد: أن المراد بذلك: الأذان، يعني: ذكره فيه، وأورد من شعر حسان ابن ثابت:

أغرُّ عليه للنُّبوَّة خاتمٌ ... من الله من نور يلوح ويشهدُ
وضمَّ الإله اسم النَّبيِّ إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ
وشقَّ له من اسمه ليُجلَّه ... فذُو العرش محمود وهذا محمد

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوَّه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، أن يؤمنوا به وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته، فلا يذكر الله إلا ذكر معه.

وما أحسن ما قال الصرصري رحمه الله:

لا يصحُّ الأذانُ في الفرضِ إلا ... باسمه العذب في الفم المرضي

٥، ٦- وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكَّد هذا الخبر.

وروى ابن أبي حاتم: عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلب عسرٌ واحدٌ يسرين اثنين.

ومعنى هذا: أن العسر معرَّف في الحالين، فهو مفرد واليسر منكر، فتعدد، ولهذا قيل: لن يغلب عسر يسرين، يعني: قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد.

ومما يروى عن الشافعي أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا ... مَن راقب الله في الأمور نجا
مَن صَدق الله لم ينله أذى ... ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال آخر:

ولرُبَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ... ذَرْعاً وعند الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرجت وكان يظنها لا تفرج

٧، ٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۞ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاةَ بحضرة طعامٍ، ولا هو يدافعه الأخبثان». وقوله ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاةُ وحضَر العَشَاء، فابدؤا بالعشاء»(١).

قال مجاهد في هذه الآية إذا فرغت من أمر الدنيا، فقمت إلى الصلاة، فانصب لربك. وفي رواية عنه: إذا قمت الصلاة فانصب في حاجتك.

وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وعن ابن عياض نحوه. وفي رواية عن ابن مسعود ﴿فَانصَبْ ۞ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس.

---

(١) رواه البخاري في الأطعمة (٩/ ٥٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها. ومن حديث أنس رضي الله عنه.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فإذا فرغت فانصب، يعني: في الدعاء، وقال زيد بن أسلم والضحاك ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾ أي: في العبادة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل.

آخر تفسير سورة الشرح

****

ترتيبها ٩٥ — سُورَةُ والتين والزيتون – مكية — آياتها ٨

عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعتُ أحداً أحسنَ صوتاً أو قراءة منه، أخرجه الجماعة في كتبهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾

١ – ٣– اختلف المفسرون ههنا على أقوال كثيرة، فقيل: المراد بالتين: مسجد دمشق. وقيل: هي نفسها. وقيل: الجبل الذي عندها. وقال القرطبي: هو مسجد أصحاب الكهف، وقال مجاهد: هو تينكم هذا(١).

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون(٢).

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يعني: مكة. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وإبراهيم النخعي وابن زيد وكعب الأحبار، ولا خلاف في ذلك.

وقال بعض الأئمة: هذه محالٌ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار. فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعثَ الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ.

قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء – يعني: الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران – وأشرق من ساعير – يعني: جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى – واستعلن من جبال فاران، يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي، بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما.

٤– وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها.

٥– ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى النار. قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم، ثم

(١)، (٢) وهذا هو الصحيح، وهو ظاهر الآية.

بعد هذا الحُسن والنَّضارة مصيرهم إلى النار، إنْ لم يطع الله ويتبع الرسل.

٦- ولهذا قال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وقال بعضهم ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى أرذل العمر، روي هذا عن ابن عباس وعكرمة، حتى قال عكرمة: من جَمع القرآن، لم يُرد إلى أرذل العمر.

واختار ذلك ابن جرير، ولو كان هذا هو المراد لما حسُن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ◆ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ◆ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، كما تقدم.

٧- ثم قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي: يا ابن آدم ﴿بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي: بالجزاء في المعاد، ولقد علمتَ البداءة، وعرفتَ أن من قَدرَ على البداءة فهو قادرٌ على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرفت هذا؟! روى ابن أبي حاتم: عن منصور قال: قلت لمجاهد ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ عنى به النبيﷺ قال: معاذ الله! عنى به الإنسان. وهكذا قال عكرمة.

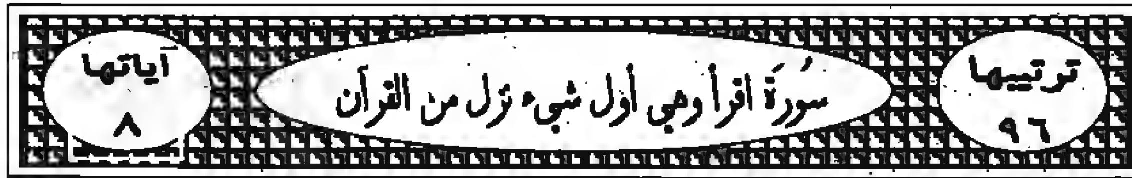
٨- وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: أما هو أحكم الحاكمين؟ الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه.

وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً «فإذا قرأ أحدكم «والتين والزيتون» فأتى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل وأنا على ذلك من الشاهدين»[1].

آخر تفسير سورة التين

****

(١) مضى تخريجه في آخر سورة القيامة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾

روى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: أولُ ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزوَّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فتزوده لمثلها، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: «زملوني، زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، «مالي؟» وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيتُ على نفسي» فقالت له: كلا أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصلُ الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً قد تنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِي، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابنَ أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جَذعاً ليتني أكون حياً حين يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجلٌ قط بما جئت به إلا عُودي، وإنْ أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي وفترَ الوحي فترة. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

١ - ٥ - فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهنَّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمةٍ أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأنَّ من كرمه تعالى: أن علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم، وهو القَدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة.

والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمها من غير عكس.

فلهذا قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وفي الأثر «قَيِّدوا العلم بالكتابة»[1]. وفيه أيضاً: من عمل بما علم، ورَّثه الله علم ما لم يكن يعلم.

---

(١) رواه الحاكم (١/ ١٠٦) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ورواه الخطيب في التاريخ (١٠/ ٤٦) وفي تقييد العلم (ص ٦٩، ٧٠) من حديث أنس ﷺ، وهو صحيح بطرقه، انظر الصحيحة (٢٠٢٦).

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) ﴾

٦ ، ٧- يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله.

٨- ثم تهدَّده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته.

روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله: منهومان لا يشبعان: صاحبُ العلم، وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، قال: ثم قرأ عبد الله ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ وقال للآخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «مَنهومان لا يشبعان: طالبُ علم، وطالب دنيا»[1].

٩ ، ١٠- ثم قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله، توعَّد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت.

١١- فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه، على الطريق المستقيمة في فعله.

١٢- ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته[2].

١٤- ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي، أن الله يراه؟ ويسمع كلامه؟ وسيجازيه على فعله أتم الجزاء.

١٥- ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً: ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من الشّقاق والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنسمنها سواداً يوم القيامة.

١٦- ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يعني: ناصية أبي جهل، كاذبة في مقالها، خاطئة في أفعالها.

١٧- ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصر بهم.

١٨- ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلب: أحزبنا أو حزبه؟!

روى البخاري: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً يصلي عند الكعبة، لأطأنَّ على عُنُقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لئن فعله لأخذتهُ الملائكة». وكذا رواه الترمذي والنسائي في تفسيرهما وابن جرير.

وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير، وهذا لفظه: قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمرَّ به أبو جهل بن هشام، فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعَّده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره،

---

(١) رواه البزار (١٦٣ - زوائد) والطبراني (١١/ ١١٠٩٥) وابن عبد البر في الجامع (٥٨٣) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه، رواه الحاكم (١/ ٩٢) وغيره.

(٢) لم يتكلم الحافظ على آية (١٣) اكتفاء بظهور المعنى مما سبق، والله أعلم.

فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۞ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وقال ابن عباس: لو دعا ناديه، لأخذته ملائكة العذاب من ساعته.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يُصلي عند الكعبة، لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: «لو فعَل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهودَ تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً».

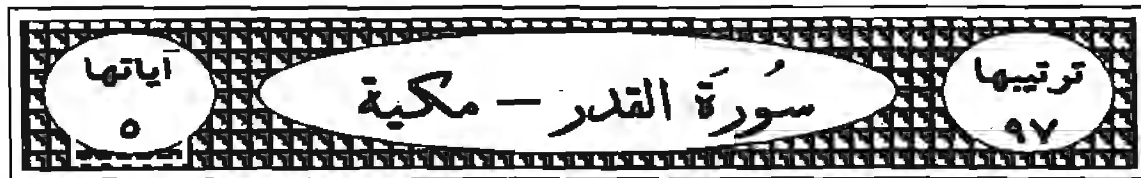
وروى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّرُ محمدٌ وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال فقال: واللات والعُزَّى، لئن رأيته يصلي كذلك، لأطأن على رقبته، ولأعفرنَّ وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة قال: فقال رسول الله: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عُضواً عُضوا» قال: وأنزل الله لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا ﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ إلى آخر السورة، وقد رواه أحمد ابن حنبل ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم.

١٩ - وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يعني: يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه، من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت. ولا تباله، فإنَّ الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾.

كما ثبت في الصحيح عند مسلم: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

آخر تفسير سورة العلق

****



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥ ﴾

١ - يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصّلاً بحسب الوقائع، في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.

٢، ٣- ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن مجاهد: ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر. وهكذا قال قتادة بن دعامة والشافعي وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائي: عملٌ فيها خيرٌ من عمل ألف شهر. وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب لا ما عداه. وهو كقوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خيرٌ من ألف ليلة فيما سواه من المنازل» رواه أحمد.

وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونية صالحة، أنه يُكتب له عمل سنة، أجر صيامها وقيامها (١) إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضرَ رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهرٌ مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تُفتح فيه أبواب الجنة، وتُغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغلُّ فيه الشياطين، فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، مَن حُرم خيرها فقد حُرم» ورواه النسائي.

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه».

٤- وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: يَكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة، لكثرة بركتها، والملائكة يتنزَّلون مع تنزّل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويُحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق، تعظيماً له.

وأما الروح فقيل: المراد به ههنا: جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٨) وابن ماجة (١٠٨٧) من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه ولفظه: «من غسَّل واغتسل، وغدا وابتكر، ودنا من الإمام ولم يلغُ، كان له بكل خطوةٍ عمل سنة، صيامُها وقيامها».

ضرب من الملائكة، كما تقدم في سورة النبأ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال مجاهد: سلامٌ هي من كل أمر. وروى سعيد بن منصور عنه في قوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ قال: سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، أو يعمل فيها أذى. وقال قتادة وغيره: تُقضى فيها الأمور، وتقدَّر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

٥- وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ روى سعيد بن منصور: عن الشعبي قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر.

وروى ابن جرير: عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **(من كل امرئ سلام هي حتى مطع الفجر)**.

وروى أبو داود الطيالسي: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلةُ سابعةٍ أو تاسعةٍ وعشرين، وإنَّ الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى».

وقال قتادة وابن زيد في قوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ يعني: هي خير كلها ليس فيها شرٌّ إلى مطلع الفجر. ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ليلةُ القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهنَّ، فإن الله يغفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر تسعٍ أو سبعٍ أو خامسةٍ أو ثالثةٍ أو آخر ليلة». وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أمارة ليلة القدر، أنها صافيةٌ بلجةٌ كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة ساجية، لا برد فيها ولا حر ولا يحلُّ لكوكبٍ يُرمى به حتى يصبح، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستويةً، ليس لها شعاعٌ مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ».

وروى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلةٌ سمحةٌ طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمسُ صبيحتها ضعيفة حمراء».

وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيتُ ليلة القدر فأُنسيتها، وهي في العشر الأواخر من لياليها، طَلْقة بَلْجة، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً، لا يخرج شيطانها حتى يُضيء فجرها».

(فصل) اختلف العلماء: هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة، أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين، وقال مالك: أنه بلغه: أن رسول الله ﷺ أُري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته، أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر(١).

وقد أسند من وجه آخر، وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقد نقله صاحب العدة أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء، فالله أعلم.

وحكى الخطابي عليه الإجماع، ونقله الرافعي جازماً به عن المذهب.

(فصل) ثم قد قيل: إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان. وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة! وقيل: ليلة تسع عشرة(٢)!

---

(١) وهو بلاغ منقطع.

(٢) وهي أقوال ضعيفة، مخالفة للأحاديث الصحيحة في كونها في العشر الأواخر، كما سيأتي.

وقيل: ليلة إحدى وعشرين: لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك. ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «مَن كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيتُ ليلةَ القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيتُ كأني أسجدُ في طينٍ وماء» وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قَزْعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ، تصديق رؤياه. وفي لفظ: من صبح إحدى وعشرين، أخرجاه في الصحيحين. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات.

وقيل: ليلة ثلاث وعشرين: لحديث عبد الله بن أنيس في صحيح مسلم: وهو قريب السياق من رواية أبي سعد، فالله أعلم.

وقيل: ليلة أربع وعشرين. روى أبو داود الطيالسي: عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «ليلةُ القدر ليلة أربع وعشرين» إسناد رجاله ثقات. وهكذا روي عن ابن مسعود وابن عباس وجابر والحسن وقتادة وعبد الله بن وهب: أنها ليلة أربع وعشرين، وقد تقدم في سورة البقرة حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: «إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين».

وقيل: تكونُ ليلة خمس وعشرين: لما رواه البخاري: عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى» فسَّره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر، وحمله آخرون على الأشفاع، كما رواه مسلم: عن أبي سعيد أنه حمله على ذلك، والله أعلم.

وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين: لما رواه مسلم في صحيحه: عن أبي بن كعب: عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين. روى الإمام أحمد: عن زر سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: من يُقم الحولَ يصب ليلة القدر، قال: يرحمه الله، لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين. ثم حلف، قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة، أو بالآية التي أخبرنا بها: تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها، أعني الشمس.

وقد رواه مسلم: عن أبيّ فذكره فيه: فقال: والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان، يحلف ما يستثني، ووالله إني لأعلم أي ليلة القدر، هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين، وأماراتها أن تطلع الشمس في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين، وهو قول طائفة من السلف، وهو الجادة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً.

وقد حكي عن بعض السلف: أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن، من قوله: ﴿هِيَ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السور، فالله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني: عن عكرمة قال: قال ابن عباس: دعا عمر بن الخطَاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم أو

إني لأظن أي ليلة القدر هي، فقال عمر: أي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضي، أو سابعة تبقى، من العشر الأواخر، فقال عمر: من أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس فقلت: خلق الله سبع سموات وسبع أرضين، وسبعة أيام. وإنَّ الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها. فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له. وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا﴾ الآية. وهذا إسناد جيد قوي، ومتن غريب جداً، فالله أعلم.

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين. وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها في ليلة سابعة، أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى» تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به.

وقيل: إنها تكون في آخر ليلة، لما رواه الترمذي والنسائي: عن أبي بكرة: أن رسول الله ﷺ قال: «في تسعٍ يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاثٍ، أو آخر ليلة»، يعني التمسوا ليلة القدر.

(فصل) قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل، إذا قيل له: أنلتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول: «نعم» وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل. نقله الترمذي عنه بمعناه.

وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر. وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة، نص عليه مالك والثوري وأحمد ابن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبو ثور والمزني وأبو بكر بن خزيمة وغيرهم، وهو محكي عن الشافعي، نقله القاضي عنه، وهو الأشبه، والله أعلم.

وقد يستأنس لهذا القول، بما ثبت في الصحيحين: عن عبد الله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام، في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رُؤياكم قد تَواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحرياً فليتحرها في السبع الأواخر».

وفيهما أيضاً: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» ولفظه للبخاري.

ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل، وأنها معينة من الشهر، بما رواه البخاري في صحيحه: عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتَلاحَى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلانٌ وفلانٌ فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وجه الدلالة منه: أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين، لما حَصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذْ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يقال إنه أنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط.

وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت» فيه استئناسٌ لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة، والعلم النافع، كما جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

وقوله: «فرفعت» أي: رُفع علم تعيينها لكم، لا إنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلةُ الشِّيعة، لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني: عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمةً اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها، فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة.

ولهما: عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان.

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر، أحيَى الليل، وأيقظ أهله، وشدَّ المئزر». أخرجاه.

ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره. وهذا معنى قولها «وشد المئزر» وقيل: المراد بذلك اعتزال النساء، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين، لما رواه الإمام أحمد: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره، واعتزل نساءه. انفرد به أحمد.

وقد حكي عن مالك رحمه الله أن جميع ليالي العشر في تطلّب ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى. رأيته في شرح الرافعي رحمه الله.

والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر.

والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، لما رواه الإمام أحمد: عن عائشة قالت: يا رسول الله، إنْ وافقتُ ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عني» وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

آخر تفسير سورة القدر

****

ترتيبها ٩٨ — سُورَة البينة — مدنية — آياتها ٨

روى الإمام أحمد: عن أبي حبة البدري وهو مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تُقرئها أُبياً، فقال النبيﷺ لأُبي: «إن جبريل أمرني أن أُقرئك هذه السورة» قال أبي: وقد ذُكرتُ ثمَّ يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: فبكى أبي.

(حديث آخر): وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللهﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: وسمَّاني لك؟ قال: «نعم» فبكى. ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(حديث آخر): وروى أحمد: عن أبي بن كعب قال: إن رسول اللهﷺ قال لي: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال: فقرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. قال: فقرأ فيها: (ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأُعطيه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة، ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفر)» ورواه الترمذي.

وإنما قرأ عليه النبيﷺ هذه السورة تثبيتاً له، وزيادة لأيمانه، فإنه كما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي: كان قد أنكر على إنسان - وهو عبد الله بن مسعود - قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول اللهﷺ، فرفعه إلى النبيﷺ فاستقرأهما، وقال لكلٍ منهما: «أصبت» قال أُبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنتُ في الجاهلية، فضرب رسول اللهﷺ في صدره، قال أُبي: ففضتُ عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله فَرَقاً، وأخبره رسول اللهﷺ أن جبريل أتاه، فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حَرف، فقلت أسأل الله معافاته ومغفرته، فقال على حرفين فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف». كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه ولفظه في أول التفسير، فلما نزلت هذه السورة الكريمة، وفيها ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ قرأها عليه رسول اللهﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم.

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول اللهﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوّف به» فلما رجعوا من الحديبية، وأنزل الله على النبيﷺ «سورة الفتح» دعا عمر بن الخطاب فقرأها عليه، وفيها قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ الآية، كما تقدم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾

١- أما أهل الكتاب: فهم اليهود والنصارى، والمشركون: عبدة الأوثان والنيران، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد: لم يكونوا ﴿مُنفَكِّينَ﴾ يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق. وهكذا قال قتادة ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: هذا القرآن.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

٢- ثم فسر البينة بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يعني: محمداً ﷺ، وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مكتتب في الملإ الأعلى، في صحف مطهرة، كقوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ قال ابن جرير: أي: في الصحف المطهرة كتبٌ من كتب الله ﴿قَيِّمَةٌ﴾ عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ، لأنها من عند الله عز وجل. قال قتادة ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويثني عليه بأحسن الثناء. وقال ابن زيد ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة معتدلة.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات، تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيراً.

كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقةً، وإنَّ النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقةً، كلُّها في النار إلا واحدة» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ولهذا قال: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مُتَحَنِّفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي: أشرف عبادات البدن ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي: الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة، على أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾

٦- يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفرة أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسلة، أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها، أي: ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: شر الخليقة التي برأها الله وذرأها.

٧- ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم، بأنهم خير البرية.

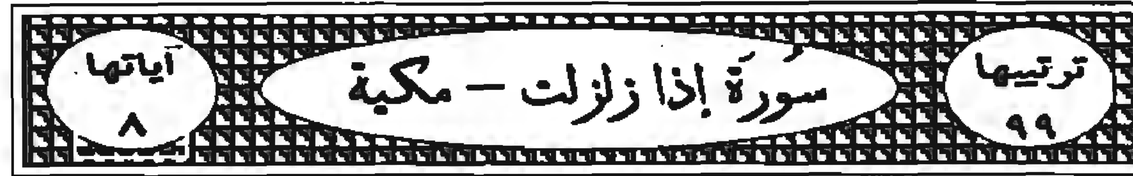
وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة، لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

٨- ثم قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ومقام رضاه عنهم، أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله، واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

آخر تفسير سورة البينة

****



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ۝٨﴾

١- قال ابن عباس ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: تحرَّكت من أسفلها.

٢- ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني: ألقت ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وكقوله: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ وروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تُلْقي الأرضُ أفلاذ كبدها أمثال الأسطُوان من الذهب الفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي، ثم يدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً».

٣- وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ أي: استنكر أمرها، بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أي: تقلَّبت الحالُ فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعدَّه لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار.

٤- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تُحدِّث بما عمل العاملون على ظهرها.

٥- وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ قال البخاري: أوحى لها، وأوحى إليها، وَوَحى لها ووحى إليها واحد. وكذا قال ابن عباس: أوحى لها، أي: أوحى إليها. والظاهر أن هذا مضمّن بمعنى: أذن لها.

وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: قال لها ربُّها: قولي، فقالت. وقال مجاهد: أوحى لها، أي: أمرها. وقال القرطبي: أمرها أن تنشقَّ عنهم.

٦- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً﴾ أي: يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً، أي: أنواعاً، وأصنافاً، ما بين شقي وسعيد، ومأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار. قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً، فلا يجتمعون آخر ما عليهم، وقال السدي: أشتاتاً فرقاً.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا، من خير وشر.

٧، ٨- ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾. روى البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيلُ لثلاثةٍ: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجلٍ وزرٌ، فأما الذي له

أجر: فرجلٌ ربطها في سبيل الله، فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة، كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شَرَفاً أو شَرفَين، كانت آثارُها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنها مرَّت بنهرٍ فشربت منه، ولم يُرد أن يسقي به، كان ذلك حسناتٍ له، فهي لذلك الرجل أجرٌ، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينسَ حقَّ الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له سِتْر، ورجلٌ ربطها فَخراً ورياءً ونِواءً، فهي على ذلك وزر» فسُئل رسول الله ﷺ عن الحُمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً، إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾**» ورواه مسلم.

وفي صحيح البخاري: عن عدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمةٍ طيبة».

وله أيضاً في الصحيح: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تُفرغَ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط».

وفي الصحيح أيضاً: «يا معشر نساء المؤمنات، لا تحقرنَّ جارةٌ لجارتها، ولو فِرسن شاةٍ» يعني: ظِلفها. وفي الحديث الآخر: «ردُّوا السَّائل، ولو بظلفٍ مُحرَّق»(١).

وروى الإمام أحمد: عن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياكِ ومحقَّرات الذنوب، فإنَّ لها من الله طالباً» ورواه النسائي وابن ماجة.

وروى ابن جرير: عن أنس قال: كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾** فرفع أبو بكر يده، وقال: يا رسول الله، إني أُجزى بما عملتُ من مثقال ذرة من شر؟ فقال: «يا أبا بكر، ما رأيتَ في الدنيا مما تكره، فبمثاقيل ذر الشر، ويدَّخر الله لك مثاقيل ذرِّ الخير، حتى توفاه يوم القيامة» ورواه ابن أبي حاتم.

طريق أخرى: روى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾** وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تُخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمةً يُخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾** وذلك لما نزلت هذه الآية **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾** كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك، فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء! إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان آخرون يرون أنهم لا يُلامون على الذنب اليسير، الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يُوشك أن يكثر، وحذَّرهم اليسيرَ من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾** يعني: وزن أصغر النمل **﴿خَيْراً يَرَهُ﴾** يعني في كتابه، ويسره ذلك، قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئةٍ سيئة واحدة، وبكل حسنةٍ عشر حسناتٍ، فإذا كان

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٨١) وأبو داود (١٦٦٧) والترمذي (٦٦٥) من حديث أم بجيد رضي الله عنها بنحوه.

يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً، بكل واحدٍ عشراً، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة، دخل الجنة.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومُحقَّرات الذنوب، فإنهن يَجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه» وأن رسول الله ﷺ ضَرب لهن مثلاً: كمثل قوم نَزلوا أرضَ فلاةٍ، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرجل يَنطلق فَيَجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأجَّجوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها».

آخر تفسير سورة الزلزلة

****

ترتيبها ١٠٠ سورة العاديات - مكية آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾

١- يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله، فَعَدت وَضَبحت، وهو الصوت الذي يُسمع من الفرس حين تَعدو.

٢- ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ يعني: اصطكاك نعالها للصخر، فتقدح منه النار.

٣- ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يُغير صباحاً، ويستمع الأذان، فإنْ سمع أذاناً وإلا أغار.

٤- وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ يعني: غباراً في مكان مُعترك الخيول ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ أي: أوسطن ذلك المكان كلهن جمع.

روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ قال: الإبل. وقال علي: هي الإبل.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن ابن عباس حدثه قال: بينا أنا في الحِجر جالساً جاءني رجل فسألني عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم ويورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى علي رضي الله عنه وهو عند سقاية زمزم، فسأله عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقف على رأسه قال: أتفتي الناس بما لا علم لك؟ والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه.

وقال العوفي وغيره عن ابن عباس: هي الخيل. وقد قال بقول علي: إنها الإبل، جماعة منهم إبراهيم وعبيد بن عمير، وقال بقول ابن عباس آخرون، منهم مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والضحاك، واختاره ابن جرير، وقال ابن عباس وعطاء: ما ضبحت دابةٌ قط إلا فرس أو كلب. وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح: أح أح، وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ يعني: بحوافرها. وقيل: أسعرت الحرب بين ركبانهن، قاله قتادة. وقال من فسرها بالخير: هو إيقاد النار بالمزدلفة.

وقال ابن جرير: والصواب الأول: أنها الخيل حين تقدح بحوافرها.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني إغارة الخيل صُبحاً في سبيل

الله. وقال من فسَّرها بالإبل: هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى.

وقالوا كلهم في قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ وهو المكان الذي حلَّت فيه أثارت به الغبار، إما في حج أو غزو.

٥- وقوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ قال العوفي عن ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك، يعني: جمع الكفار من العدو. ويحتمل أن يكون: فوسطن بذلك المكان جميعهن، ويكون ﴿جَمْعًا﴾ منصوباً على الحال المؤكدة.

٦- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هذا هو المُقسم عليه بمعنى: أنه بنعم ربِّه لكفورٌ جحود، قال ابن عباس ومجاهد وإبراهيم النخعي وأبو الجوزاء وأبو العالية وأبو الضحى وسعيد بن جبير ومحمد بن قيس والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الكنود: الكفور.

قال الحسن: الكنود هو الذي يَعدُّ المصائب، وينسى نعم الله عليه.

وعن أبي أمامة قال: «الكنود: الذي يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفده» رواه ابن جرير.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري: وإن الله على ذلك لشهيد. ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظي.

فيكون تقديره: وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي: بلسان حاله، أي: ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾.

٨- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: وإنه لحب الخير، وهو المال لشديد. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل من محبة المال. وكلاهما صحيح.

٩- ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أخرج ما فيها من الأموات.

١٠- ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني أبرز وأظهر، ما كانوا يسرون في نفوسهم.

١١- ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء، ولا يظلم مثقال ذرة.

آخر تفسير سورة العاديات

****

ترتيبها ١٠١ — سورة القارعة – مكية — آياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾

١، ٢- القارعة من أسماء القيامة، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك.

٣- ثم قال تعالى معظماً أمرها، ومهولاً لشأنها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

٤- ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي: في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومجيئهم، من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم فراش مبثوث، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ يعني: قد صارت كأنها الصوف المنفوش، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق، قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والضحاك والسدي: ﴿الْعِهْنِ﴾ الصوف.

٦، ٧- ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ يعني: في الجنة.

٨- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته.

٩- وقوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ قيل معناه: فهو ساقطٌ هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم. وعبَّر عنه بأمه يعني: دماغه. روي نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح وقتادة، قال قتادة: يهوى في النار على رأسه. وكذا قال أبو صالح: يهوون في النار على رءوسهم.

وقيل معناه: فأمه التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها، هاوية وهي اسم من أسماء النار.

قال ابن جرير: وإنما قيل للهاوية أمه، لأنه لا مأوى له غيرها. وقال ابن زيد: الهاوية النار التي هي أمه، ومأواه التي يرجع إليها، ويأوى إليها، وقرأ: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن قتادة أنه قال: هي النار وهي مأواهم.

١٠- ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

روى ابن جرير: عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال: إذا مات المؤمن ذُهب بروحه إلى أرواح المؤمنين،

فيقولون: روّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا، قال: ويسألونه: ما فعل فلان؟ فيقول: مات، أوما جاءكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية. وقد رواه ابن مردويه: من طريق أنس بن مالك مرفوعاً بأبسط من هذا، وقد أوردناه في «كتاب صفة النار» أجارنا الله منها بمنه وكرمه.

١١- وقوله تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير. روى مالك: عن أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «نارُ بني آدم التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فُضّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً» ورواه البخاري ومسلم.

وفي بعض ألفاظه: «أنها فُضلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كلهن مثل حرِّها».

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبيﷺ: «إنَّ ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضُربت بالبحر مرتين، ولو ذلك ما جعل الله فيها منفعةً لأحدٍ» وهذا على شرط الصحيحين، ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وجاء في الحديث عند الإمام أحمد: عن أنس وعن أبي هريرة عن النبيﷺ أنه قال: «إنَّ أهونَ أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه».

وثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ قال: «اشتكت النارُ إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذِن لها بنفسين: نفسٌ في الشتاء، ونفسٌ في الصيف، فأشدّ ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرِّها».

وفي الصحيحين: «إذا اشتدَّ الحرُّ فأبردوا عن الصلاة، فإنَّ شدَّة الحرِّ من فيح جهنم».

آخر تفسير سورة القارعة

****

ترتيبها ١٠٢	سورة التكاثر – مكية	آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾

١ ، ٢- يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها.

وفي صحيح البخاري في الرقاق منه: عن أنس بن مالك: عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب».

وروى الإمام أحمد: عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيتَ؟» ورواه مسلم والترمذي والنسائي.

وروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبدُ مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكلَ فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدَّق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وروى البخاري: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتبع الميت ثلاثةٌ، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد: يتبعه أهلهُ ومالُه وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله» وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد: عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «يهرمُ ابنُ آدم ويبقى منه اثنتان: الحرص والأمل» أخرجاه في الصحيحين.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة: الأحنف بن قيس، واسمه الضحاك أنه: رأى في يد رجل درهماً، فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر.

ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقته فالمال لك

وقال قتادة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم.

والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها، ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «لا بأس، طهورٌ إن شاء الله» فقال: قلت طهور! بل

هي حمى تفور، على شيخٍ كبير، تُزيره القبور، قال: «فنعم إذن».

وروى ابن أبي حاتم: عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۞ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فلبث هنيهة، ثم قال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌ من أن يرجع إلى منزله. قال أبو محمد: يعني أن يرجع إلى منزله، أي: إلى جنة أو إلى نار.

وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فقال: بُعث القوم ورب الكعبة. أي إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره.

٣، ٤- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال الحسن البصري: هذا وعيدٌ بعد وعيد. وقال الضحاك ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: الكفار ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أيها المؤمنون.

٥- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو علمتم حقَّ العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر.

٦، ٧- ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ توعَّدهم بهذا الحال، وهو رؤية أهل النار، التي إذا زَفَرت زَفرةً واحدة، خرَّ كل مَلَك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة، ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

٨- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي: ثم لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وروى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا أبو بكر وعمر جالسان، إذْ جاءهم النبي ﷺ فقال: «ما أجلسكما ههنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، قال: «والذي بعثني بالحق، ما أخرجني غيره» فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته، فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلَّق قربته بقرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: «ألا كنتَ اجتنيتَ» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة فقال له النبي ﷺ: «إياك والحَلوب» فذبح لهم يومئذ فأكلوا، فقال النبي ﷺ: «لتُسئلُنَّ عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم» ورواه مسلم، وقد رواه أهل السنن الأربعة بنحو من هذا السياق وهذه القصة.

وروى الإمام أحمد: عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم نُسئل؟ وإنما هما الأسودان: الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نُسئل؟ قال: «أما إنَّ ذلك سيكون».

روى أحمد: عن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن أبيه عن عمه قال: كنا في مجلسٍ فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا يا رسول الله، نراك طيب النفس قال: «أجل» قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خيرٌ من الغِنى، وطيبُ النفس من النعيم» ورواه ابن ماجة.

وروى الترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: «إنَّ أوَّل ما يُسئل عنه - يعني يوم القيامة - العبدُ من النَّعِيم أن يقال له: أم نُصحَّ لك بدنَك، ونُرْوِكَ من الماء البارد» تفرد به الترمذي ورواه ابن حبان في صحيحه.

وقال سعيد بن جبير حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا، وقال الحسن البصري: من النعيم الغداء والعشاء. وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. و قول مجاهد أشمل هذه الأقوال.

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النعيم صحةُ الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

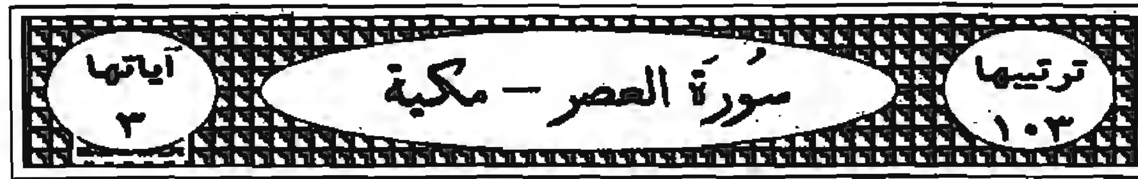
وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة: من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مَغْبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفَرَاغ».

ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا ابن آدم، حَملتُك على الخَيل، والإبل، وزوَّجتك النساء، وجعلتُك تربع وترأس، فأين شكر ذلك؟!»

آخر تفسير سورة التكاثر

****



روى الطبراني : عن عبد الله بن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا ، لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر «سورة العصر» إلى آخرها ، ثم يُسلِّم أحدهما على الآخر.

وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبَّر الناسُ هذه السورة لوسعتهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾

١ ، ٢- العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم ، من خير وشر.

وقال مالك عن زيد بن أسلم : هو العصر.

والمشهور الأول ، فأقسم تعالى بذلك ، على أن الإنسان لفي خُسرٍ ، أي : في خسارة وهلاك.

٣- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران : الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي : على المصائب والأقدار ، وأذى من يُؤذي ، ممن يأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر.

آخر تفسير سورة العصر

****

ترتيبها ١٠٤ — سُورَةُ الهمزة – مكية — آياتها ٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي
الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا
عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾

١ – الهمَّاز بالقول، واللمَّاز بالفعل، يعني: يَزدري الناس وينتقص بهم، وقد تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: **﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾**. قال ابن عباس: **﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾**: طعَّان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه. وقال قتادة: الهمزة واللمزة لسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعن عليهم. وقال مجاهد: الهمزة باليد والعين واللمزة باللسان. وهكذا قال ابن زيد. وقال مالك عن زيد بن أسلم همزة لحوم الناس، ثم قال بعضهم: المراد بذلك: الأخنس بن شريق. وقيل: غيره، وقال مجاهد: هي عامَّة.

٢– وقوله تعالى: **﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾** أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده، كقوله تعالى: **﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾** قاله السدي وابن جرير، وقال محمد بن كعب في قوله: **﴿جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾** ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة.

٣– وقوله تعالى: **﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾** أي: يظن أن جمعه المال، يخلده في هذه الدار.

٤– **﴿كَلَّا﴾** أي: ليس الأمر كما زعم، ولا كما حسب. ثم قال تعالى: **﴿لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾** أي: ليلقينَّ هذا الذي جمع مالاً فعدده في الحطمة، وهي اسم طبقة من أسماء النار، لأنها تحطم من فيها.

٥ – ٧– ولهذا قال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ❁ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ❁ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾** قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء. ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي.

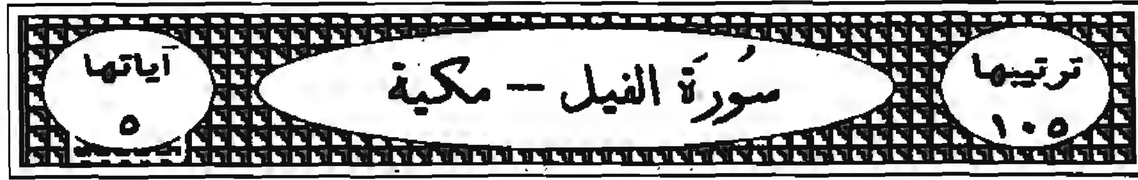
وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه، ترجع على جسده.

٨– وقوله تعالى: **﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾** أي: مطبقة، كما تقدم تفسيره في سورة البلد.

٩– وقوله تعالى: **﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾** قال عطية العوفي: عمد من حديد، وقال السدي: من نار. وعن عكرمة عن ابن عباس **﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾** يعني: الأبواب هي الممددة، وقال قتادة: في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ❁ بِعَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾. وقال العوفي عن ابن عباس: أدخلهم في عمدٍ فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب. وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار، واختاره ابن جرير، وقال أبو صالح **﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾** يعني: القيود الثقال.

آخر تفسير سورة الهمزة

****



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

١ – ٤– هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عَزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيَّب سعيهم، وأضلَّ عملهم، وردَّهم بشرٍّ خيبةٍ، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد، على أشهر الأقوال ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره، ببعثه النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء.

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود أن ذا نُواس – وكان آخر ملوك حمير وكان مشركاً – وهو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانياً، فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم، في جيش كثيف فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذا نواس غريقاً في البحر، واستقلَّ الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطلام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك، فأجابه إلى ذلك فتبارزا وخَلْف كل واحدٍ منهما قناة، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عَتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً فداوى جرحه فبرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن، فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجز ناصيته، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، ويبعث مع رسوله بهدايا وتحف، وبجراب فيه من تراب اليمن وجز ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجواب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه، وأقره على عمله، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن، لم يُبن قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب «القُلَّيس» لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك

غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها، وكرَّ راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً.

وذكر مقاتل بن سليمان: أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك وصار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة، لم يُر مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال، وقيل: اثناعشر فيلاً غيره، فالله أعلم. يعني ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، وما يريده من هدمه وخرابه، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم، لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله، ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز.

فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم، الذي يسمونه «اللات» فأكرمهم وبعثوا معه أبا رغال دليلاً، فلما انتهى أبرهة إلى «المُغَمس» وهو قريب من مكة، نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: الأسود بن مقصود، فهجاه بعض العرب – فيما ذكره ابن إسحاق – وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشراف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلى بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه فذهب معه فلما رآه أبرهة أجلَّه، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي، أنْ يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك، ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رءوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب، وهو آخذٌ بحلقة باب

الكعبة:

لاهُمَّ إنَّ المَرءَ يمـ ❖ ـنع رحله فامنعْ رحالك

لا يغلبنَّ صليبهم ❖ ومحالُهم أبداً محالك

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال. وذكر عن ابن سليمان: أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق، فينتقم الله منهم، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وكان اسمه: محموداً، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بأذنه، وقال: ابرك محمود، وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقة فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجرٌ في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا يصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أينَ المفرُّ والإله الطَّالبُ ❖ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال عطاء بن يسار وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم.

وقال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. وذكر مقاتل بن سليمان: أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة. قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رأيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي به مرائر الشجر: الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام. وهكذا روي عن عكرمة من طريق جيد.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يَعد به على قريش من نعمته عليهم و فضله، ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ◆ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ◆ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ◆ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ◆ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ◆ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ◆ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ◆ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾**

أي: لئلا يغيِّر شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه.

قال ابن هشام: الأبابيل: الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل، فأخبرني يونس

النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال وذكر بعض المفسرين: أنهما كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو: سَنج وجل، يعني بالسنج: الحجر، والجِل: الطين، يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصف: ورق الزرع الذي لم يُقضب، واحدته عصفة. انتهى ما ذكره.

وعن عبد الله ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: الفرق. وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل شتى، متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا، ومن ههنا، أتتهم من كل مكان. وقال الكسائي: سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل إبيل.

وروى ابن جرير: عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ هي: الأقاطيع، كالإبل المؤبلة.

وروي عن ابن سيرين عن ابن عباس ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وروي عن عكرمة قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها رءوس كرءوس السباع، وروي عن عبيد بن عمير قال: هي طيور سود بحرية، في منافيرها وأظافيرها الحجارة. وهذه أسانيد صحيحة.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبيد بن عمير قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار: حجرين في رجليه، وحجراً في منقاره، قال: فجاءت حتَّى صفَّت على رءوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجرٌ على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة، فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً.

٥- وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: التبن، الذي تسميه العامة هبور. وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة، وعنه أيضاً: العصف التبن. والمأكول: القصيل يجز للدواب. وكذلك قال الحسن البصري، وعن ابن عباس: العصف: القشرة، التي على الحبة كالغلاف على الحنطة.

وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته فصار دريناً.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمَّرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدره عن قلبه، حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم ثم مات. فملك بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة. ثم خرج سيف ابن ذي يزن الحميري إلى كسرى، فاستعانه على الحبشة، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه، فردَّ الله إليهم مُلكهم، وما كان في آبائهم من الملك، وجاءته وفود العرب بالتهنئة.

وقد روى محمد بن إسحاق: عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة، أعميين مقعدين يستطعمان. ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب، فيما كان من قصة أصحاب الفيل، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبعري:

تنكَّلوا عن بطن مكة إنها		كانت قديماً لا يُرام حريمها
لم تُخلق الشِّعري ليالي حُرِّمت		إذْ لا عزيزَ من الأنام يَرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى		فلسوف يُنبي الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يَؤُوبوا أرضَهم		بل لم يعش بعد الإياب سَقيمها
كانت بها عادٌ وجُرهم قبلهم		والله من فوق العباد يُقيمها

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح: أن رسول الله ﷺ لما أطلَّ يوم الحديبية على الثنية التي تهبط على قريش، بركت ناقته فزجروها فألَحَّت، فقالوا: خلأت القصواء، أي: حَرنت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليومَ خطةً يعظِّمون فيها حُرمات الله، إلا أجبتهم إليها» ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخاري.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إنَّ الله حَبس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسولَه والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرمتها اليوم كحُرمتها بالأمس، ألا فليُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ».

آخر تفسير سورة الفيل

****

ترتيبها ١٠٦ — سورة قريش – مكية — آياتها ٤

ذكر حديث غريب في فضلها: روى البيهقي في كتاب الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: «فضَّل اللهُ قُريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة، والسقاية فيهم، وأن الله نَصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن، ثم تلا رسول الله ﷺ: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ◆ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ◆ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ◆ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ◆ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾**.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾

١- هذه السورة مفصولة من التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله **﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾** أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.

وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكَّان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم. وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾** ولهذا قال تعالى: **﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ◆ إِيلَافِهِمْ﴾** بدل من الأول ومفسر له.

٢- ولهذا قال تعالى: **﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾** وقال ابن جرير: الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش، ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان.

٣- ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة، فقال: **﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾** أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرَماً آمناً، وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾**.

٤- وقوله تعالى: **﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾** أي: هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع **﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾** أي: تفضّل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً.

ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جَمَع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما

قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ .

آخر تفسير سورة قريش

****

ترتيبها ١٠٧ — سورة الماعون – مكية — آياتها ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أرأيتَ الَّذي يُكذِّبُ بالدّينِ ① فذلكَ الَّذي يدُعُّ اليتيمَ ② ولا يحُضُّ علىٰ طعامِ المِسكينِ
③ فويلٌ لِّلمُصلّينَ ④ الَّذينَ هُمْ عن صلاتِهمْ ساهُونَ ⑤ الَّذينَ هُمْ يُراءُونَ ⑥ ويمنَعونَ
الماعُونَ ⑦ ﴾

١- يقول تعالى: أرأيت يا محمد، الذي يكذّب بالدين، وهو: المعاد والجزاء والثواب.

٢- ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: هو الذي يقهر اليتيم، ويظلمه حقه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه.

٣- ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني: الفقير، الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته.

٤، ٥- ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني: المنافقين، الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ الذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى.

وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون.

وإما عن وقتها الأول، فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسطٌ من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم له نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي.

كما ثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرَ أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

فهذا آخر صلاة العصر، التي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» ولعله إنما حمله على القيام إليها، مراآة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصل بالكلية. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٦- وقال تعالى ههنا: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾. روى الإمام أحمد: عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول اللهﷺ: «من سمّع الناسَ بعمله، سمّع اللهُ به سامع خلقه، وحقّره وصغّره».

ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أن من عمل عملاً لله، فاطّلع عليه الناس فأعجبه ذلك، أنَّ هذا لا يعد رياءً، والدليل على ذلك ما رواه أبو يعلى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدخل عليَّ رجل فأعجبني ذلك، فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «كُتبَ لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية»[1].

قلت: وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً، وتأخيرها عن أول الوقت.

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى: عن مصعب عن أبيه موقوفاً: لهواً عنها، حتى ضاع الوقت.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به، ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات، أولى وأولى، وقد قال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال علي: الماعون الزكاة.

وكذا روي من غير وجه عن ابن عمر، وبه يقول محمد بن الحنفية وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وعطاء وعطية العوفي والزهري والحسن وقتادة والضحاك وابن زيد. وقال الحسن البصري: إنْ صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله، وفي لفظ: صدقة ماله.

وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون، ظهرت الصلاة فصلوها، وخفيت الزكاة فمنعوها.

وسئل عبد الله بن مسعود عن «الماعون» فقال: هو ما يتعاوره الناس بينهم، من الفأس والقدر. وروى ابن جرير: عن عبد الله قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدَّث أن «الماعون» الدلو والفأس والقدر، لا يستغنى عنهن.

وقد رواه أبو داود والنسائي بإسناده نحوه، ولفظ النسائي: عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ: عارية الدلو والقدر.

وعن ابن عباس ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعني: متاع البيت وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وأبو مالك وغير واحد، أنها العارية للأمتعة.

وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال، وأدناه المنخل والدلو والإبرة. رواه ابن أبي حاتم.

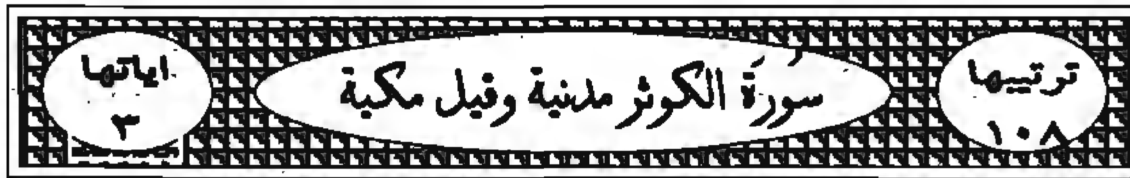
وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو: ترك المعاونة بمالٍ أو منفعة. ولهذا قال محمد بن كعب ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: المعروف.

ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة». وروى ابن أبي حاتم عن الزهري ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: بلسان قريش المال.

آخر تفسير سورة الماعون

****

(١) الحديث ضعيف. ويغني عنه: حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بُشرى المؤمن» رواه مسلم (٤/ ٢٠٣٤).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣) ﴾

روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً - إما قال لهم وإما قالوا له -: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة» فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❁ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها فقال: «هل تدرون ما الكوثر؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خيرٌ كثير، تَرد عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُه عَدَد الكواكب، يُخْتلجُ العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة: أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأن آنيته عدد نجوم السماء، وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي.

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

١ - فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث: أنه نهر في الجنة، وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى: عن أنس أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ الكوثر، فإذا هو نهرٌ يجري ولم يشق شقاً، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مِسكٌ أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ».

وروى البخاري في صحيحه ومسلم: عن أنس بن مالك قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء، قال: «أتيت على نهرٍ حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». وهو لفظ البخاري رحمه الله.

وروى ابن جرير: عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهرٌ أعطانيه الله تعالى في الجنة، ترابه مسكٌ، أبيضُ من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طيرٌ أعناقها مثل أعناق الجزر»، قال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة، قال: «أكلها أنعم منها».

وروى البخاري: عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: نهرٌ أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوَّف، آنيته كعدد النجوم.

ثم روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة، من الخير الذي أعطاه الله إياه.

وهذا التفسير يعني: النهر وغيره، لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر، كما قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحارب بن دثار والحسن بن أبي الحسن البصري، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة.

وقد صحَّ عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً: فروى ابن جرير: عن ابن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل.

وروى ابن جرير: عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل. وكذا رواه الترمذي.

وقد روي مرفوعاً، فروى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل» وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن جرير.

وروى ابن جرير: عن عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق والله، إنه للخير الكثير، ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، يجري على الدر والياقوت».

وقد صحَّ أصل هذا، بل قد تواتر من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض. وهكذا روي عن أنس وأبي العالية ومجاهد، وغير واحد من السلف: أن الكوثر نهر في الجنة، وقال عطاء: هو حوض في الجنة.

٢- وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن: يعني بذلك: نحر البدن ونحوها، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب القرظي والضحاك والربيع وعطاء الخراساني والحكم وسعيد بن أبي خالد، وغير واحد من السلف، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الآية، وقيل المراد بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر! يُروى هذا عن علي ولا يصح، وعن الشعبي مثله، وعن أبي جعفر الباقر ﴿وَٱنْحَرْ﴾ يعني: رفع اليدين عند افتتاح الصلاة وقيل: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: استقبل بنحرك القبلة. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وعن عطاء الخراساني ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل، وابرز نحرك، يعني به الاعتدال. رواه ابن أبي حاتم.

وكل هذه الأقوال غريبة جداً، والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر: ذبح المناسك، ولهذا كان

رسول اللهﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه، ويقول: «من صلَّى صلاتنا، ونَسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فلا نسك له» فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفتُ أن اليوم يومٌ يشتهى فيه اللحم، قال: «شاتك شاة لحم» قال: فإن عندي عَناقاً هي أحبُّ إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزئ أحداً بعدك».

قال أبو جعفر ابن جرير: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك، خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفء له، وخصك به. وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظي وعطاء.

٣- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق، والبرهان الساطع، والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل، المنقطع ذكره، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وقتادة: نزلت في العاص بن وائل.

وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول اللهﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة. وقال شمر بن عطية: نزلت في عقبة ابن أبي معيط، وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف، وجماعة من كفار قريش.

وروى البزار: عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا المصنبر المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خيرٌ منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه قال: فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ هكذا رواه البزار، وهو إسناد صحيح.

وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وعنه: إن شانئك: يعني عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف بذلك، ممن ذكر وغيرهم.

وقال عكرمة: الأبتر الفرد، وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل، قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول اللهﷺ قالوا: بتر، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وهذا يرجع إلى ما قلناه، من أن الأبتر: الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد، وأوجبَ شَرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

آخر تفسير سورة الكوثر

****

ترتيبها ١٠٩ — سُورَةُ الكافرون – مكية — اياتها ٦

ثبت في صحيح مسلم: عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ «قل هو الله أحد» في ركعتي الطواف.

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب، بضعاً وعشرين مرة، أو بضع عشرة مرة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.

وروى أحمد أيضاً: عن ابن عمر قال: رَمقتُ النبي ﷺ أربعاً وعشرين، أو خمساً وعشرين مرة، يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب، بـ «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد». وكذا رواه الترمذي وابن ماجة.

وقد تقدم في الحديث: أنها تعدل ربع القرآن[1].

وروى الإمام أحمد: عن فروة بن نوفل هو ابن معاوية عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال له: «هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟» قال: أراها زينب. قال: ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنها قال: «ما فعلت الجارية؟» قال: تركتها عند أمها، قال: «فمجيءٌ ما جاء بك» قال: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «اقرأ قل يا أيها الكافرون، ثم نم على خاتمتها، فإنها براءةٌ من الشِّرك». تفرد به أحمد، ورواه أبو القاسم الطبراني.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

١- هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة.

٢- وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: من الأصنام والأنداد.

٣- ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهو الله وحده لا شريك له فـ «ما» ههنا بمعنى «من».

٤- ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه.

٥- ولهذا قال: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: لا تقتدون بأوامر الله، وشرعه في عبادته، بل قد

(١) رواه الترمذي (٣٠٧١) في فضائل القرآن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول ﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله، عبادةً لم يأذن بها الله.

٦- ولهذا قال لهم الرسول ﷺ ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ كما قال تعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ وقال: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾.

وقال البخاري: يقال ﴿لكم دينكم﴾ الكفر ﴿ولي دين﴾ الإسلام، ولم يقل ديني، لأن الآيات بالنون فحذف الياء، كما قال: ﴿فهو يهدين﴾ ﴿ويسقين﴾ وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن، ولا أجيبكم فيما بقي من عمري، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ انتهى ما ذكره.

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية: أن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً ۝ إن مع العسر يسراً﴾ وكقوله: ﴿لترون الجحيم ۝ ثم لترونها عين اليقين﴾ وحكاه بعضهم كابن الجوزي وغيره عن ابن قتيبة، فالله أعلم.

فهذه ثلاثة أقوال: أولها: ما ذكرناه أولاً.

الثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿لا أعبد ما تعبدون ۝ ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الماضي ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ۝ ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في المستقبل. الثالث: أن ذلك تأكيد محض.

وثم قول رابع: نصره أبو العباس ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ نفي الفعل، لأنها جملة فعلية ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه: نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قولٌ حسن أيضاً، والله أعلم.

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة، فورث اليهود من النصارى، وبالعكس، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به، لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان.

وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه: إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»[1].

آخر تفسير سورة الكافرون

****

(١) رواه أبو داود (٢٩١١) والترمذي (٢٢٠٦) وابن ماجة (٢٧٣١).

ترتيبها ١١٠ — سُورَةُ النصر – مدنية — آياتها ٣

روى النسائي: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورةٍ من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت[1].

وروى الحافظ البيهقي: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «إنه قد نُعيت إليَّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نُعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري، فإنك أولُ أهلي لحاقاً بي» فضحكت. وقد رواه النسائي كما سيأتي، بدون ذكر فاطمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾

١، ٢- روى البخاري: عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لم تُدخل هذا معنا، ولنا أبناءٌ مثلُه، ؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا، وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخاري. وروى ابن جرير مثل هذه القصة أو نحوها.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: رسول الله ﷺ: «نُعيتْ إليَّ نفسي» بأنه مقبوض في تلك السنة. تفرد به أحمد. وروى العوفي عن ابن عباس مثله. وهكذا قال مجاهد وأبو العالية والضحاك وغير واحد: أنها أجلُ رسول الله ﷺ نُعي إليه.

وروى الطبراني: عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة، قال: نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت. قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتحُ ونصر الله، وجاء أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قومٌ رقيقةٌ قلوبهم، لينةٌ طباعهم، الإيمان يَمان، والفقه يَمان».

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن أبي سعيد الخدري أنه قال: لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها، فقال: «الناس حين، وأنا وأصحابي حين» وقال: «لا هجرة بعد

---

(١) قد رواه مسلم في صحيحه في التفسير (٤/ ٢٣١٨)!

الفتح، ولكن جهاد ونية» فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رأيا ذلك قالا: صدق. تفرد به أحمد.

وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد، ليس بمنكر، فقد ثبت من رواية ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استُنفرتم فانفروا» أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، فالذي فسَّر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه: قد أُمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون، أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني: نصلي له ونستغفره، معنى مليح صحيح.

وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمان ركعات. فقال قائلون: هي صلاة الضحى، وأُجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها، فكيف صلاها ذلك اليوم، وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة بمكة؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان، قريباً من تسع عشرة يوماً يقصر الصلاة، ويفطر هو وجميع الجيش، وكانوا نحواً من عشرة الاف.

قال هؤلاء: وإنما كانت صلاة الفتح. قالوا: فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً، أن يصلي فيه أول ما يدخله ثمان ركعات، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، ثم قال بعضهم: يصليها كلها بتسليمة واحدة، والصحيح: أنه يسلم من كل ركعتين، كما ورد في سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يسلِّم يوم الفتح من كل ركعتين.

وأما ما فسَّر به ابن عباس وعمر رضي الله تعالى عنهما، من أن هذه السورة نُعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة، وأُعلم أنك إذا فتحت مكة - وهي قريتك التي أخرجتك - ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا، والوفود إلينا، فالآخرة خيرٌ لك من الدنيا، ولسوف يُعطيك ربك فترضى.

٣- ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ روى البخاري: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يُكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» وقال: «إنَّ ربي كان أخبرني أني سأرى علامةً في أمتي، وأمرني إذا رأيتُها أن أسبِّح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾» ورواه مسلم.

وروى ابن جرير: عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت: يا رسول الله، رأيتك تُكثر من سبحان الله وبحمده، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد، إلا قلت: سبحان الله وبحمده، قال: «إني أمرتُ بها، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة.

وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه، في جزء مفرد فيكتب ههنا.

والمراد بالفتح ههنا: فتح مكة، قولاً واحداً، فإنَّ أحياء العرب كانت تتلو بإسلامها فتح مكة، يقولون: إنْ ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتحَ الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان، حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة.

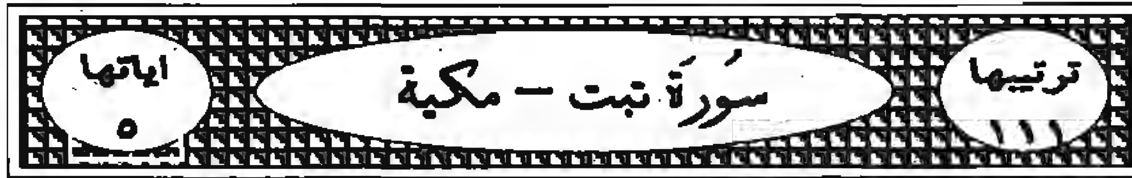
وقد روى البخاري في صحيحه: عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلو بإسلامها فتح مكة يقولون: دَعُوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي، الحديث.

وقد حررنا غزوة الفتح في كتابنا «السيرة» فمن أراد فليراجعه هناك، ولله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة النصر

****

سُورَةُ تبت – مكية
ترتيبها ١١١ — آياتها ٥



﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

روى البخاري: عن ابن عباس: أن النبيﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك، فأنزل الله **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** إلى آخرها.

وفي رواية: فقام ينفض يديه، وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾**.

الأول: دعاء عليه، والثاني: خبر عنه.

فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول اللهﷺ، واسمه عبد العزى ابن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول اللهﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد، من بني الديل - وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيتُ النبيﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجلٌ وضيءٌ الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب. قال أبو الزناد قلت لربيعة: كنت يومئذ صغيراً؟ قال: لا والله، إني يومئذ لأعقل أني أزفر القربة، تفرد به أحمد. ورواه محمد بن إسحاق بنحوه.

١- فقوله تعالى: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾** أي: خسر وخاب، وضل عمله وسعيه **﴿وَتَبَّ﴾** أي: وقد تبَّ تحققُ خسارته وهلاكه.

٢- وقوله تعالى: **﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾** قال ابن عباس وغيره **﴿وَمَا كَسَبَ﴾** يعني: ولده، وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله، وذكر عن ابن مسعود: أن رسول اللهﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: **﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾**.

٣- وقوله تعالى: **﴿سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾** أي: ذات شرر ولهب، وإحراق شديد.

٤- **﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾** وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي أم جميل، واسمها أروى

بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره، وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم.

ولهذا قال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مهيأةٌ لذلك مستعدة له.

٥- ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ قال مجاهد وعروة: من مسد النار. وعن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والثوري والسدي: حمالة الحطب، كانت تمشي بالنميمة، واختاره ابن جرير.

وقال العوفي عن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ.

قال ابن جرير: كانت تعير النبي ﷺ بالفقر وكانت تحتطب، فعيرت بذلك. كذا حكاه ولم يعزه إلى أحد، والصحيح الأول، والله أعلم.

وروى ابن جرير: عن الشعبي قال: المسد الليف. وقال عروة بن الزبير: المسد سلسلة، ذرعها سبعون ذراعاً. وعن الثوري: هو قلادة من نار، طولها سبعون ذراعاً. وقال الجوهري: المسد الليف، والمسد أيضاً: حبل من ليف أو خوص، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومسدت الحبل أمسده مسداً، إذا أجدت فتله.

وقال مجاهد ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً؟

وروى ابن أبي حاتم: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فِهر، وهي تقول:

مُذمَّماً أبينا　　ودينه قَلينـا　　وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد معه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أُخبرتُ أنَّ صاحبَك هَجاني! قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولَّت وهي تقول قد علمت قريش أني ابنة سيدها. قال: فعثرت أم جميل في مرطها، وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم! فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحصانٌ فما أكلم، وثَقَاف فما أعلم، وكلتانا من بني العم، وقريش بعد أعلم. ورواه الحافظ أبو بكر البزار بنحوه.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء، وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما، لا باطناً ولا ظاهراً، لا مُسِراً ولا مُعلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة، على النبوة الظاهرة.

آخر تفسير سورة المسد

****

ترتيبها ١١٢ — سُورَةُ الإخلاص – مكية — آياتها ٥

(ذكر سبب نزولها وفضلها)

روى الإمام أحمد: عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبيﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وكذا رواه الترمذي وابن جرير.

زاد ابن جرير والترمذي: قال[1] ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيءٌ يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد، ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثله شيء. ورواه ابن أبي حاتم.

حديث آخر في معناه: روى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن جابرﷺ: أن أعرابياً جاء إلى النبيﷺ فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها. إسناد متقارب، وقد رواه ابن جرير.

حديث آخر في فضلها: روى البخاري: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبيﷺ بعثَ رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك» فسألوه فقال: لأنها صفةُ الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبيﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه» هكذا رواه في كتاب التوحيد.

حديث آخر: روى البخاري في كتاب الصلاة: عن أنسﷺ قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعةٍ، فكلَّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إنْ أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبيﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟» قال: إني أحبها، قال: «حبُّك إياها أدخلك الجنة» هكذا رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به.

حديث في كونها تعدل ثلث القرآن: روى البخاري: عن أبي سعيد: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبيﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال النبيﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

حديث آخر: روى البخاري: عن أبي سعيدﷺ قال: قال رسول اللهﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن

---

(١) هو من قول أبي العالية.

يقرأ ثُلث القرآن في ليلة؟» فشقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد، ثلث القرآن» تفرد بإخراجه البخاري.

حديث آخر: روى أبو عيسى الترمذي: عن أبي هريرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهﷺ: «احشُدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» فحشد مَن حشد، ثم خرج نبي اللهﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول اللهﷺ: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي اللهﷺ فقال: «إني قلتُ سأقرأ عليكم ثلثَ القرآن، ألا وإنها تَعدلُ ثلث القرآن» وهكذا رواه مسلم في صحيحه.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن أبي الدرداءرَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول اللهﷺ قال: «أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ كل يوم ثلثَ القرآن؟» قالوا: نعم يا رسول الله، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز، قال: «فإنَّ الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثُ القرآن» رواه مسلم والنسائي.

حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة: روى الإمام مالك بن أنس: عن أبي هريرة يقول: أقبلت مع النبيﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول اللهﷺ: «وجبت» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة» ورواه الترمذي والنسائي.

حديث آخر: روى عبد الله بن الإمام أحمد: عن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن أبيه قال: أصابنا عطشٌ وظلمة، فانتظرنا رسول اللهﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي، فقال: «قل» فسكت، قال: «قل» قلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين، حين تُمسي وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه: عن رسول اللهﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات، بنى الله له قصراً في الجنة» فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول اللهﷺ: «الله أكثر وأطيب» تفرد به أحمد.

حديث آخر: قال النسائي عند تفسيرها: عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أنه دخل مع رسول اللهﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال: «والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب» وقد أخرجه بقية أصحاب السنن.

حديث آخر: في الاستشفاء بهن، روى البخاري: عن عائشة: أن النبيﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفَّيه، ثم نفثَ فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات» وهكذا رواه أهل السنن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾

١ - قد تقدم ذكر سبب نزولها. وقال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزير ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني: هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير ولا نديد، ولا شبيه ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات، إلا على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: يعني: الذي يَصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كَمل في سؤدده، الشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفءٌ، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

وعن أبي وائل ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده. ورواه عن ابن مسعود. وقال مالكٌ عن زيد بن أسلم: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد، وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه.

وقال الحسن أيضاً: الصمد الحي القيوم الذي لا زوال له.

وقال عكرمة: الصمد الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم.

وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد. كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو تفسير جيد.

وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أبي بن كعب في ذلك، وهو صريح فيه.

وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعكرمة أيضاً وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعطية العوفي والضحاك والسدي ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له.

وعن مجاهد ﴿الصَّمَدُ﴾: المصمت الذي لا جوف له. وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، وقال عبد الله بن بريدة أيضاً ﴿الصَّمَدُ﴾: نور يتلألأ، روى ذلك كله وحكاه ابن أبي حاتم والبيهقي والطبراني، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده.

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا ويشرب، وهو الباقي بعد خلقه.

وقال البيهقي نحو ذلك.

٣، ٤- وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد، ولا صاحبة، قال مجاهد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يعني: لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريبٌ يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ◆ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ◆ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً ◆ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحمٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ◆ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِ الرَّحْمَنِ عَبْداً ◆ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ◆ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ .

وقال تعالى : **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ◆ سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ◆ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾** وقال تعالى : **﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ◆ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** .

وفي صحيح البخاري : «لا أحد أصبرُ عَلى أذًى سمعه من الله ، يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» .

وروى البخاري : عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : كذَّبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي ، فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد» .

آخر تفسير سورة الإخلاص

****

﴿تفسير سورتي المعوذتين – وهما مدنيتان﴾

(ما ورد في فضل المعوذتين)

روى الإمام أحمد: عن زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه! فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقلتها، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ. ورواه أبو بكر الحميدي في مسنده.

وروى البخاري: عن زر قال: سألت أبي بن كعب فقلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا، فقال: إني سألتُ النبي ﷺ، فقال: «قيل لي فقلت» فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ، ورواه أيضاً والنسائي.

وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء، أن ابنَ مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعها من النبي ﷺ ولم يتواتر عنده، ثم قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم أثبتوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنة.

وقد روى مسلم في صحيحه: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلتْ هذه الليلة، لم يُر مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ورواه أحمد ومسلم أيضاً والترمذي والنسائي.

طريق أخرى: روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب، إذْ قال لي: «يا عقبة، ألا تركب؟ قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبتُ هُنَيَّة، ثم ركب، ثم قال: «يا عُقب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس» قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مرَّ بي فقال: «كيف رأيت يا عقب؟ اقرأ بهما كلما نمتَ وكلما قمت» ورواه أبو داود والنسائي أيضاً.

طريق أخرى: روى أحمد: عن عقبة بن عامر قال: أمرَني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات، في دُبر كل صلاة. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

طريق أخرى: روى أحمد: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ بالمعوذتين، فإنك لن تقرأ بمثلهما» تفرد به أحمد.

طريق أخرى: روى أحمد: عن عقبة بن عامر أنه قال: إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباءُ فركبها، فأخذ عقبةُ يقودها له، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فأعادها له حتى قرأها، فعرَف أني لم أفرح بها جداً «فقال لعلك تهاونتَ بها؟ فما قمتَ تصلي بشيءٍ مثلها» ورواه النسائي.

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الناس لم يتعوذوا بمثل هذين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ قال: «يا عقبةُ، قل» قلت: ماذا أقول؟ فسكت عني ثم قال: «قل» قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾»

فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ: «قل» قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «ما سأل سائلٌ بمثلها، ولا استعاذ مستعيذٌ بمثلها».

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في صلاة الصبح.

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدميه، فقلت: أقرئني سورة هود، أو سورة يوسف، فقال: «لن تقرأ شيئاً أنفع عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾».

حديث آخر: روى النسائي: عن ابن عباس الجهني: أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عباس، ألا أدلك – أو ألا أخبرك – أفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هاتان السورتان».

فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث.

حديث آخر: روى النسائي: عن جابر بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ «اقرأ يا جابر» قلت: وما أقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: «اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» فقرأ بهما، فقال: «اقرأ بهما، ولن تقرأ بمثلهما».

وتقدم حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن، وينفث في كفيه، ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده.

وروى الإمام مالك: عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنتُ أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها. ورواه البخاري ومسلم.

وتقدم في آخر سورة ﴿ن﴾ من حديث أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ كان يتعوَّذ من أعين الجان، وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذَ بهما، وترك ما سواهما. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

****

ترتيبها ١١٣ سورة الفلق – مدنية آياتها ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ ﴾

١ – روى ابن أبي حاتم: عن جابر قال: الفلق الصبح. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿الْفَلَقِ﴾ الصبح، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعبد الله بن محمد بن عقيل والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وابن زيد ومالك عن زيد بن أسلم مثل هذا.

قال القرظي وابن زيد وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿الْفَلَقِ﴾ الخلق. وكذا قال الضحاك: أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله.

وقال كعب الأحبار ﴿الْفَلَقِ﴾: بيت في جهنم، وإذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره. ورواه ابن أبي حاتم. وكذا روي عن عمرو بن عنبسة وابن عباس والسدي وغيرهم. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع منكر. وقال أبو عبد الرحمن الحبلي ﴿الْفَلَقِ﴾ من أسماء جهنم.

قال ابن جرير: والصواب القول الأول: أنه فلق الصبح. وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى.

٢ – وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: من شر جميع المخلوقات، وقال ثابت البناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق.

٣ – ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب، غروب الشمس. حكاه البخاري عنه، وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه، وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والضحاك وخصيف والحسن وقتادة: أنه الليل إذا أقبل بظلامه. وقال الزهري ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الشمس إذا غربت.

وعن عطية وقتادة: إذا وقب الليل: إذا ذهب، وقال أبو المهزم عن أبي هريرة ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الكوكب. وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر. قلت: وعمدة أصحاب هذا القول: ما رواه الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع، وقال «تعوَّذي بالله من شرِّ هذا الغَاسق إذا وقب». ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما.

ولفظ النسائي: «تعوَّذي بالله من شرِّ هذا، هذا الغاسق إذا وقب».

قال أصحاب القول الأول: وهو آية الليل إذا ولج، هذا لا ينافي قولنا، لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل فهو يرجع إلى ما قلناه، والله أعلم.

٤ ، ٥- وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك: يعني السواحر. قال مجاهد: إذا رقين ونفثن في العقد. وروى ابن جرير: عن ابن طاوس عن أبيه قال: ما من شيء أقرب إلى الشرك، من رقية الحية والمجانين.

وفي الحديث الآخر: أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال: «اشتكيت يا محمد؟» فقال: «نعم» فقال: «بسم اللهِ أرقيكَ، من كل داءٍ يُؤذيك، ومن شرِّ كلِّ حاسدٍ وعين، الله يشفيك»[1].

ولعل هذا كان من شكواه ﷺ حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، وردَّ كيد السَّحرة الحسَّاد من اليهود في رءوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفضحهم، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

روى الإمام أحمد: عن زيد بن أرقم قال: سَحَر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعَقد لك عُقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول الله ﷺ فاستخرجها، فجاءه بها فحللها، قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نَشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه حتى مات، ورواه النسائي.

وروى البخاري في كتاب الطب من صحيحه: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سُحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا - فقال: «يا عائشة، أعلمتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعَدَ أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطة، قال: وأين؟ قال: في جُفِّ طلعةِ ذَكر، تحت رعوفة في بئر ذروان» قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: «هذه البئر التي أُريتها وكأن ماءها نُقاعة الحنَّاء، وكأن نخلها رءوس الشياطين» قال: فاستخرج، فقلت: أفلا تَنشَّرت؟ فقال: «أما اللهُ فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» وقد رواه مسلم.

ورواه الإمام أحمد: عن عائشة قالت: لبث النبي ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما باله؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، وذكر تمام الحديث.

آخر تفسير سورة الفلق

****

---

(١) رواه مسلم في السلام (٤/ ١٧١٨) وأحمد (٣/ ٢٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
وقد مضى كلام المؤلف رحمه الله عن الحسد وعلاجه في آخر سورة القلم، فراجعه إن شئت.

ترتيبها ١١٤ — سورة الناس – مدنية — آياتها ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾

١ – ٣– هذه ثلاث صفاتٍ من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو ربُّ كل شيء، ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقةٌ له، مملوكة، عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو: الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحدٍ من بني آدم، إلا وله قرينٌ يزيِّن له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخَبال، والمعصوم من عصمه الله.

وقد ثبت في الصحيح: أنه «ما منكم من أحدٍ إلا قد وُكل به قرينه» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلَم، فلا يأمرني إلا بخير».

وثبت في الصحيحين: عن أنس في قصة زيارة صفية للنبيﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردَّها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبيﷺ أسرعا فقال رسول اللهﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال: «إن الشيطانَ يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خَشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئاً – أو قال: شراً –».

وروى الإمام أحمد: عن أبي تميمة يحدث: عن رديف رسول اللهﷺ قال: عثر بالنبيﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان فقال النبيﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب» تفرد به أحمد إسناده جيد قوي.

وفيه دلالة: على أنَّ القَلب متى ذَكرَ الله تصاغر الشيطان وغُلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلبَ.

٤– وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سَها وغَفَل وسوس، فإذا ذكرَ الله خَنسَ. وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن، وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال: هو الشيطان يأمر، فإذا أطيع خنس.

٥– وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هل يختص هذا ببني آدم، كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان. ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً.

وقال ابن جرير: وقد استعمل فيهم رجال من الجن، فلا بدع في إطلاق الناس عليهم.

٦– وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ثم بينهم فقال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وهذا يقوي القول الثاني، وقيل: قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تفسير للذي

يوسوس في صدور الناس، من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وكما روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل» قال: فقمتُ فصليتُ، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال: فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم» قال: فقلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل ومن شاء أكثر» قلت: يا رسول الله، فالصوم؟ قال: «فرضٌ مجزئٌ، وعند الله مزيد» قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة» قلت: يا رسول الله، فأيها أفضل؟ قال: «جُهد من مُقل، أوسر إلى فقير» قلت: يا رسول الله، أيُّ الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبياً كان؟ قال: «نعم، نبي مكلم» قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وبضعة عشر، جماً غفيراً» وقال مرة: «خمسة عشر» قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم، قال: «آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» ورواه النسائي.

وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً: أبو حاتم بن حبان في صحيحه بطريق آخر، ولفظ آخر مطول جداً، فالله أعلم.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحدث نفسي بالشّيء، لأن أَخرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلم به، قال: فقال النبي ﷺ: «اللهُ أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيدهُ إلى الوسوسة». ورواه أبو داود والنسائي[1].

[تم الجزء الرابع من تفسير ابن كثير، وبه تم الكتاب، ولله الحمد والمنة]

****

(١) قال العبد الفقير إلى عفو ربه الغني محمد بن حمد الحمود النجدي: تم تهذيب هذا التفسير المبارك «تفسير ابن كثير» بعد صلاة الظهر في اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك، لعام ١٤٢٨ هـ. فلله تعالى الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وصلى الله على عبده ونبيه محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرست الكتاب